
تحت سماء الطين
مفكرة شخصية لأربعة عقود عراقية
قيس حسن

تحت سماء الشيطان

مفكرة شخصية لأربعة عقود عراقية

قيس حسن



الغلاف
الصورة: مهند البغدادي
التنفيذ: ابراهيم أحمد

الطبعة الاولى 2014



المقدمة

عمر أكلته الحروب

هذا كتاب بريء، أمين، ونافع الى حدّ بعيد. وهذا ما أحسـب أنه سـيجعله كتابا مهما ومحبّبا وقريبا الى النفس.

أما وجوه براءته فتتمثل بخلوّه من أيّ ادّعاء. فلا هو برواية يتبختر فيها الخيال، ولا وجهة نظر في السياسة يتنافس فيها التحليل والتفكير، ولا محاولة لإضفاء معنى على تجربة، ولا جهد فوق العادة من أجل الإبهار في الاسلوب، ولا توكيد من أي نوع لذات المؤلف بوصفه صحفيّا أو كاتبا، ولا «رسالة» عُني بإيصالها الى أحد.

ومع ذلك فإن أشياء من كلّ هذه الوجوه الغائبة حاضرة حضورا خاصّا ومسليّا ومؤلما في ثنايـا العمـل، من دون تعمّل ولا تقصّد. تماما مثلمـا يحدث بصورة طبيعية لكلّ إنسان أن يمتلك بعضا من هذه الوجوه، في مناسبات وأيام ومراحل العمر المختلفة.

والحقيقة هي أن «الإنسـان»، الذي يتعيّن في هذه الحالة بشخص قيس حسن نفسه، هـو موضوع هذا الكتـاب. إنه حكاية عمر أكلتـه حروب متواصلة، تهـدأ ولكنّها لا تنتهي، تبرد ولكن شراراتها لا تنطفئ، وتتخفّى لكن لا ترحل. كما أنّه شهادة فريدة من نوعها عن حياة الشدّة والعسر التي دخلتها البلاد منذ الحرب العراقية – الإيرانية ولم تخرج بعدها من سيرة الحروب.

والبراءة في هذا الكتاب تعود، أيضا، الى «الأمانة» في تصوير الأحداث والأشخاص، بمن فيهم المؤلف، والمشاعر والآمال والخيبات التي تشكّل منها عالم الضغط العالي الواقع «تحت سـماء الشـيطان». وهو عالم عام جدا بقدر ما هو شـخصي جدا. فكلّ تعبير أصيـل للفـرد ينطوي على تجاوز أو عبور الى ما يـدور في أذهان أو نفوس الجماعة. ذلك أن الإنسان الذي يحسن تمثيل نفسه لا يعود يمثل نفسه فقط.

إنه كتاب أمين بدرجة فوق العادة على الواقع، على سيرة المؤلف، وحياة أهله وأصدقائه

ومحلته، ثم غربته القصيرة في إيران. كتاب فيه أشياء من أمانة الأب المسؤول الحادب علـى أولاده، ومن شـفقة الطبيب على مرضـاه، ومن دقة العالِم المدفـوع الى المعرفة المجرّدة من الأهواء. وقد تناوبت المسؤولية والشفقة والمعرفة على نسج وثيقة ضارية في مواجهتها للواقع، وصياغة سـيرة خالية من الحقـد لعالم مقاد بقاطرة هائلة من الكراهية. وثيقة خطتها يد إنسان طبيعي عن حياة غير طبيعية، أو إنسان سليم عن بلاد فقدت كل أسباب السلامة.

ويصـادف أن يتزامن انطلاق أولى حـروب البلد الكبرى مع اليوم الأول الذي كان من المفـترض أن تبدأ فيه دراسـة قيس في الصف الأوّل المتوسـط. مصادفـة غير عاديّة سـتترتب عليها، مـرّة والى الأبد، حياة غـير عاديّة. فقد كانت تلـك «المصادفة» بداية ملحمـة انخفضـت فيها قيمة كلّ شيء الى الصفر، من التعليـم الى الكرامة الى الحياة نفسـها. والتعليم خاصّةً هو عقل البلد. فإذا ضاع العقل اضطرب كلّ شيء، وفُقدت قيمة كلّ شيء. وهكذا اندفعت البلاد بحميّة غير معهودة الى الهاوية. انفتحت شـهيّة غريـزة الموت على أقصاها، وتحوّلت الى عقيدة شـاملة متحكّمـة ضدّ الحياة، عقيدة، أو عقائـد، تـسري في عروق الجلاد بقدر ما تسري في روح الضحية. لقد حل موسـم الهجرة الى الهلع والضياع والموت، وادلهمّت سماء الشيطان فوق البلاد.

وهناك، في بعض وقائع «المفكّرة» التي حدثت في الأمس، تستطيع الوقوع على جذور أحداث اليوم، وترى اللحمة المتماسـكة بين الماضي والحاضر. لكأنّ أبطال أو جمهور بعض تلك الوقائع كان أشبه بسجين فائر مهتاج، ينتظر أول فرصة تحرر، من أجل الدخول في حلبة الصراع القاتل، ومراكمة المزيد من العنف والدمار. ففي حادثين، على سـبيل المثال، وقعا للشخصيّة المعروفة السـيد عبد المجيد الخوئي، تعرّض خلالهما للإهانة والاعتداء على أيدي عراقيين في إيران قبل 2003، تستطيع أن ترى كيف إنهما كانا بمثابة التمهيد والإعداد للمصير الرهيب الذي سينتهي اليه بعد 2003.

لقد بدا الرجل في الوقائع الغريبة والمأساوية الثلاث نوعا من اليوتوبيا، شيئا من حلم «المكان الأفضل»، أمام عالم كان قد اختلف وتغيّر وانحدر الى «المكان الأتعس»، حيث

يعـمّ التوجـس والخوف من كل علامة مـن علامات الصحة أو العافيـة. كانت البلاد قـد تجمّدت وغرقت واسـتنزفت في عالم منيع على الأحـلام، في كابوس ثقيل مديد، في مقبرة. وقد ظهر الخوئي أمام العيون المستوحشة لامعا ومترفا وغريبا ومستفزا. جاء مسكونا بالأمل الى بلاد كانت تتقلّى لعقود عديدة بالنيران تحت سماء الشيطان. ماذا يفعل الحلم في منزل الكابوس؟ لم يكد يبدأ الكلام، لم يكد يبدأ الجلوس، لم يمش، لم يُطرد. حوصر قبل أن يبدأ أي شيء وقتل ومُثّل بجثّته.

هذه النهاية الفظيعة كانت لها بداية شنيعة نقع عليها في «مفكّرة» قيس. وهذا المثل ليـس فريـدا في الكتاب. ففيه وفرة من أعشـاب برية الأمس التـي تطاولت وصنعت غابات اليوم.

والجدير بالذكر ان تقليد «المفكّرة» ليس شائعا في بلادنا. فليس من المعتاد لدى الناس في هـذه البـلاد تدوين يومياتهم. هذه الممارسـة لم يحن أوانها بعد. ولعلّه سـيتأخر «بعـض الوقـت». فذلك منوط بحياة طبيعيّـة أولا، وحياة غنيّة لهـا قيمة ثانيا، وما يترتّب على كلّ ذلك من تنمية في فرص المتعة والحرية والإحساس والتأمل والمعرفة.

ولكن قيس حسـن، بما يتمتّع به من «حساسـية حديثة»، وحماسة لا تفتر، أراد من وضـع كلمة «مفكّرة» في عنوان الكتاب الفرعي، توجيه رسـالة الى قرائه حول أهمية تقليد المفكّرة، النابع من أهمية الحياة نفسها. وهذا الكتاب، بالجملة، يحفل بالدعوة الى تكريـم الحياة، وأهم من ذلك أنه يمثل ممارسـة فعليـة، وحارّة، لهذه الدعوة. إن وراء اندفاع المؤلف للإحاطة بالعالم من حوله، والحفر في دقائقه وعظائمه، حماسـة للحيـاة ملفتة، غير معهـودة، ومقاومة. فالقاعدة في عوالم فقـدان الثقة والأمان هي جمود الناس عند اليأس والسكون والعدمية. ولكنّ الكتاب، أو صاحبه، يقاوم، يدمع ويبتسـم ويرتعب، يحـترق ويخمد ويلعب، وفوق ذلـك يتأمل..تصوّروا! وهو خلال ذلك كلّه مندفع على الدوام ضد التيار في حركات حبّ وتوقير للحياة.

وقيس لا يسـتطيع التعامل ببرود مع أفعـال أو كلمات حبّ الحياة، خاصّة اذا كانت أصيلـة وقويـة. فهـي تلهمه وتلهبه، وهـو يحمى ويشـتعل بحبّها مـن أوّل نظرة.

وأذكــر أنه في وقت متأخر للغاية من إحدى الليالي قرأ نصّا عميقا جدا في هذا الاتجاه لدستويفســكي، فلــم يســتطع الانتظار عليه حتــى الصباح. كان يريــد تعميمه على الأصدقاء في الحال واللحظة. فبعثه عاجلا قرب الهزيع الأخير من الليل في رسالة على موبايلاتهم. وكان النصّ على درجة من القوّة، وفي نفس الوقت من القدرة على التعبير عن نفســية قيــس، بحيث صرت أربطه به بالمقدار نفســه الذي يرتبط فيه بمنشــئه العظيم.

ولكن مَنْ بإمكانه الإفلات من ذلك النص إذا مسّــه وشــعر بلذعته الحارقة، المحتفلة بالحياة، والجافلة المذعورة من العدم: «لو اســتطاع المرء أن يعيش على صخرة عالية لا يوجد فيها متســع إلا لموضع قــدم، ومن حوله المحيط، والظلمــة الأبديّة، والوحدة الأبديّة، والعواصف الأبديّة، لو تمكّن لاســتمر واقفا عــلى متر مربع من الفضاء بقيّة حياته، ألف ســنة، الى الأبد، إذ لا شــك أنه من الأفضل أن نحيا على أن نموت، فقط أن نحيا، ونحيا، ونحيا، كائنة ما كانت هي الحياة».

ومن المؤكد أن هذا الكتاب هو ثمرة من ثمرات التعلّق بالحياة في عالم احتكر الجدبُ أرضه والموتُ ســماءه. ثمرة شــقية وممتعة بما تضمّه من صور وأحداث وحفريات، وشــخصيات مختلفة عاشت جحيم المتر المربع المظلم العاصف. كما أنه ثمرة معرفة أكيدة، لأنّها تلقي أضواء على فترة مهمة من تاريخ العراق الحديث والمعاصر.

وهذا التاريخ، في اعتقادي، نتاج مرحلتين تولّتا التأثير فيه وتشكيله الى حدّ كبير. الأولى هي المرحلة العثمانية التي دامت نحو أربعة قرون. والثانية هي مرحلة الحصار الدولي التي استمرّت 13 عاما، وكان لها من الأثر في ما يساوي تأثير القرون «العصملية» أو يزيد. لكن على الرغم من هذه الأهمية التي احتلّتها مرحلة الحصار في تشــكيل البنية الاجتماعية لعراق اليوم، فإن المؤلفات والدراســات والشهادات و«المفكّرات» الخاصّة بها لا زالت محدودة أو قليلة. وهذا مفهوم. فالشعوب لا تضرب مواعيد مع التأريخ، وتصل اليها، إلا بعد أن تخرج من محارق التاريخ او قبوره.

ومن هنا يأتي نفع هذا الكتاب. فهو شــهادة شــجاعة عن جوانــب عديدة ومختلفة

مــن حياة الشــعب العراقي، أو شرائح كبيرة وأخرى هامشــيّة منه، في ظلّ الحصار، بالإضافــة الى مقدمات الحصار التي كانت قد بنيت من أحجارها جمهورية الخوف. ولا شكّ في أن معرفة هذا التاريخ، وهضمه واستيعابه، تمثّل خطوة كبيرة على طريق مســتقبل العــراق الذي لم يتعبــد منه شيء، حيــث لا بوصلة ولا خارطــة حدّدت له الاتجاه، ولا «حركة» أشــارت الى إمكانية إنقاذ البلاد من الاستمرار في ملحمة العيش «تحت سماء الشيطان».

شــخصيا أشــعر بالامتنان لهذا الكتاب، لأنه يقرّبني أكثر من نفسي وأهلي وشــعبي، ويزيدنــي قــدرةً على التّفهم والتســامح، مع أنــه لا يمنحني الأمان. ولكن هل ســبق لكتاب جادّ أن منح الأمان لأحد؟

أحمد المهنا

مساقط الرؤوس

هل يمكن لأي إنسان سـليم العقل عاش مـن أعوامه ما يكفـي ليفهم ويتأمل في قيمة الحياة البشـرية، هل يمكن لمثل هذا الانسان أن يرضى بأن تعاد عليه فصول الحيـاة في روايتها الهزيلة، لا أقول بنفس ظروفها التي شهدها هو في حياته بل بأي ظروف يشاء؟

كانت

ولدي يمان

أبـدأ قصتي معك من يوم ولادتك في بغداد، وكان ذلك في السـادس عشر من آذار عام 2008، يومهـا كنـت في الأربعـين من عمري، لم تكـن رحلة هانئـة أو هادئة، فثلاثة أرباعها دارت بين حروب وجوع وخوف. عن رحلة الشـقاء هذه سأكتب لك مستعينا بذاكرتي ومن يبلغ الأربعين في بلد مزقته الحروب لا تكون ذاكرته في أحسـن الأحوال

ولكن لعلّها من أجلك لا تكون في أسوأ الأحوال.

ولادتـك كانت في مستشـفى يقع بجانب الكرخ ونحن نسـكن الرصافـة، مياه دجلة التـي تفصل بـين الصوبين حملت معها نـذر الفناء، كانت الجثث تطفو على سـطح المياه، أناس أنهت حياتهم سورة كراهية طائفية، وحملتهم الأمواج بعيدا عن أهاليهم وأحلامهم. في العام الذي ولدت فيه كانت بغداد مسرحا لصراع حول السلطة يخلو من الرحمة والضمير، يدور بين أحزاب الشّـيعة والسنّة. كانت أرواح الناس وممتلكاتهم وأعمالهم أهدافا للفريقين، ومن يقتل أكثر تتوسّـع سلطته أكثر، اللعبة هي هكذا. في تلك الحرب تراجع الوطن وأخذت الطائفة مكانه، وساقت الكراهية المجتمع الى وضع مظلـم، لم يعد الجّار يأمن جاره، ولا الصديق يثق بصديقه. أعادت الناس اكتشـاف نفسها وفق خرائط الطائفية، الآلاف قتلوا على الهويّة، دون ذنب، في دورة عنف وكرة نـار تكـبر كلّ يـوم . في مدينة على هذه الدرجة من القبح سـقط رأسـك؛ فأي مصير سيكون بانتظارك؟

حملتـك بين كفـي الأمل والخوف، وأنا أعرف أن مسـاحة الأمل لا تتيـح لي أن اتوهم كثـيرا، كنـت أداري ندمي على ما فعلت معـك بالكثير من الأسـئلة الحانية والواعدة: هل يمكن أن أمنحك فسـحة من حياة تحفـظ كرامتك؟ كيف لي أن أبعدك عن العنف المتفشي في روح الناس، في لغتهم، وأدبهم، وتربيتهم، وفنونهم، وسياسـتهم؟ أريد أن أضعك بعيدا عن فضائك فأي مُحال أسعى اليه ؟ أتدري كم من الأبناء شكروا آباءهم لأنهم هربوا من هذا البلد قبل طوفان الحروب، وقبل أن تبدأ سنوات الهوان؟

عندما غادرنا المستشـفى الذي ولدت فيه بدا المنزل بعيدا، لا بسبب لهفتي للتمعّن في وجهـك، برغم حاجتي للنظر الى وجه بريء، بل خوفا من أن تطولك نيران الشـوارع وتحـرق فرحتي، كان خوف الفقدان لا وجل النـوال. وكنت كمن تورط بفضيحة أو جريمـة، لقد جئـت بك في اللحظة الخطأ، في المدينة الخطـأ، في البلد الخطأ. قرأت مع نفسي وأنا أحملك بلفافة تقيك شرّ هذا الوجود، شعرا عن سرّ هذا الوجود:

«ولدت كآلاف من يولدون، بآلاف أيام هذا الوجود
لأن فقيرا ـ بذات مساء ـ سعى نحو حضن فقيرة
وأطفأ فيه مرارة أيامه القاسية
نموت كآلاف من يكبرون
حين يقتاتون خبز الشموس
ويسقون ماء المطر
وتلقاهم صبية يافعين
حزانى، على الطرقات الحزينة
فتعجب كيف نموا واستطالوا، وشبت خطاهم ....
وهذي الحياة ضنينة»[1]

وصلنا البيت ظهرا، كان مجاورا لحسينية شيّدت في ستينيات القرن الماضي، وكان روادها من كبار السن الذين يأتونها تعبّدا وتمتّعا بتزجية الوقت، قبل أن تتحوّل الى أحد أكبر مراكز التّطرّف والعنف في بغداد بعد العام 2003، حين استحوذت عليها عناصر ميليشيا شيعيّة، تخونني الشجاعة لتسميتها بالاسم، بسبب خوفي من جندها. فهم لا يتردّدون أبدا في تمزيق جسدي لأي سبب يرونه «وجيها». على يد تلك الميليشيا تحوّلت الحسينيّة البائسة من مكان للعبادة والأمان الى مركز للسلطة والذعر، تستجوب فيه الناس وتهان وتذلّ. صارت أشبه بثكنة عسكرية تسيطر على الحي ويتحكم جنودها بمصير أهله، يراقبون الناس ويتابعون تحركاتهم وأعمالهم، وبسبب تراخي قبضة الحكومة وانحلال قدرتها على أداء دورها كانت السلطة الفعليّة بيدهم. في ذلك البيت القريب من تلك الحسينيّة، كان عليك أن تمضي أيامك الاولى.
في آخر الليل عدت لكتاب كنت قد بدأت بقراءته قبل أيام، هو مذكرات لشاعر عراقي، كانت عبقريته ضحية أفكار حزبية تورّط بها، هرب يوسف الصائغ في «اعترافات مالك ابن الريب» عبر منافذ اللغة الشعرية من مخاوف الكلام في السياسة والأحزاب،

١ . صلاح عبد الصبور ، مأساة الحلاج ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، سنة النشر ٢٠٠٠، ص ١٠٢.

وقد دخلها وخرج منها خسـارة وخرابة ولكنّه ظلّ حيّ اللغة بارع الحيلة. فشـغفت بالاعترافـات البليغة والرقيقة برغم ابتعادها عن الصراحة عند الحديث في السياسـة، لا لوم عليه، لأني أعرف تحت أي خوف وريبة سـطّر حروفه، كان ضحيّة السياسـة والأحزاب والأفكار المتطرّفة، فهرب بمذكراته الى الطفولة والشعر والمسرح. ليس غريبا أن يغفل الصائغ، وهو الماهر في صنعته، جزءا من صورته «الحقيقيّة» كشاعر انتمى في شـبابه للحزب الشـيوعيّ، وتحول بفعل إرهاب سـلطة البعث الى شاعر «مدجّن» ومدّاح. اكتفى بطفولته وشـبابه قبل أن يدخل عالم السياسة ويتقرّب من السلطان. هـو في كتابه «محايد» و«بريء» و«دارس لاهوت»، فقـد كتب كلماته في عصر صدام حسين.

ولـم يكن هناك عصر أفضل من عصر في حياتنا. ففي أول صباحاتك في البيت خطف جارنا الكرديّ مع سيارته الأجرة التي يعيل بها حشدا من الأرواح، أنزله منه خاطفوه وسط شارع قريب من بيته، عمره يتجاوز الستين عاما، كنا نعرف الفاعلين، ولكن لا أحـد يقوى على مجرد التّلميح اليهـم، قلنا: ما دخلنا نحن؟ ولم نقل: ما ذنب الكرديّ المسـكين في صراع على السـلطة بين السنّة والشّـيعة؟ الجميع يعرف الخاطفين لكنّ الجميع خائفون.

مـن هم هؤلاء الذيـن أذاقوا الناس مرّ الفجيعة؟ هم من جيل ولد في الحرب وكبر على أصواتهـا، وأدبها، ورعبها، عاشـوا فيها ورضعوا حليبها، وهـم، في النهاية، خلاصة روحها. شـكّلت الدكتاتورية رؤيتهم للعالم فكانـوا ضحيتها مثلما كانوا مخلوقاتها، وبفعل ما مرّ بهم أضاعوا بوصلة الإنسـانية، لا يعرفون معنى للحياة الآمنة الهادئة، ومعهـم أو بحضورهم لا يمكن أن يشـعر الإنسـان بالأمن والسـكينة. كنّا نعرف أنّ الخاطف يقف مع الحشد المحيط بمنزل المخطوف، يقف ليشفي غليله، موت إحساسه الإنسـاني يدفع بروحه التي تتدافع فيها الظلمات نحو البحث عن مزيد من التّشفّي، فهي لا تكتفي برؤية دم قتيلها، بل تبحث عن دموع أطفاله وعائلته.

عدت للمنزل مسـتنكرا، ومتسائلا: كيف يمكن أن يقدم الإنسان على أفعال تتلاءم مع

الحياة الطبيعية وتنسجم معها وهو يعيش وسط حرب أهلية فتاكة ؟!
تزوّجت في خريف العام 2006، وكان أكثر الأوقات دمويّة في عراق ما بعد الدكتاتوريّة، فيها قتل أكثر من خمسة آلاف مدني بكلّ وسائل القتل، ولم يعرف عدد من فقدوا خلالها. وكأنّ ذلك لم يكن كافيا، فزدت عليه استئجار ذلك البيت القريب من حسينيّة يبدأ روادها فجرهم بإرهاب الناس، وينهون يومهم بقتلهم. وفوق كل ذلك كنت أعمل في قناة فضائية أميركية في زمن الاحتلال الأميركي، واصرّح بعلمانيتي وبإيماني «المتصلّب» بأنه من دون ديمقراطيّة بنسختها الغربيّة، لا يمكن أن ننجو من مسالك الخراب، وأدافع علنا عن توجهاتي الفكرية المنافية لسلطة الدين ورجاله وكل ما يمت بصلة للإسلام السياسي. كان عليّ ألا أفعل ذلك وأن أكون حذرا، فهل هناك حمق فوق حمقي؟ ولكن لعلّ السبب هو الابتهاج بفسحة ولدت بين نهاية الدكتاتوريّة وبداية الحرب الأهليّة، صحيح أنها لم تكن آمنة، ولكنّها كانت «فسحة» على أي حال.
برغم هول أحداثها وقتامتها إلا أن حديثي معك عن أيام طفولتك الأولى، لا يشغل إلا حيزا مختصرا من هذه السطور، فلحظاتك الأولى ولدت من رحم جحيم سبقها، سحقت فيه كرامة الناس بالكامل، وخلفتهم ركاما. أعرف أن الكرامة المهدورة إرثٌ ينقله الآباء للأبناء في هذا البلد، إلا أني لا أريد لك أن تكون قدريّا وأنت تنظر لما يحيط بك من مشاق، بل واعيا مدركا لما جرى وكان. وحين تهدر كرامتك في أي لحظة، ليس عليك سوى أن تلقي اللوم عليّ أولا، ثم على المسار الدمويّ الذي مضى اليه بلدك، قد تفهم من الكتب ووسائل أخرى الكثير عن بلدك، لكني أريد لك أن تعرف روح وعقل من كان مسؤولا عن تربيتك. إن فهم بلدك قد يساعدك على فهمي، وسأتحدث عن بلدي كما انطبعت صوره في عيوني فقط، آملا بذلك جعل العلاقة مع الوطن جزءا من صلة القربى بيني وبينك.
أشقى كثيرا وأنا استجمع ذاكرتي لأبحث عن كلمة صادقة تعرّي روحي، وأحلامي، ومخاوفي، ومبعث شقائي هو أني لم أكن صريحا وصادقا طيلة الوقت في إعلان أفكاري والدفاع عنها. لقد ولدت في زمن الخوف من دون سبب ودون ذنب، لم أجرّب أن أطلق

لنفسي حريّة قول ما أشكّ أنه قد يتعارض مع السلطة، كانت دوائر الخوف تكبر وتتسع مع الوقت حتى أصبح دثار العقل بسببها سميكا وخانقا. لكني سأخوض معك في أيام قليلة ما لم أفعله طوال العمر، فأي شجاعة سأحتاج؟

تعلّمت في رحلة الأربعين أن هناك جزءا مطمورا في كل إنسان، ربما يخيفه كشفه، فيخفيه، ثم مع مرور الزمن قد ينساه، وسأجهد نفسي لكشف المطمور مني، لأنه هو الحقيقي والأصيل، هو الذي نمت فيه أفكاري وثقافتي وخصوصيتي. أما الظاهر فهو الشخصية الاجتماعية، الخاضعة، المنافقة، الدائرة حياتها حول الربح والخسارة، إن جزئي المطمور هو الذي تعامل معك، أحبك، وأضجرك، أبكاك، وأطعمك مخاوفه وسخريته، أكتب لك عن وقائع عشتها أو كنت شاهدا عليها، وخلّفت آثارا على روحي وعقلي وشكّلت كلّ واحدة منها جزءا من شخصيتي.

ومع مولدك، عدت لكلّ ما مرّ بي فلم أجد شيئاً يمكن لي أن أقول إنه «جوهر» تدور حوله تفاصيل حياتي سوى أن هناك رغبة عارمة بالانزواء عن الناس، بسبب خوف ظلّ منذ الصبا يحاصرني مثل سجان يرقب جسدي ويتشكّك بأفكاري ونواياي. لست لصّا إلا أن العالم كلّه بدا لي مثل شرطي فاسد وقاس يتربص بي، وكان عليّ إما أن أكون هذا الشرطي أو أن أكون الخائف الشريد المختبئ منه. فكنت ابن الخوف الذي أنفق حياته في رحلة توقفت عند محطة وحيدة فريدة لم يعرف سواها وهي الحرب. في الثانية عشرة من عمري «دخلتها» متفرجا، لم أحمل سلاحا ولم أشعر يوما أني أنتسب اليها، ولا فهمت حقيقتها أو تقبّلت دوافعها أو دافعت عن نواياها أو رضيت بنتائجها أو حتى سعدت بنهايتها.

ولكني سأكذب اذا قلت إن عنف الحرب لم ينسل الى لغتي و شخصيتي، انا ابن مآسيها، لا خنادقها. حين تكبر ستتذكر، وربما ستفهم خوفي وقلقي وأنا أقبّلك قبل أن أخرج من المنزل في الصباح، أو ضيقي الذي يصحبني عند العودة في المساء، فهذا كلّه نتاج يسير من صنعة الحرب التي لا تكتفي بالقتل وإنما تتجاوزهم لتعبث بأرواح الأحياء الذين عاشوا على ضفافها وهوامشها. إن الحرب لا تخلف شيئا سليما في

ضحاياها وشهودها، وأنا لا أصدق أنني أعرف ذلك تمام المعرفة وقد تزوّجت وأنجبت
والحرب دائرة، مستمرة، متنقلة من الحدود البعيدة الى أبواب البيوت.

الصبا وطبول الحرب

انتهى الصيف والتحقت بالمدرسة المتوسطة، مرتديا، لأول مرة، السروال الطويل (بعد أن بقيت ارتدي السروال القصير سنوات) مزدهيا، بأول علامات (رجولتي) ومتباهيا بشعري الذي تعلمت كيف أتقن تسريحه.

يوسف الصائغ

« الاعتراف الأخير لمالك بن الريب، سيرة ذاتية»

وأنا أحمل «فايل» يضم صوري ووثيقة تخرجي من المدرسة الابتدائية ذهبت الى بناية متوسطة النابغة لالتحق طالبا في صفوفها، كان ذلك في اليوم نفسه الذي بدأت فيه الحرب مع إيران، والدّقة باليوم ليست على سبيل المبالغة بل هي الحقيقة كما وقعت، فحسب ما تتطلبه الإجراءات الرسميّة، كان عليّ أن أسجل اسمي في المدرسة

المتوســطة قبل أسبوع واحد من بدء الدوام الرسميّ للمدارس، الذي يبدأ في الأول من تشرين الأول.

ذهبت الى المدرسة في الثالث والعشرين من أيلول 1980، فرحا، ومزهوّا، تقع المدرسة في أطــراف مدينتنا الكمالية، التي تقع هي الأخرى عــلى الأطراف الشرقية للعاصمة، وهي من أشدّ أحياء بغداد بؤسا وفقرا، كنا مجموعة من الصبيان نقف أمام المدرسة، استوقفنا حارسها «حســوني» بعيونه الجاحظة، وشواربه البيضاء الكثة، متكئا على باب المدرسة الحديدي الواطئ ، قال لنا:

ـــ ارجعوا لبيوتكم ما تشوفون الدنيا مشتعلة ؟ الحرب بدت!

سكت حسوني، ومضيت الى عالم الحرب الذي سأعيشه ما بقي لي من عمر.

حرب؟ ما الذي تعنيه؟ وما دخل التســجيل في المدرســة بها؟ تســاءلت مع نفسي وأنا أرقــب الحارس وهــو يطردنا، أدرت وجهي صوب الشــارع ماضيــا الى البيت، كنت خائبا، ومنكسرا. لا دخل للحرب في المشاعر التي اجتاحتني، حزني كان بسبب منعي من الدخول الى مدرســتي لا بســبب الحرب التي اشــتعلت قبل لحظات فقط، فعودة أوراقــي معي عنــت تعطيل حلمي الذي ظلّ يراودني طوال أشــهر العطلة الصيفية، كنت قد وقفت مرّات عدّة قبل هذا اليوم أمام بناية «المتوسطة»، مثل عاشق يقف أمام منزل حبيبته، قلت مع نفسي ســتفتحين بابك لي فأنا لم أعد طفلا، وحينها سأســخر من الصغار، مشــيت، تحيــط بي الحيرة من كلمات الحارس اللعين، لم أمض ســوى خطوات قليلة حتى دوّى صوت صافرة الإنذار، التي تعلو برجا يمتد عنقه الى السماء، بناه آســيويون ربما من كوريا أو الصين قبل أشــهر من الحرب في ســاحة مدرســتنا الابتدائيــة، ركــض النــاس، الكبار والصغــار دخلــوا بيوتهم، بقيت وحيــدا ترتجف أعضائي، لم تسعفني رجلاي على الركض، فجلست أمام باب بيت قريب، تكاد عيوني تخرج من صوت الصافرة، وحينها عرفت معنى الخوف والهلع لكني لم أعرف طعم الحرب بعد، مرت صورة أمي أمامي، توســلت بها أن تأتي لتنقذني من هذه الأهوال، لــم أكن أقــوى على البكاء، فالدمع لا ينزل حين توشــك الروح أن تهرب من الجســد،

وحــين وقفت على أرجلي لأركض الى البيت، شــاهدت طائرة تحلّــق فوق البيوت وهي تنفث دخانها المخيف، ويمزق صوتها الهدوء المحيط. صافرة إنذار، وطائرة ســوداء، وهلع يخرج الروح، هكذا بدأ أول أيام الدراســة المتوســطة، وهكذا أيضا ابتدأ الصبا، في ذلك اليوم ســمعت حارس المدرســة يقول، إن الحرب بدأت، لكني لم أسمع بعدها من يقول إنها انتهت.

كنــت أعيش قبل الحرب في عالم آخر، عالــم الطفولة، حيث الحياة ملعبٌ لا حدود له، لكن الحرب سرقتني منه، فقدت السلام والطفولة معا.

في الثانــي والعشريــن من أيلول، قالــت الحكومة إن حربنا مع ايــران قد بدأت، كنت مندهشا من ردود فعل الناس وهم يراقبون ما يجري على الحدود ويتحدثون عنه، البعض كان متحمسا، آخرون كانوا خائفين، ولم أعرف مشاعر كثيرين منهم حول ما يجري، وفي أي جهة من المشــهد كانوا يقفــون، لكن أحدا لم يكن معنيا بالنهاية التي ستقودنا لها هذه «الحماسة» التي ليس لها مثيل. ومع الحرب بدت الناس وكأنّها قد خرجت من سبات طويل ورمت عن نفسها الكسل والخدر، خيّم القلق على الجميع، لا أحد يفهم ما يجري، لكن الحكومة تقول، إن ايران تريد احتلال بلدنا وتدميره.

قبل أن تقع الحرب كانت ايران قد استحوذت على اهتمام العالم وترقبه، بسبب قيادة رجــال الدين الشّــيعة لثورة عارمة عــلى ملك إيران، محمد رضا بهلوي، الذي ســمّى نفســه بملــك ملوك إيران. انتهت الثــورة بهروب الملك وانهيار نظامــه، وإقامة نظام حكم إســلامي، لم أعِ بأني أعيش حدثا تاريخيا مذهلا، لذلك اســتحال عليّ وأنا طفل صغير استيعاب حجم الأثر الذي تركته الثورة ليس على الشّيعة في إيران والعراق بل على العالم بأسره، كما ستكشف الأيام، لكني أجزم تماما، أن محيطي، وهو في الأغلب من بسطاء الشّيعة، كان مندهشا ومفتخرا بما يجري في إيران.

كانت الثورة، وإيران، والإســلام، والشّــيعة قد اختصرت جميعها بشخص الخميني، اســتحوذ هذا المعمّــم العبوس على أرواح الشــيعة وعلى عقول آخرين. كان بالنســبة للعالــم لغزا آسرا بحاجة للكثير من التأمل والتفكير لفك أسراره، وبالنســبة للشــيعة

كان بطلهـم الذي يشـبه أئمتهم، وحلمهم الـذي انتظروه طويلا، وعلى يديه سـوف يسـتعيدون كرامتهم وحقوقهم المهانة، وبالهالة التي تحيط بصورته كانوا يلمسون أملهـم بالخلاص وهو يتجـلّى على الأرض. ومـن كلّ هذا المحيط، كنـت معنيا بعمي عليّ، أكبر أشـقاء والدي، كان قد تجاوز السـتين عاما، وكان حبّه للخميني بلا حدود، يبدو لمحدثه وكأنّه يعرف الخميني منذ سـنوات طويلة، ومع مرور الأيام تلبسـه هذا الحبّ، وغير مجرى حياته، فأطلق لحيته؛ ليس امتثالا للشريعة بل تمثلا بحبيبه، كان الراديو وسـيلته لمعرفة أخبار «بلد المحبوب». وحين اشتعلت الحرب، اشتعلت روحه بكراهية كل ما يمت لصدام حسـين، كان يراقب بشـغف ما يقوله صدام والبعث عن الخمينـي «الدجّال» حسـب النعت الذي أطلقه عليه إعلام السـلطة، لا يترك عمي أي فرصـة تفوت دون أن يجادل القريبين منه، سـاخرا مـرّة وغاضبا آلاف المرات، كنت اراقـب تعلقه الغريب بالجدل، حيث تفضح قسـمات وجهه وانفعاله مع سـيكارته، ولهفته في «إفحام» الخصم حبّا وإعجابا بسلطة رجال الدين في إيران. وكانت كلماته وحركاته أشـبه بأمواج أمنية باعادة سـيناريو الثورة الإيرانية في العراق. واتسـعت شهرة عمي بحبّ الخميني والإعجاب بثورته، لكنّه تلقّى في أول أيام حبّه درسا قاسيا إضطره ليس الى ضبط لسـانه فقط بل بلعه من الخوف، كان ذلك بعد أسـابيع قليلة عـلى بدء الحـرب، يومها زارنا عدد من أقاربنا لخطبة شـقيقتي، ضمّ فريق الخطّابة شـقيق الخطيب، كان بعثيّا في أول الخطى، ولم يعرف عمي حرارة انتماء قريبه هذا لحزب البعث، جلس الضيوف؛ استعجل عمي بفتح حواره المفضل، وانهال على صدام حسـين سـبّا وشـتما، دون أن ينسى الحديث عن إعجابه بالخميني وثورته وسلطته، طلـب منه قريبه البعثي أن يترك الحديث عن هذا الموضوع، إلا أن عمي اسـتمرّ دون تـردّد أو خـوف، احتدم النقـاش، فانتفض البعثي بقوّة ونهض من جلسـته وأسرع بالخروج، بدا الجو مخيفا، لم تنجح توسـلات الحاضرين في ثنيه عن موقفه، فوقف؛ ورفع سبابته مهددا ومتوعّدا وقال لعمي بانفعال حاد:

- راح تشوف أبو يوسف اللي يصير بيك.

نهــض والــدي من مكانه وطرده شرّ طــردة، لكنّه كرّر تهديده وهــو يخرج من باب الــدار، وظلّ عمي متســمرا في مكانه، مذهولا من صدمة التهديـد، ومرتعدا من الثقة العالية في نبرة البعثي وهو يهزّ بسبباته أمام الجميع، وحين خرج الضيوف بعد إتمام الخطبة، جلس والدي وعمّي في الغرفة، كانا في أشـدّ حالات الحيرة والخوف، ولا زالت ذاكرتي تحفظ مشــهدهما صامتين وتغطي وجهيهما قســمات الغضب والخوف، في ذلك الوقت كانت الوشاية وكتابة التقارير للحزب من قبل أعضائه وغيرهم، هي سيرة أنــاس كثيرين، يتطوعون لها لأســباب عديـدة، كره، خلاف شــخصي، تزلّف، إيمان، حبّ للســلطة، لم تثر الوشايات رعب الناس فقط بل أفقدتهم الثقة فيما بينهم، فهي تعامل باهتمام كبير وجدية لا مثيل لها، وتضع الموشى به في دائرة من الشكّ والسؤال مــن قبل حــزب البعث أو أجهزة الأمن، ممــا يجعل مصيره مهـدّدا بعقوبات منوعة؛ أدناهــا المراقبة وأقصاهــا القتل. وصلتنا أخبار ما تعرّض له ذلــك البعثيّ من تأنيب من أهله، ومنع من تنفيذ تهديده، لكن والدي ولسنوات طويلة لم يغفر لقريبه، وظلّ يذكره بألم أحيانا وبحيرة أحيانا أخرى، فهل تعقل هذه الدرجة من الحبّ لصدام أو الخوف منه؟ هل يمكن أن يتســببّ إنســان بإعدام قريب له لمجرد أنه انتقد صدام أو شتمه؟ ماذا عن قيم العشيرة التي ترفض التنكيل بالأقارب وتفرض التعاطف معهم وحمايتهم من الأذى ؟

سـبّب عمّي لنا الكثير من المتاعب، أولها، خوفنا ليس فقط من شهرته بحبّ الخميني بل من شهرته بسماع إذاعة طهران الناطقة باللغة العربية، فقد أتاح له عمله كحارس ليلي في إحدى الدوائر أن يســتمع للراديو باســتمرار و»يكافح» من أجل التقاط تردّد الإذاعة بسبب الحجب والتشويش الذي تقوم به السلطة عليها، تحوّل الراديو الى عضو من أعضاء جسده، ولم يجرؤ أحدٌ على لمس جهاز تغذيته «الفكري»، كان يغضب من كل من يلمسه، أما سبب شهرته فهو مساعدته للعوائل التي فقدت أبناءها في المعارك، فقــد كانت الإذاعة الايرانية تبث أســماء الأسرى أو لقاءات معهم، يذكرون أســماءهم وأســماء أهلهم ومناطقهم، وحين ينجح في التقاط اســم أحد المعارف أو الأقارب كان

يوصل الخبر لأهله، فكان شـكرهم له وثناؤهم عليه، يصل الى «سابع جار» لذلك كان خـوف أهلي مـبرّرا، لم يكد يمضي يوم مـن دون أن يلام على اسـتماعه للراديو، لكن عناده كان مضرب المثل.

كان ميلي لعمّي هو بمعنى من المعاني انشدادا لحلم الانعتاق الشيعي، ومثل كلّ الأطفال شكل محيطي وعيي ورؤيتي للعالم ولنفسي. كنت أرى نفسي كشيعي مقهور، وكانت هـذه أوّل الحقائق التي لا يجادل حولها الشّـيعة، فهم ينظـرون لتاريخهم باعتباره سلسلة من المصائب والنكبات أذاقهم إياها الحكام المسلمون، وبفعل صورة الخميني بعمامته السوداء التي تشير الى نسبه الهاشميّ، تحطّمت سنوات القهر والمهانة، فهو سـيحكم بشرع الأئمة ونهجهم ويحمي أرواح الشّيعة ويعيد لهم كرامتهم وشعورهم بقوّتهـم، هذه الصورة الآسرة والمثالية يصعب تحطيمها والخروج من سـحرها، لقد أزاح الخميني كل أثقال التاريخ التي أُلقيت على الشّيعة، حين حطّم امبراطورية كبرى وأقام بدلا عنها «حكومة الفقهاء الأتقياء».

أضافـت الحرب درجات أخرى ليقيني بأن العالم كلّه يطارد الشّـيعة ويريد قهرهم والتنكيل بهم، فلماذا حارب صدام إيران؟ أليسـت دوافع العدوان هي كره الشّـيعة والخوف من أن يكون لهم مكان تحت الشمس. لم أعرف معنى فكرة تصدير الثورة، وهو الشعار الذي رفعه الخميني في لافتة ثورته ودولته، وأرعب صدام حسين الذي تولى رئاسة الجمهورية للتوّ، لم أعرف بعد أن السياسة أكثر تعقيدا من المشاعر البسيطة، وهـي تعمل بعيدا عـن العواطف، بل تتعامـل مع الحقائق والمصالـح والطموحات. كان الاختـلاف بين أفكار السـلطة وأفكار المحيط الاجتماعي شـديدا ومحتدما، لكن كليهما لم ينميا أي شكل من أشكال حرية الرأي والفكر، أعداء السلطة كانوا بالنسبة لنا منزهين ومقدسـين، الخميني، وحـزب الدعوة، ورجال الديـن في النجف، وعوائل «الشـهداء» من المعارضين كانوا في نظر السـلطة أعداء، في حـين كان محيطي ينظر لهـم بالكثير من الاجلال والاحترام، وبالنسـبة لفتى في مقتبل العمر كان عليّ أن أبدو منحازا ومتقبلا لما يمليه علي محيطي، وفي الوقت نفسـه عليّ أن أثقل لسـاني بالكثير

من الأحجار كي لا أعلن صراحة أي رأي بخصوص «الأعداء» و»الأحبة»، أعداء السلطة هم أحبتي، وأحبابها أعدائي.

في أول سـنة من سـنوات الدراسـة المتوسـطة، ألزمنا بارتداء الزي العسـكري أيام الخميس من كلّ أسـبوع، وهو يوم رفـع العلم. كان هذا الفرض هـو محاولة لخلق نوع من التواصل والعيش في أجواء الحرب وإبقاء الحماسـة لها متوهجة في النفوس، ولا زالت تعلق في روحي الى اليوم رائحة البدلة الزيتونية الكريهة، التي أعطاني إياها شـقيقي وجهزت لتلائم جسـدي، كانت خشنة وتبعث سأما لا أقوى على تحمله، لكن بمرور الأيام تلاشى كرهي لها، لقد نجحت السـلطة في مسعاها مع الصبية، فهم ومع الاسـتمرار في الخضوع لما تفرضه عليهم سـيتناغمون مـع إرادتها وتذوب بالتدريج أي رغبـة بالممانعـة أو الرفض، وفعلا لم تصبح البدلة الخاكي شـيئا طبيعيا لا يثير أي مشـاعر فحسـب، بل أصبحت تشعرني بنوع من الانسـجام والتّوحد مع المجتمع والسـلطة، فأنا وصدام نلبس ذات اللباس، بلونـه وفصاله لكن ليس بنوعية القماش طبعا! تريد السلطة أن يعيش المجتمع قريبا من الحرب، يتآلف معها، يرقص لنارها، وليس عليه أن يتذمّر منها، أو يشعر بحقيقتها المدمّرة وطعمها المرّ، وكان شعار «كلّ شيء مـن أجل المعركة» طاغيا ومتحكما، وفعلا بدا وكأنّ كلّ الأشـياء خلقت من أجل الحرب.

في السـنة الثانية من الدراسة المتوسطة، تطوّر مسعى السـلطة في تحويل اهتمامات الشـباب المدني وتحديدا طلبة المدارس نحو العيش في أجواء الحرب وتدعيم السلطة، ولكـن هذه المرّة عبر دفعهم باتجاه لعب دور الجواسـيس أو بعبارة أخرى تحويلهم الى «صبيـان أمن». زار صفنا أحد الرفاق البعثيين، كان يبدو شـخصا مهما، بالنظر لعدد الأشـخاص المحيطين به وبضمنهم مديرنا، البعثي الذي قتل بعد 2003، الكلّ ينصـت له باهتمـام، تحدّث معنا حـول «الحـرب المفروضة» و«القيـادة الحكيمة» و«أطماع الفرس المجوس» والى آخر أسطوانة الحديث الحزبي المكرّر والممقوت، طلب منا «الرفيق» أن نكون عيونا وعونا للسـلطة، قال وهو يضرب مثلا على شكل تعاوننا

مع السلطة، لو شاهدتم سيارة يقودها شخص غريب عن المنطقة، وتكرّر ذهابه وإيابه في الشارع، فقد يشكل هذا خطرا على أهالي الحي، فاوقفوه وقولوا له: من أنت؟ وماذا تريد؟ وإذا رفض الاجابة، فسجّلوا رقم سيارته وأوصلوه الى المنظمة الحزبية في المنطقة أو الى أي رفيق حزبي من جيرانكم أو معارفكم، كنت فرحا بهذا التكليف، فهو يعني أنني أصبحت جزءا من السلطة وهي تحتاجني رغم صغر سني، فاعتبرت من جانبي مراقبة السيارات الغريبة وتسجيل أرقامها، واجبا لا مناص من أدائه بأسرع وقت.

لم تمض سوى أيام معدودات على هذا التكليف «الأمني» حتى شاهدت سيارة تسير ببطء في الشارع، مضى صاحبها مسافة ليست بالبعيدة، ثم استدار عائدا من أمامي، فرحت بهذا الصيد الثمين، وقلت مع نفسي لقد وقع هذا الغريب في شرّ أعماله وسأكشف نواياه الخبيثة، أسرعت الى البيت وأخرجت ورقة وقلما ووقفت لأسجّل رقم السيارة، شاهدني السائق فتوقف، نزل من السيارة، اقترب مني، وقال:

ـ ليش سجّلت الرقم؟

قلت له: الرفيق طلب منا.

ـ شك (مزّق) الورقة .

كان صوته شديد الحزم ، مزقتها دون تردّد، ثم قال وعيونه تتطاير شررا :

ـ طب (ادخل) جوّة (في داخل المنزل).

دخلت مسرعا، وخائفا، اكتشفت بعد زمن، أنه بعثي، وهو موظف حكومي، كنت جاسوسا فاشلا فقد اصطدت شرطيا بدل الجاسوس.

في السنة الثالثة من الحرب، بدأت السلطة خطوة «عمليّة» في مجال كسب الشباب والصبيان الى صفوف حزبها، وهم الجيل الذي تسميه «جيل الثورة» وهو بالنسبة لها عجينة سهلة وطيّعة، جاءني أحد زملائي في الصف طالبا مني الحديث على انفراد، وهو بعثي بدرجة مؤيد، كانت عائلته قد انتقلت قبل أقلّ من سنة الى بغداد من ريف إحدى المحافظات القريبة، وسرعان ما انسجم مع المدينة، وحزبها، وسلطتها، ابتدأ

الكلام قائلا: إن مسـؤوله الحزبي طلب من مجموعته التي يرأسـها، مفاتحة الشباب للانضمـام الى صفوف الحزب، قالها دون مقدمات، قلت له أعطني فرصة لاستشـير أهـلي، لـم أكن لأعرف ما فائدة أو مـضرة الانتماء للبعث. إلا إني كنت اشـاهد الكثير مـن الرجال ومن مختلف الأعمار وهم يحملـون دفاترهم ذاهبين الى المنظمة الحزبية القريبة منا، كان الأمر يبدو لي وكأنّه طبيعي ومنسـجم مع إرادة السـلطة والمجتمع معـا، لم يمانع أحدٌ من أهلي، ومن جانبي وجدت أن الرفض قد يكون مضرّا بعائلتي وربما سـيضعوني في دائرة الشـكّ والاسـتفهام فيما لو رفضت طلب الانضمام، كان الرفض مجازفة بالنسبة لي، وفعلا أخذني زميلي الى مقر المنظمة وقدمني الى مسؤول حزبـي، عارضا عليـه قبولي في الحزب، بعـد أن أخذ قبل مدّة أوراقـي الثبوتية وهي الجنسيّة وشهادتها وعدد من الصور، جلست أمام الرفيق يغطيني الخوف، كنت مثل مسـكين يراجع دوائر الدولة، عرف المسؤول البعثي أخوتي الكبار، وقال سنبتّ بأمر قبولك، بعد أيام قليلة كنت مؤيدا لحزب البعث، اجتمع بنا الرفيق المسؤول وهو خال أحد أصدقائي، وشاءت المصادفة أن يكون مثل زميلي الذي فاتحني بموضوع الانتماء وكسـبني للحزب (عبارة كسبني للحزب كانت شـائعة في أدبيات البعث وربما يسأل عنها البعثي بعد سنوات طويلة من انتمائه فيقال له: من الذي كسبك للحزب؟). كان «رفيقنا» قـد جاء الى بغداد قادما من الريف، كانت لهجته الريفية طاغية، فلا يقوى على الاستمرار في الحديث بلغة فصيحة فيترك للسانه حرية العودة الى أصوله الريفية، رسالته» التثقيفية» لا تتناسب ومؤهلاته البسيطة، وبعد بضعة اجتماعات في صفوف مدرستنا الابتدائية بدا الأمر مملّا وسخيفا غاية السخف.

كان الاجتمـاع لا يتعـدّى الحديث عـن بضعة مفاهيم ممجوجة ومكـرّرة، وتدور في أغلبهـا حول تمجيد الحزب وأفكاره، أما الحصة الأكبر فكانت مخصصة للإطراء على كلمات وخطب «القائد الضرورة» التي تصعق العقل والروح بسطحيتها وسذاجتها، أحاديث صدام حسـين في التلفزيون تتحوّل الى موضوعات للمناقشـة الحزبية، كانت المناقشة تضعها موضع الفكر العميق، وفي أحيان كثيرة كانت تعتبر شيئا من النبوءة

والإلهام؛ تحلّل، وتدرّس، وتناقش، رغم سخفها.

قرّرت الهرب من الالتزام الحزبي البارد والممل، بعد أسابيع على ذلك أبلغت بضرورة الحضـور الى المنظمة الحزبية للوقوف على موقفي! شـعرت بورطتي، فالأمر لم يعد مزحة، تحدّث معي المسـؤول بنبرة عنيفة، قال إنهم سيأخذوني ومعي آخرون فعلوا فعلتي في نفس المنظمة، الى مقر الشـعبة الحزبية في منطقة العبيدي، لتوقيفنا بضعة أيـام، اعتقدت أنه ليس جادا بتهديده، وأن كلماتـه هي «جرة أذن» فقط، ولكن حين انتهى الاجتماع خرج الجميع وطلب مني المسـؤول البقـاء في القاعة، أغلق عليّ الباب ووقفت أمام الشـباك المطلّ على السـاحة لعلّ هناك من يسمع توسلاتي، وبعد دقائق فتح المسؤول الباب وأخرجني ليعيد عليّ تهديده بصورة أكثر حدّة وجدّيّة.

عدّت لذات السـأم والاجترار، بقيت سنتين وأنا أشارك الحزب اجتماعاته، وفي مرحلة السـادس الإعدادي وجدت الفرصة سـانحة للهرب الأخير، كان عـذري أنا وعدد من الأصدقاء أننا مشـغولون بالدراسـة والقراءة في مرحلة البكالوريـا، وفعلا لم نواجه بالتشـدّد والتهديد الأول، لكن حزب البعث اكتشـف طريقة مبتكرة ومخادعة لإعادة «الفالتين» من صفوفه، فقد أضاف لاسـتمارة التقديم الى الجامعات فقرة الانتماء الى البعث وعلينا أن نحدّد هل نحن بعثيون، ام مستقلون؟ عدنا خائبين الى المنظمة وبعد أخذ وردّ وممانعة و«رزالة» أيدت المنظمة كوننا بعثيين، وعدّت الأزمة.

أقسى الضغوط النفسـية تأتـي من الكلام الـكاذب والمنافق الـذي يتبادله الطرفان، السلطة، والشعب، السلطة تقول إنها جاءت لخدمة الشعب وتسعى لراحته وسعادته وأن الشـعب شـجاع، ومخلـص، وهو مثل أعـلى في التفاني من أجـل الوطن، ويحب ثورتـه وقائده ويفديهمـا بالروح والدّم، ويقـول المواطن إن القائد شـجاع، وطني، مخلص، كفوء، يسعى لخير الناس وسعادتها، وإنه لا سواه يصلح للقيادة أبد الدهر، الكذب المتبـادل كان الحقيقة الوحيدة التي تكمن في كلمات السـلطة وخطب القائد، وفي حديـث الناس، وتحت هذه الكلمات وخلف صوتها النشـاز والزائف كانت هناك حقيقة صامتة، خفيّة، سريّة، لا ترى من حولها سـوى سـلطة غاشمة وشعب خائف

ومستسلم، أما في العلن فقد كان الوضع كما قال باسترناك عن أيام ستالين: « ليس للحقيقة وجود في الاتحاد السوفياتي».

البحث عن صدق الإيمان بفكر البعث وعظمة القائد، ليس مهما للسلطة، المهم بالنسبة لها تركيز اهتمامها على الشباب وتحويلهم الى وشاة خاضعين لأمرها، وبغض النظر عن درجة الاعتقاد أو الايمان بفكر الحزب والقائد، علينا أن ندور مع رغبات السلطة ونحن عميان، كان الابتعاد عن الركب أو المجموع أو الاستقلال السياسي أمرا يثير مخاوفنا أولا قبل أن يثير مخاوف السلطة، فالابتعاد عن القطيع يدفع بالوشاة نحو البحث عن الأسباب، وفي السنوات التي بلغ فيها الخوف من بطش السلطة حدّه الأعلى، هل يمكن أن يحتمل أحد مثلا، أن يقال إنه لا يحترم أفكار الحزب أو لا يؤمن بها لذلك لم ينتم للحزب رغم مفاتحته؟ إن مجرد الاحتمال

بامكانية أن تثار أسئلة من هذا النوع يكفي ويزيد للدخول مع الجموع الحزبية المجّدة والمصفّقة، لذلك كان الحديث عن وصول أعداد البعثيين في تلك السنوات الى الملايين ليس كاذبا أو مبالغا فيه، فهناك من انتمى عن إيمان ورغبة حقيقيين، وهناك من دفعه الخوف من سلطة البعث الى الدخول في تنظيماته، وهناك من أراد الحفاظ على عمله ومكاسبه عبر الانتماء، وهذه الدوافع شكلت في النهاية رقما كبيرا، الرقم المليوني في النهاية كان إعلان انتصار البعث على المجتمع، أو إعلانا بأن البطش قد بلغ الكمال.

أي شخص استحوذ على خيالي وفكري؟ هل كان صدام أم الخميني؟ في أي أرض وقفت؟ هل كنت صداميًا أم خمينيًا؟ مع أيّهما انسجم عقلي وتعاطف؟ إذا لم يكن معقولا أن يشكل طفل صغير لنفسه موقفا أو رأيا نهائيًا وجادًا في قضيّة سياسيّة بالغة التعقيد وتتداخل فيها العواطف والحقائق، فان هذا يعفيني بالتأكيد من مهمة الخوض في هذه القضيّة حين اتحدث عن الطفولة، ولكن ما الذي جرى لهذا الموقف والخيار في رجولتي، اعترف أن عقبة مثل هذه ليس سهلا عليّ اجتيازها، فبين رغبات المحيط ومغذياته وأفكاره وبين بطش السلطة وسياستها ومساعيها وأساليبها كنت

اتلمّس طريقي وأقلّب أفكاري، فتارة وضعتني صورة الخميني أمام الأمل بنهاية العذاب والشقاء الشّيعيّ، وتارة أجد نفسي ساخرا ورافضا لكل ما حمل من أفكار بالية لا تتلاءم مع روح العصر التي يكثفها احترام حقوق الإنسان، ولا مع الإسلام نفسه، لقد كنا نعيش لحظة يمكن أن أسميها لحظة الذروة، كان صدام يشكل ذروة البطش في العالمين العربيّ والإسلاميّ. ومن جانبه يشكل الخميني ذروة الأمل، وبين الذّروتين كنّا ندور ونتلمّس المصير، لا أدري الى أي حدّ يمكن أن أكون مبالغا حين أقول إننا كنا نعيش لحظة تاريخية تتعدّى حدود العراق الى سائر أرجاء العالم، فصدام والخميني غيّرا وجه الشرق ومساره السياسيّ والثقافيّ والاجتماعيّ الى أبعد حدود التغيير.

ملمس الحرب

يمة بعرسي يغني المدفع طول الليل
يمة البارود من اشتمه ريحة هيل
من أغاني الحرب

مشـاهد الموت في الحرب بالنسـبة لصبيّ، ليسـت حدثا عابرا، رؤية الحزن في وجوه النـاس وأهـل القتلى تحفـر في الذاكرة أثـرا يصعب محـوه، بدأت تلك المشـاهد من رؤيتـي الأمهات وهن يصرخن أمام توابيت أبنائهن الذين قتلوا، والآباء وهم يتنقبون بـ«اليشـماغ» ليخفوا دموعهم خوف أن تتهشـم صورة رجولتهم، لكن شـيئا فشيئا حدث تغيّر على هذا الصعيد. فخجل الرجولة من الدمع كان أول أعراف المجتمع التي حطّمتها الحرب. كنت أشاهد غزارة دموع الأمهات، لكني لا أقوى اليوم على أن أحصي مرات مشاهدتي دموع أمي، أما أبي فلم يجتاحه التغيير وظلّ شحيح الدمع.

نزعـت الـحرب عنـــي ثوب الطفولـــة وأحلامها ونشـــوتها، وألبســـتني ثـــوب الرجولة ومخاوفها وأســئلتها، ليســت أحاديث الكبـار أو برامج التلفزيون أو نشــاط الحزب في المدرســة هي الوســائل التي علّمتني معنى الحرب، كانت هــذه كلّها لغوا لا معنى له، ولم ترســم مشهدا واحدا مما يرســمه مركز شرطة قريب من بيتنا، كان أقدر من أي صــورة تلفزيونيــة أو حديث، على تقديم معنى ملمــوس للحرب. في مركز شرطة «الكمالية» تُســلّم جثــث قتلى الحرب لأهاليهم، لم يكن هؤلاء مــن أهل حينا فقط، بل مــن مناطق أخرى كثيرة، تمتد الى حدود محافظة بعقوبة. يأتي أهالي القتلى، نســاء، ورجــالا، وأطفــالا، يرافقهــم جيرانهم أو أقاربهــم، يتقدمهم أحيانــا شرطي كان قد ذهب لإبلاغهم بان ولدهم «الشــهيد» يرقد جثة أمام باب الشرطة، يغطي تابوته علم العــراق، يأتي الأهل مبعثري الخطى ومغبرّي الوجــوه، كأنّهم خرجوا للتوّ من القبر. والدة القتيل عادة ما تكون آخر الواصلين، فخطاها لا تقوى على السير، تئن، تصرخ، تحفــر بأظافرهــا أخاديد على خدّها، يختلط دمها بدمعهــا، تركض فاتحة يديها على امتدادهما، كأنّها تتخيّل ولدها حيّا وتريد احتضانه، يجلس أهل القتيل حول التابوت، يرمون أجسادهم عليه وتحيط بهم الناس.

بسبب قرب منزلنا من مركز الشرطة كنت حاضرا دوما في قلب المشهد، وحين ينتهي، تظــلّ أصوات المكان تتردّد في داخلي، وتجبرني على البحث عن تفســير لما يجري، على محاولــة فهم هذه الأهوال، يتكرّر المشــهد وتتراكم أوراق الإجابــات الفارغة، لتصبح ثقيلــة على رأسي الصغير، لا أعرف كيف أحاصر مشــاعري وأمنعها من الانفجار، أو كيف أطارد الناس، أو اللغة، أو فكري الصبياني، لعلها تمنحني بعض الســكينة. لم يكن وعي أهلي أو درجة إحساسهم بخطورة ما اشاهد يدفعهم لمنعي من الذهاب، لم أسمع رفضا أو تأنيبا منهم، مشاهدتي للأهوال كانت بالنسبة لهم عاديّة جدّا.

الآباء يدفنون أبناءهم؟! كثيرا ما ســمعت اســتنكار الناس لهذه المفارقة المؤلمة، إنهم يعتبرونهــا من علامــات القيامة ونهاية الكــون، كانوا يردّدون بايقــاع حزين مقولة يزعمون أنها صادرة عن الائمة: «يأتي زمان يدفن الآباء أبناءهم».

الدين يحيط بما يمرون به، يهدئهم، يطمئنهم، لكنه يخيفهم حين يستنطقونه حول المصير المفجع الذي ينتظرهم، كان موت أبنائهم أكثر من قدر مكتوب، كان علامة من علامات قيام الساعة، إنه توعد الله لدماه، أو أبطال مسرحه المكلفين فقط بمهمة تحذير العالم من النهاية. إن دفن الآباء لأبنائهم يتعارض مع قانون الطبيعة لكنه ينسجم مع قوانين الحرب وشروط السياسة ورواية الدين.

يدفن الناس موتاهم من قتلى الحرب، ويقيمون مجلس عزاء وسط الشارع، يكتبون باللون الأبيض على قماشة سوداء توضع على جدران البيت آية {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ }(آل عمران169) الشهيد البطل فلان بن فلان، وبرغم أن أكثر القتلى هم من الشّيعة وهم يكتبون فعلا كلمة الشهيد في النعي المعلن، إلا إنهم لا يعترفون بصفة الشهادة لأبنائهم، فللشهادة في الموروث الشيعيّ معنى آخر، وشروط أكثر تعقيدا مما يقع في هذه الحرب، فهي مرتبطة بالإمام الحسين وأصحابه، لذلك يصعب أن يقال عن القتلى من المسلمين إنهم شهداء. فالحسين لدى الشّيعة هو الشهيد وكذلك من هم على دربه، وعلى الآخرين أن يبحثوا لهم عن صفة أخرى تقرّبهم من حياض الله .

كنت أقرأ كلمات النعي المدوّنة على الجدران وأترك لنفسي حريّة السؤال عن صدقها وحقيقتها، كيف يكون الموتى أحياء؟ كيف يرزقون؟ هل ماتوا في سبيل الله ؟ أعرف أنهم قتلوا دون رغبة منهم بالموت، وأنهم سيقوا الى المحارق بأمر الحكومة، فأين الله من لعبة السلطة والقوّة؟ وأين البطولة في من مات في الحرب مكرها، تاركا أطفاله لليتم والجوع والتشرّد؟ البطولة والشهادة كانتا أكثر الأشياء كرها في نفسي، لن أكون بطلا أو شهيدا، هكذا كنت اطمئن نفسي، فالأمر خدعة وسرقة لأغلى ما يملك الإنسان. وظلّ هذا الهاجس يعيش في داخلي حتى بعد أن انتهت الحرب مع ايران بسنوات طويلة، ورغم أن خدمتي العسكرية لا تزيد عن 18 شهرا إلا أن هاجس الخوف من العسكر ومن «البطولة» و«الشهادة» دفعني الى الهرب من الجيش حين استدعيت له العام 1994، وهو ما شكّل فاتورة باهظة ساضطر لتسديدها من الألم والصحة.

لــم تكن مشــاهد قتــلى الحرب مع إيران هــي أول ما حفر في ذاكرتــي، بل كان هناك مشهد سبقها بسنين، ففي ليلة من ليالي صيف العام 1974 أفزعنا صراخ يصدر عن بيت قريب منا، خرجنا لنشاهد سيارة عسكرية تحمل تابوتا يلفه العلم العراقي، فيه جثة لجندي شاب اسمه خالد قتل في «الشمال»، التسمية الشائعة بيننا لمناطق الكرد، كانت الحرب حينها تدور بين الجيش العراقي و«العصاة»، وهي التســمية الرســمية للمقاتلين الكرد (البيشــمركة)، الذين حملوا الســلاح بســبب ما تعرّضوا له من قمع وتنكيل من قبل السلطات المتعاقبة على حكم العراق.

«الشمال» و«العصاة» هما كل حصيلة الناس حول الكرد، أو ما تريد السلطة تكثيفه عن ذلك، مختزلة إياهم بصورة «لصوص» قابعين في أعلى الجبال تسهيلا لمطاردتهم وطمرهم.

ظلــت «نعــاوي» أم خالد وقريباته تــدوي في أذاني حتى اليوم، كــن يردّدن بصوت حزين ومفجوع ويلطمن على صدورهن بقوّة:

خالد يا بو عيون الخضر جابوه ملفوف بعلم .

يعــدن ترديدها مــرات ومرات، لم أعرف مــا الذي جرى لخالد؟ ولمــاذا انتهت حياته بهذه الطريقة المفجعة؟ فعمري لم يتجاوز الســت ســنوات لكنّي عرفت أن الحكومة قد تكون سببا في قتل الناس وهذا ما انطبع في ذهني ورسخته الأيام .

حين وقعت الحرب كان من السابق لأوانه أن تعرف الناس دوافعها وأسبابها ونتائجها القريبة والبعيدة على البلاد، كانت المشاعر مزيجا من الدهشة والخوف والحماس، وقد حشــدت الســلطة طاقاتها كافة لإقناع الناس بعدالة الحرب وجدواها، تعاملت معها وكأنّها الحلّ الوحيد لإنقاذ العراق من تبعات زلزال إيران، تقول الرواية الرســمية إن نوايــا «الفرس المجوس» لاحتلال العراق كانــت واضحة، وحقيقية، وهذه هي القصة الكبرى التي أشعلت الحرب، لم يكن تصديقها سهلا، على الأقل بالنسبة للأكثرية من الشــيعة، ومع انطلاق الصواريخ ومســير الدبابات لم يعد الحديث عن سبب اشتعال الحرب ذا معنى أو جدوى، وأصبح البحث عن طرق لتفادي نتائجها بالنسبة للسلطة

أو بالنسـبة للناس هو الشغل الشاغل، السلطة تريدها أو تتوقعها أو تتمناها خاطفة وناجحـة، والناس تبحث عن وسـيلة للابتعـاد عن نيرانها وحرائقهـا. ولم يكن أكثر الناس تشـاؤما يعتقد أن الحرب قد تسـتمر أبعد من أسـابيع أو ربما أشهرا قليلة في أسوأ الظروف، وحتى بالنسبة لصدام حسين ومساعديه، كان الاعتقاد أن ضربة قوّية وسريعة للجيش الإيراني كافية لحسـم الحرب لصالح العـراق، كانوا يعتقدون أنهم حين يكسبون أول ضربة في الحرب، ستعلن إيران استسلامها ورغبتها بإنهائها، فهي تعيش فوضى الثورة، وصراعات دموية على السلطة، وتفكّك في أوساط قواتها المسلحة والأمنيـة وفقا لذلـك كان مفترضا للحـرب أن تكون خاطفة. لكن ماذا لو اسـتمرت سـنوات طويلة؟ من يملك زمام البداية؛ هل سيمسـك بالضرورة زمام الخاتمة؟ مع مرور الأيام والأسابيع والشهور أمست نهاية الحرب أملا بعيد المنال.

كان عليـوي من أوائـل الضحايا الذين أعرفهم، كان جارا لنـا، وهو موظف حكومي وحزبيّ بدرجة متدنيّة، بعد أشهر قليلة على بدء الحرب، التحق بها عن طريق ما كان يسمى بقاطع الجيش الشعبي الذي ضمّ عددا من البعثيين، أغلبهم ذهب للحرب بملء إرادته، كان ذلك قبل أن يجبر حزب البعث فيما بعد أعضاءه وغيرهم على الالتحاق بها وبكل وسائل الإكراه والضغط، نعم، الشيء المؤكد أنه في الأشهر ألاولى للحرب لم تجبر الحكومـة، أعضاء البعث، أو موظفيهـا، أو بقية الناس على الالتحاق بقواطع الجيش الشعبي، كان الوضع على جبهات الحرب يشهد تفوقا للجيش العراقي، الذي دخل في عمـق الأراضي الايرانية، واحتل مدنا عديدة، ولم يكن هناك نقص في أعداده أو عدّته، قد يدفع الى سوق الناس بالقوّة الى الحرب كما جرى بعد ذلك.

التحق عليوي بسـاحة الحـرب، كانت معركة «ديزفول» تـدور يومها بضراوة داخل الأراضي الإيرانية، وحين وصلها هو ورفاقه لم تسـعفهم خبرتهم الضئيلة في الخلاص أو الهرب، فوجدوا أنفسـهم وسـط النيران تماما، وسـقطوا بين قتيل وأسـير، وكان مـن بـين الضحايا أحد أقربائي، ممن عرفنا بعد وقت قصـير أنه وقع في الأسر، لكني رغبـت بالـكلام عن عليوي لأن مصيره ظلّ مجهولا حتى الآن، قيل إنه أسـير، لكن لم

يصـل لأهله ما يؤكد ذلك، ربّمـا هو ميت، لكن لم تصل جثتـه لعائلته. اختفى تاركا وراءه أطفالا لا يتعدى عمر أكبرهم العشر سـنوات، وامرأة سـتعيش بقية عمرها بين الترمل، والزواج، وبين الفقر، والعيـش الكريم، وبين الانتظار واليأس، تلاشى عليوي مخلّفـا وراءه بيتـا من الطين وعائلة حائرة . مصير عليوي عني لنا أن الحرب كشرت عن أنيابها، إنها نارٌ، وليسـت نزهة، أو حماسـة، أو لعبة، لن يكون عليوي ضحيتها الوحيدة، بل سيغدو رقما بين آلاف الأرقام، وذكرى مفجعة بعيدة، ارتحل عليوي دون أن يبكيه أحد، لم يمت، ولم يأت، كان بين الحياة وبين الموت، بين الوجود والعدم، مثل آلاف الضحايا غيره.

وشيئا فشيئا بدأ حجم الخوف من الالتحاق بقواطع الجيش الشعبي يتّسع، وازدادت المعانـاة من نتائجه المـرّة. إحدى قريباتنـا كانت متزوجة من جارنـا، وكان أكثر ما يثير رعب هذا الجار هو أن تجبره منظمة الحزب على الالتحاق بالحرب في ما يسـمى بقاطع الجيش الشعبي، كان يعمل في تأسيس شبكات المياه والمجاري المنزلية، وحين تبـدأ المنظمة الحزبية بالقبض على الرجال لتزجّهـم في الحرب، كانت أعصاب جارنا (ابو كفاح) تزداد توترا، ويفقد سـيطرته على انفعالاته. في بعض الأحيان كان يهرب الى بيت شـقيقته التي تسـكن في محافظة أخرى، أو يبقى في عمله حتى وقت متأخر مـن اليوم، أو يفعل أي شيء يراه مجديا في ابتعاده عن عيون البعثيين، وفي ليلة زارنا فيهـا، دبّر له ابن عمي (يوسـف) وكان بارعا في مجال الراديـو، مزحة ثقيلة، فربط الراديـو بلاقط صوت وضعه في غرفـة مجاورة ووضع الراديو في الغرفة التي يجلس فيها «أبو كفاح»، وحين يتحدث (يوسـف) أمام لاقط الصوت كان صوته يبدو وكأنّه ينطلق من إذاعة، وبعد أن استقر أبو كفاح في جلسته، طلب منا شقيقي المتواطئ مع ابن عمّي، أن ننصت الى الإذاعة التي قال إنها سـتذيع أسـماء الأشخاص المدعوين الى قاطع الجيش الشـعبي وعناوين بيوتهم، تسـمّر «أبو كفاح»على فراشه، بدا مرتجفا، وتـكاد أنفاسـه تتوقـف، وبرغم أنه لم يسـبق للحكومة أن دعت النـاس عبر الإذاعة للالتحاق بالجيش الشعبي، إلا أن اللعبة انطلت عليه، وبدأ «يوسف» بقراءة الأسماء،

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، واســتمر في قراءة الأســماء وأطال فيهــا، وكانت كلّها من منطقــة الكمالية، ليزيــد من ترقب (أبو كفاح) وتوتره، ومع كل اســم تزداد نبضات قلب المسكين، وأخيرا نطق باسمه، محسن محمود غويلي، أطرق الرجل، ووضع وجهه بين يديه، وأخذ يردّد بصوت عال مناجيا نفسه:

ـــ يا بوية يا كفاح، يا بوية يا كفاح.

بكثير من العناء تماســك ليمنع دموعه من النزول، ثم انطلق لســانه في ســبّ حزب البعث، وصدام، والحرب الملعونة، وحين دخل ابن عمّي الغرفة لم نتمالك أنفســنا من الضحك بصوت عال، انفرجت أسارير (أبو كفاح)، بعد أن عرف اللعبة، لاعنا يوسف على مقلبه الخبيث.

اتخــذت الحرب طابعــا عصريا عند انطلاقها، فقد أمرت الحكومة الناس باســتخدام وســائل التعتيــم، ومنها صبغ أضواء الســيارات باللــون الأزرق، وتجنّب اســتخدام الإنــارة، أو الخروج الى الشــارع أثناء الغــارات الجوية، ومنحــت مبلغا من المال لأي عائلة ترغب ببناء ملجأ في منزلها، على أن يشيد بمواصفات خاصة، كان أشبه بسجن صغير، مبني من الاسمنت، ولا يحوي سوى شباك صغير قريب من السقف. وستعين ملاجئ الحرب الناس أيام الحصار الاقتصادي، إذ سيهدمونه ويبيعون ما تحويه من الحديد. كان ثراء السلطة يتيح لها القدرة على التخفيف من وطأة الحرب على الناس، وقيــل يومها إن خزينة الدولة تحوي 40 مليار دولار، وهو مبلغ هائل في أســعار تلك الحقبــة، ولا يكفي فقط لســدّ تكاليف الحرب بل لترجيح كفــة الانتصار فيها أيضا، لذلــك حظيت عوائل ضحايا الحرب خلال الســنتين الأوليتين بنــوع من الاهتمام من قبل السلطة، فكانت تمنحهم بيتا وسيارة حديثة، يابانية الصنع تسمى في السوق بـــ «كرونا 81»، لم تكن العوائل في بداية الأمر سعيدة بهذه الهدية، فهي في نظرها أشبه برشــوة أو مقايضة روح الشــخص بآلة، لذلك بدت خالية مــن الأخلاق وغير مقنعة، ربما كان رفض الســيارة تعبيرا عن رفض الحرب، لذلــك امتنعت الكثير من العوائل عن تســلّمها في أول الأمر، ولكن حين تفشّى الموت وازداد عدد الضحايا، تحوّل رفض

العوائل الى «صراع» بين أفرادها. عندها بدأ انحدار التماسك العائلي وشحّ التعاطف الإنساني، هكذا انتقل مسرح الحرب من الخارج الى الداخل، من ميادين القتال الى نفوس البشر.

ذات يوم دخل والدي وهو يلعن رجلا من أهل المنطقة. كان قد جالسه بعض الوقت في المقهى، قال والدي إن الرجل سأله :

ــــ شلون أسوّي معاملة السيارة؟

كانت جبهات الحرب ساعتها تشهد معركة ضارية، يشارك ابن هذا الرجل فيها، لم يكن قد قتل بعد، لكن سؤاله اللئيم كان يخفي في نظر والدي أمنية بان يقتل ولده في المعركة، لم يكن مباليا بمصيره، وكان الانشغال بالسيارة دون الابن مستهجنا من والدي وممن سمع الحكاية، لم يجبه والدي باي كلمة كما قال، واكتفى بالصمت لكنه تألّم من جاره، فكيف يمكن لأب أن يسأل هذا السؤال؟ ليس كل الذين تسلّموا سيارة «الشهيد» كانوا فرحين بها كثمن لدم أبنائهم، بل قبل البعض بها خوفا من أن تفسر السلطة رفضهم للتسلّم تفسيرا «سياسيا»، بمعنى أن يقال عنهم إنهم يرفضون الحرب، أو يعترضون عليها، وهذا وحده كاف لقبولها.

خلال الحرب قتل واختفى الكثير من الأقارب والاصدقاء والجيران، وكم تمنيت أن أكتب شيئا عن قصصهم وما جرى لأهاليهم وأحبتهم، الّا أنّي أجد نفسي عاجزا عن تذكّر ما جرى مع هؤلاء المساكين، وقد لا تكون الذاكرة هي وحدها السبب، بل يمكن أن يقف فقداني للاحساس لكثرة القصص، مانعا عن تدوين مشاهداتي لنهايات الذين أعرفهم، أعداد الضحايا الكبيرة لا ترهق الذاكرة فقط بل تضعف الإحساس بالتعاطف أيضا، مجازر الحرب تستحيل في النهاية أرقاما، وحين يصبح عمرها ثماني سنوات تعتبر كافية لتحويل قلب الانسان الى قالب جليد.

كنت اتخيّل لحظة نهاية الحرب، فأجد نفسي أعيش صدمة عاطفية مثل التي نشاهدها في الأفلام الرومانسية، سيغمى علي، أو ربما تتوقف لبعض الوقت حواسي. لم اتخيّل ما هو أثمن وأغلى من نهاية الحرب.

يوم الثامن من آب عام 1988، وقبل منتصف الليل كان التلفزيون يبث أغنية للمطرب اللبناني عصام رجي، حين توقف البث الاعتيادي وظهر المذيع مقداد مراد، ليقرأ بيانا للقيادة العامة للقوات المسلحة، سمّي ببيان البيانات أعلن نهاية الحرب، هل هناك عبارة في الكون أجمل وأعظم وأطيب من «نهاية الحرب»؟ فجأة أصبحت الأُمنية البعيدة في أحضان الناس. لم تكن لفرحتي حدود، شعرت أن أرجلي تتراقص وحدها، وأجهدت نفسي كي لا أرقص في الشارع، شعرت أن الحياة قد عادت الى الناس، الأحزان والمخاوف ستتوقف ولن تضاف لجيش الأرامل والأيتام أعداد أخرى.

خرجت من البيت لأشارك الأصدقاء والجيران لحظة طال انتظارها ثماني سنوات، استمر فرحنا لحدود الفجر، شاهدت نشوة ما حصل في وجوه الشباب، هم لن يكونوا ضحايا الحرب بعد اليوم، فقد قبرت الى الأبد ومضى سوادها بعيدا، ومن حقّهم أن يرقصوا بعد أن توقفت قوافل الذاهبين الى المحارق، جبهات الحرب التي زرعت بالألغام ستغمرها المياه، لتزرع بالنخيل والفواكه، هكذا عنت النهاية، بعد الحرب سنموت مثل كلّ البشر موتا طبيعيّا.

لكن المفاجأة أن لحظة نهاية الحرب لم تكن أقلّ قسوة من الحرب نفسها، هل يعقل ذلك؟ أحزان الخاتمة كانت أكثر كثافة وفظاظة من كل ما جرى خلال الحرب. فالوجوه الباسمة لم تسد وحدها مشهد الثامن من آب، بل كان هناك الذين فقدوا أحبتهم في الحرب، وقد غطّت عيونهم سحابة معتمة، وحين تذكّروا وجدوا في أحضانهم رماد الحرب، اضطررت لحبس مشاعر الفرح أمامهم احتراما لآلامهم. كانوا عقبة أمام نشوتي، وكلما ظهرت فرحتي بسلامة أشقائي وأقاربي وأصدقائي، كلما عادت الى الاختفاء وأنا أرى عيون القتلى وهي تحدّق بي، وتأخذني الى حيث لا أريد، الى صراع يعتمل في نفسي بين مشهدين متناقضين تماما، مشهد من بقي حيّا ونجا، ومشهد من قتل أو فقد دون أي أثر، ومع الوقت لم أعد أشعر بطعم الفرح الذي تذوقته قبل قليل، وكأنّ دهرا طويلا قد مضى عليه، لقد نسيته تماما، وحلّ بدله شيء آخر، هو لعنة الأسئلة وصوتها المدوّي في ذهني، اختلطت المشاعر على نحو مفاجئ، كنت أخاف أن

ألوّث فرح الناس الأبيض بشيء من سوادي، لماذا جرت كل هذه الأهوال؟ لماذا سحقت الملايين من الناس في إتون حرب لم نجد لها معنى، أو مغزى، أو مبرّرا؟ هل سنمحو كل ما مرّ بنا ونعود الى أنفسنا ونحن طاهرين من رجس ما حصل؟. لماذا انتظرنا ثماني سنوات لتنتهي حربٌ كان يمكن أن تتوقف بعد أشهر قليلة؟ سيقول آلاف اليتامى إن آباءهم قتلوا في الحرب لكنهم لن يستطيعوا أبدا أن يعرفوا حقا لماذا قتلوا؟ ولأي هدف سفكت دماؤهم؟

لم اكن أعتقد أن انتظاري المرير والطويل لنهاية الحرب سيكون بهذا الطعم الحاد والمتناقض، وأن مذاق السلام الذي قارب المحال سيكون ممزوج الطعم، حلوا و مرّا، مفرحا ومحزنا، كلّ الأسئلة المؤجلة حول الحرب سيحلّ استحقاقها في الساعات الأخيرة، الأسئلة التي ألقيناها في الزوايا المهملة، خرجت لدى البعض مثل الوحش وهي تبحث عن إجابات مريحة لن تأتي. في حين اكتفى آخرون ببهجة نهاية الحرب غير مصدقين ولا معنيين. لكن هل انتهت الحرب فعلا؟

عبيد

الصبية طيّعون، باستطاعة مجتمعهم — قادتهم وآبائهم ـ أن يشكلوا درجة اعتناقهم الرأي القائل إن الرجل صلب فقط، جندي فقط .

تيودور نادلسون
«مدربون على القتل»

جاري وصديقي، يكبرني بثلاث سنوات، رقته وعذوبة روحه وسلامه الأبدي مع الإنسان والحيوان تشدّني له وتجعل التقرّب منه فرصة للفرح والأمان، ولأن الطبيعة ترمي أحيانا ألوانا من الألم، كان والده هو الوحيد الذي لم يستطعم روح ولده العذبة، حتى لكأنّه أخذ من قلوب الناس كل الاحتقار وصبّه على ولده، فكان أكبر معذبيه.

ولكي تقسو الطبيعة أكثر جعلت عبيد وحيد والديه. يمتلك والده مقهى لا يحوي سوى بضع «قنفات»، تعبر قلتها عن تردّد الناس في تقبل طريقته الفجّة في تقديم

خدمته، كان يرى نفســه عزيز قوم أنزلته النوائب منزلة صاحب مقهى، وكان يحمل النــاس مســؤولية تدهور أوضاعه التــي لا نعرف كيف كانت. روحــه أكثر حموضة من «حامضه»، وعصبيته أشـدّ سوادا من شايه. نظرته الدّونية لمهنته احتقار للناس بمعنى من المعاني، وقد انعكس كره الناس له على رزقه. يبدأ صباحه مكفهر الوجه، وينهيــه ســاخطا على مآلــه. كنا نقف على بعد أمتــار من المقهى، نــردّد بصوت عال وملحــون «أبو عبيد بطنة قبض، دينار عــاصي بـــــطيـــزة». نهوى إثارة أعصابه وحين يصرخ علينا ســاباً أجدادنا الى ســابع ظهر، كانت نشوتنا تكبر وتعلو. عبيد لا يزعل من سخريتنا بأبيه بل ربما شجّعنا عليها، بسبب معاناته منه.

زعــل عبيــد مثل رضاه، سريع و دافئ. كنا نحســده على مهارتــه في لعب كرة القدم، وكان لا يــرى الوجود الا «طوبة» لا تكف عن الدوران، القمع الطويل الذي تعرّض له من أبيه لم يخلق منه متمردا أو مجرما. كانت براءة روحه ورقته هي التي حالت دون ذلك، بشرته الســمراء وشعره المنساب على كتفيه هما أجمل أجزاء لوحة رسمها أمهر الفنانــين، لا يترك فرصة تمر دون أن يذكر نادي ليفربول الإنكليزي، كان مســحورا به، وكان شغفه بليفربول فرصة للعيش في عالم أجمل من عالمه، كان يحفظ مباريات الدوري الإنكليزي بكل تفاصيلها، يشــتري كلّ أســبوع مجلة رياضية، وحين ينتهي منهــا يقطع صور اللاعبين ويلصقها على جــدران بيته أو في دفتر خاص، يقرأ أخبار المجلة بصوت عال وبشغف حتى كأنّه مشجع إنكليزي مهووس.

لم يكن يحبّ أي ناد عراقيّ، وتلك كانت بالنسبة لي أكثر الأشياء غرابة في شخصيته، اليوم أسأل نفسي كيف استطاع أن ينأى عن القريب ويعيش سعيدا عند الغريب؟

لــم يكن يســمّيني باســمي، بل يطلــق علي «جيمي كيــس»، وهو أحــد لاعبي فريقه الإنكليزي بسبب تشابه لفظ اسمي باللغة الإنكليزية مع اسم لاعبه المفضل، كنا نسميه «السندباد» ليس لأنه يهوى الترحال والمغامرة، فهو لم يخرج من بغداد منذ أن خرج من رحم أمه، إلا في رحلته الى الخلود. يشــبه عبيد صورة «السندباد» في فلم الكارتون الشهير يومها، كان يخاف المغامرة، أيا كان شكلها، وبسبب خجله كان يسبح بعرقه

حين يتحدث مع امرأة، ليســت فقط ســمرة وجهه وقصر قامته هما من ألبســاه ثوب الخجــل، بل كانت طفولة روحه التي ظلّ حبيســها تعيق دخولــه دنيا المراهقة التي بلغهــا مع بدء الحــرب، كانت الحرب بالنســبة له فرصة للنجــاة والحياة معا، كيف يمكــن للنار والحديد المحترق أن يفتحا أبواب الأمل والحياة ؟ لماذا اســتعاض بنيران الحرب عن نار الهوى والحبّ؟

آذنت طبول الحرب بنهاية يوميات تعذيب والده له، فمعها سيملأ جيبه براتب الجيش ويحــرم والده من فرحة المنّة وتصنّع الجميل معه، ويقوّيه على الوقوف بوجهه، وهو يلبس الخاكي ســيقول إنه أصبــح رجلا لا يملك والده حــقّ أو حريّة إهانته، الحرب عنت له الرجولة والتحرّر من ســلطة الأب لكنه لم يكن ليصدق أنها ستحرق طفولته وتســحق أحلامه، هرب الى الحرب تاركا والده يملأ إبريق شــايه بالغضب الذي كان يصبّه على جســد ولده الوحيد، حمل الســندباد جرار زيت كهرمانة وصبّه على والده ماضيا نحو الحرب.

كــبر عبيد مع الحرب، وقبــل أن يبلغ الثامنة عشرة من عمره ترك الدراســة واحترف الجيش، يومها أغرت الســلطة الشباب بالتطوّع للقتال عبر منحهم سيارة بالتقسيط وقطعة أرض مجانا، مضت أربع سنوات على الحرب، لكن الناس تقول إنها قد بدأت للتوّ، فالمعارك تطحن الشباب وتزداد ضراوتها كلّ يوم، نجح أصدقاؤه في إقناعه بأن الأمل بحياة طبيعيّة قد انتهى، كنت شاهدا على حديثهم وهم يبرّرون تركهم للدراسة والتوجّــه الى الجيــش، كانوا مقتنعــين بفعلتهم، وكنت أســأل نفسي: لمــاذا يمضون بأرجلهــم نحو المحرقة؟ كيف لا يخيفهم الموت؟ كيف يقامر الإنســان بحياته ؟ طالما حســدتهم على جرأتهم الشديدة لكني لم أخفِ خوفي عليهم، فالحرب ليست لعبة، ولا أعرف كيف أنها بدت لهم كذلك .

علاقــة عبيد بأصدقائــه الذين أقنعوه بالتطــوّع في الجيش كانت مــن طبيعة نادرة، كانوا شــلّة من المشاكســين، لا يمرّ يوم دون أن يخوضوا معركة شرســة، يفتعلونها بســهولة مع مجاميع أخرى من الشبان الوقحين في المنطقة، لم يكن عبيد شريكا لهم

في أفعالهـم العدوانية، فهو يهرب دائما من سـاحات معاركهم، يختفي بسرعة البرق مع أول بادرة لمعركة، كان يبتسم وهو يطلق ساقيه للريح، ثم يقف أمام بيته منتظرا النتائـج. لم يعاتبه أحدٌ على فعلته «الشـنيعة»، فهم يعرفـون أن «جبنه» هو حصيلة طبيعــة مسـالمة. وكان في كلّ درجة من درجات كرهــه للعنف يرتقي درجة في عبادة السـلام، كان يلقي على أصدقائه سـحرا لا يقاوم، لم يدع البطولة والشـجاعة، وحين تنتهــي المعركـة يتحوّل عبيد الى نكتة، كل منهم يروي ما شــهد مــن هروبه السريع، يســخرون منه لكنه لم يكن معنيا بما يقولون، فقد خلق كي يهرب من القســوة، ولم يطلب منه أن يكون غير ما هو عليه، لكنهم ارتكبوا معه أكبر الخطايا حين نجحوا في حملــه على التطوّع في الجيش، لم يقدروا حجم ما فعلوا به، إنهم رموا ومن دون رأفة قلب طائر السلام المستقر بالحجارة فسقط صريعا وسريعا .

أكمــل عبيــد دورة تدريبيّــة ببغــداد، والتحــق بجبهة الحــرب، كان مزهوّا بلباســه العسكري، ومسدسه، مضى عام على دخوله الحرب، ومع كلّ إجازة يمضيها بين أهله واصدقائــه، يغطي الحزن ضحكته الســاحرة، عرف أن فعلته كانــت نزوة لم ينجح في تقديــر نتائجها، كان يلــوذ بالصمت أحيانا أو يندب حظّــه العاثر وحماقة فعلته، الصمت والسكون جعلاه أشبه بالمجنون .

كنت عائدا من المدرســة، حين اقتربت من منزل عبيد لأســمع صراخ الناس وبكاءهم، وهــم يقفون أمــام البيت وداخله، البعــض كان يجلس عــلى الأرض، آخرون وضعوا رؤوســهم على حائط المنــزل تاركين لدموعهم النزول بغزارة، دخلت وســطهم ممنيّا نفــسي أن يكــون الميت أي إنســان غير عبيد، ليكن أبــاه أو أمه، لكن البــكاء المرّ كان يعكس فجيعة أكبر من موت عجائز، عرفت أن حياة عبيد قد انتهت، وأنه ودع أحزانه وأصدقاءه وكرة القدم الى الأبد.

بعثر عبيد رأســه التي لم تقو على تحمل أثقال هذا العالم، لم يقتل عبيد جســد قائده وظلمه بل قَتَل والده معه، وبرصاصته التي ادّخرها لنفسه قتل الحرب وقَتَل كلّ من أسهم بصياغة مصير لا يشبه طبيعته.

لقد صحّح عبيد خطأه، ارتحل، تاركا أمه العجوز تجلس أمام باب البيت سنين طوالا وهي تلفّ رأسها «بفوطتها» السوداء الكالحة، تبحث عنه بيننا، ترمقه بين المارين، والضاحكين، والمهاجرين، والمنبوذين، وحين ترانا تنهمر دموعها، عيونها الصغيرة استقرت عند لحظة الحيرة مما فعل بها وحيدها، حزن ممتزج بالحيرة والعتب، فاي طعم هذا الذي يعلق بفمها؟

لم تكلمنا يوما، نحن بقايا ولدها الوحيد وذكراه التي لم تغب، فكيف يمكن لها أن تملك شجاعة تذكر عبيد والحديث عنه وهو الذي قتل نفسه دون أن يلتفت لها؟ وبعد مقتله أغلق أبو عبيد المقهى ولاذ بالصمت ما بقي له من العمر، كان جرحه بالغ الألم، تحتبس عيونه بالدمع طوال اليوم، تمضي الى آخر المدى حزينة، ساخطة، كأنّه يعيد شريط حياته وعلاقته مع وحيدة، ويحبس صرخة تفتّت ما بقي له من قوّة، ادّخر عبيد شجاعته الى آخر لحظات حياته ولكن ليس في مواجهة الحياة بل لإنهائها، كيف استدرج الى الموت ؟

وسط الناس المحيطين بالبيت روى الجندي الذي أوصل الجثة الى مركز الشرطة، ومنه الى منزل عبيد، وهو زميله في وحدته العسكرية، قصة انتحاره. قال إن وحدته انتقلت من جبهات الحرب في الشمال الى الجبهة المقابلة لمحافظة العمارة في الجنوب، أرهق الطريق الطويل الجنود، وحين وصلوا الى مكانهم الذي سيستقرون فيه نزل عبيد واتجه الى سيارة المياه المخصصة للضباط ليغسل وجهه. شاهده ضابط كان سيّئ الخلق وقاسيا مع عبيد الى حدّ كبير، وكثيرا ما أسمعه كلمات نابية على مرأى من الجميع.

صرخ الضابط وسبّ عبيد سبّا مقذعا لأنه استخدم الماء المخصّص للضباط، فتركه عبيد واتّجه الى السيارة التي فيها سلاحه، استله وتقدّم نحو الضابط ببرود، لم يستمع لتوسلات أصدقائه الذين شعروا بنيته الخطيرة، اقترب منه وأطلق عليه رشقة رصاص أردته قتيلا على الفور، ثم أدار فوّهة البندقية صوب رأسه وأطلق رصاصة بعثرت دماغه. كيف وصل ذلك المخلوق المسالم والرقيق الى هذه الدرجة الكاملة من

العنـف؟ كيف تحوّل الحمل الى ذئب؟ ومن منهما قتل الآخر؟ وأي طريق ســار عليه عبيد وأوصله الى هذه النهاية؟

كان تنور الحرب كريما ومغريا لأبناء اليأس، كان يلوّح بالحياة وهو يدفعهم الى الموت، فقد لجأت الحكومة الى التغرير بالشباب عبر بيعهم سيارة وقطعة أرض بالتقسيط. تعـرف الحكومة أن ضحايا حربها الذين ســيركضون خلـف «مغرياتها»هم الفقراء فقــط، وبالنظــر الى أن الأمل بنهاية سريعة للحــرب كان يتضاءل يوما بعد يوم حتى لتبدو النهاية وكأنّها المحال بعينه، فقد تعاطى الشباب مع قضية التطوع في الجيش بنوع من الاندفاع وعدم التردّد، وكثيرا ما ســمعت مــن المتطوعين قولهم «ليش أخدم عشر ســنين براتب جندي مكلف؟»، اطوّع وأفضها، سيارة، وقطعة أرض، وحرب لا تنتهي، الحياة مع الموت أكرم من الموت دون شيء من منافع الحياة.

في يــوم من أيام الحصار المريع الذي جــاع فيه الناس وانهدم ركن من أركان الخوف من السلطة، كنت شاهدا على لحظة أزعم أن تكرارها مستحيل، جرى خلالها حوار لا يتعدّى بضع كلمات، كان سؤالا وجوابا فقط، ورغم قصر الحوار إلا أنه لم يكن عاديّا، أو عابرا. سأل ضابط متقاعد كنت أقف بجانبه مطربا مشهورا غنّى ولحّن وكتب كلمات أغانٍ لصدام وللحرب، وبين الاثنين علاقة تسمح بتجاوز الخوف والحذر، سأل الضابط صديقه المطرب مستنكرا غناءه لصدام:

ـــ شــگد غنيت إلة ؟ وشوف تاليهة، كتلنه الجوع.

ــــــ ردّ عليه المطرب: غنينا له من أجل ســيارة وأنتم قدمتــم أرواحكم له من أجلها، نغني ونركبها وتقتلون ولا تركبونها.

كان البطــلان، الضابــط والمطرب، يملآن شاشــة الحرب بحضورهمــا الطاغي، وكنا نعيش الحرب في مشهدين، الأول هو مشهد الغناء التعبوي والتمجيدي، والثاني مشهد القوات المسلحة، فرق الغناء وفرق العسكر، روح الحرب وجسم الحرب، والنتائج هي بضائع الحرب التي لا تخرج من معامل صناعة ولا من حقول زراعة وانما تخرج من أفدح حماقات البشر.

الداخل والخارج

إن من الخير تعريض الشعب لمحن تجعله يطرح عن نفسه كسل القرون القديمة العقلي، وعلينا أن نبقي على انضباطه، وأن نجعل أفراده يرتدون البزّة العسكرية ليل نهار، آه، لو كان بامكاننا أن نضربهم، ونضربهم، ونضربهم.

موسوليني

نحن الاشتراكيين لا علاقة لنا بالحرية، يجب أن تكون رسالتنا مثل موسوليني، الانضباط.

برناردشو

كلّما أقدمت دولة على ضبط مواطنيها بالترهيب، تزهر تلك النبتة المقيتة : نبتة الوشاية الطوعية.

ستيفان زفايج

حرب الخارج معروفة الجبهة والأبطال والضحايا، أما الحرب التي تشتعل داخل البلد فمجهولة الخرائط والأبطـال والضحايا، هي حرب تدور بين أحزاب ولدت وعملت في الظلام، وبين سلطة الحزب الواحد. في حرب الداخل لا يعرف عدد القتلى ولا كيف ولماذا قتلوا ؟ كان بينهم البريء، وبينهم من قتل وهو سعيد ومفتخر بنهايته، كبار سنّ، أطفال، ونساء قطعت أجسادهن ولم يعرف لهن أثَر، كلّ هؤلاء كانوا ضحايا حرب الداخل التي جرت وقائعها بسريّة، في حين كان العالم كلّه يشاهد ما يجري على الحدود مع إيران .

مثل كلّ الأنظمة الشمولية استخدم صدام حسين أبشع طرق التعامل مع الخصوم، تعذيب وحشي، استهانة لا حدود لها بالأرواح والممتلكات، سجون لا يعرف لها عدد أو طرق، محاكم صورية، أحكام بالموت، وسائل خسيسة في التجسّس والمراقبة، وهذه هي الأكثر إثارة للخوف في نفوس الناس، وهي أيضا أولى خطى النهايات المؤلمة والمصائر الدموية لضحاياها، كان شعار أجهزة الأمن: «تحدّث ونحن نتحقّق». فاذا كان من حقّ أي شخص أن يتّهم أيا كان، بأي تهمة يشاء، فإن من واجب أجهزة الأمن أن تبحث بعد ذلك عن «الحقيقة» و«الصدق».

أراد صدام حسين أن يجعل من الوشاية واجبا على الناس، كان هدفه النهائي وشعاره هو «من واجب الناس أن تشي بمن يتكلم أمامها بسوء عن السلطة ومن حقّها هي أن تبحث عن الحقيقة»، والمسافة بعيدة بين الحقّ والواجب، ولم ينج من عذاب السلطة من لم يوصل لها ما شاهد أو سمع. لقد هزّت هذه الأساليب أركان الثقة بين الناس، وبينهم وبين السلطة. وبسبب الخوف من بطش السلطة أو الحرص على إبعاد شرّها، وشت الزوجة بزوجها، والأخ بأخيه، والصديق بصديقه، والأب بابنه. كانت أساليب السيطرة على المجتمع مزيجا من القسوة، والمكر، والاستهتار، فمزقت دون هوادة أركان الحياة الاجتماعية والعائلية وخلخلت أسباب استقرارهما، ولكي تبدو الحياة في العراق بالصورة التي أرادها صدام حسين سأنقل نصّ ما قاله هو نفسه في كلمته أمام أول مجلس وطني «منتخب» في عهده ونشرتها جريدة الجمهورية في عددها

الصادر يوم 24 تشرين الثاني عام 1981، قال صدام:

«أمس زوجة بعمر حوالي خمسين سنة قابلتني مع المواطنين، زوجة أحد المواطنين وعندها أبناء وعندها زوج جاءت تقول لي سيدي، (زوجها) لا يحبكم واسمه فلان بن فلان. عندما نريد أن نسمع الأخبار أو نريد أن نرى فعاليات القيادة يغلق التلفزيون ويضرب ولدها ويضرب بناتها... هكذا طراز من الشعب عندنا الآن.. وأُم تأتي تبلغ عن ابنها المتأخر في العودة الى الجيش ليست أم واحدة.. أمهات وآباء.. أليس هذا طراز نادر؟ يأتي المواطنون والمواطنات يبلغون عن حالات.. الحالة المبلغ عنها ..بالقانون الشخص المبلغ عنه بالاعدام.. ويأتون ويبلغون هذه حالات نادرة... هذه حالة على الأقل منذ ٨٠٠ سنة لم تحصل في العراق»[2].

الطراز النادر الذي تحدّث عنه صدام هو في الحقيقة من كان يبحث عنه، يبحث عن مجتمع نادر، مفكّك، مصاب برهاب السلطة، مرتعد من المستقبل، ومن نفسه، ومن الحرية، الطراز النادر من الناس هو الذي فقد التمييز بين الخير والشرّ وسلّم عقله وضميره للحاكم. الطراز النادر الذي تنتمي اليه أُم توصل ولدها لحبل المشنقة، طراز الشرّ الخالص، الفالت من أي عقال.

روى رجل مقعد لصدام حسين في لقاء بثّه التلفزيون، كيف قتل ابنه بسبب هروبه من جبهات الحرب. في ذلك الأب تكثّفت روح السلطة، فهو لم يخبر السلطة بـ «جريمة» ولده بل فعل ما ستفعله، قتله! ربّما نظر المجتمع لجريمة الأب باعتبارها نوعا من الدفاع عن النفس أمام سلطة تأخذ البريء بجريرة المتهم، فهي لا تتردّد في أن تعاقب العائلة على فعل ولدها. وخرجت الصحف في اليوم الثاني لتنقل ما قاله صدام حسين للأب القاتل، وهو يقلّده وسام الرافدين، وهو أعلى وسام تمنحه الحكومة، ويأمر بعلاجه خارج العراق وعلى نفقة الدولة، قال عنه:

«إن هذا الرجل الذي منح وسام الرافدين، بقرار من القيادة، هو نموذج من العراقيين

---

٢ . جريدة الجمهورية العدد الصادر في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٨١ نقلا عن موقع: - http://saddamscrelty.blogspot.com/2010/10/blog-post.html

الـذي وصـل الى الحدّ الذي لا يقبل على عائلته وعلى نفسـه، أن يهـرب أحد أبنائه من الجنديـة ولا يلتحق بصفوف القتال مع الرجال الذيـن يدافعون عن العراق، وعندما يعصي أمره يطلق عليه الرصاص ويقتله»[3].

الدقائق التي جمعت بين «الأب القائد» والأب القاتل كانت بين فصول الذروة في رواية «جمهوريـة الخوف»، ومعه تلاشى أمل المجتمع وقدرته على اسـتعادة شيء من قوته، وتوازنه أمام طغيان السـلطة، كان المشهد إعلانا نهائيا بوصول قبضة صدام حسين الحديدية وسـيطرته الكاملـة على المجتمع الى حدّ الاكتمال، لقـد بتنا نتنفس الأبخرة الفاسـدة التي تتصاعد من مسـتنقع الجريمة، لذلك لم يعد ممكنا الانشغال بمصائر الآخرين بل بمصيرنا كأفراد. لم يعد ممكنا تفادي الشرّ، فالعدوى الناجمة عن لمسـه تحتـاج الى طقـوس تطهير لا نملك مـن يدلّنا عليهـا، كنا مقيدي الأيـدي، والعقول، والأرواح، كنـا جمهـور محكمة تفتقـد لقواعد العدالة والإنصـاف، ينتظر كلّ منا أن تفرغ ساحة الجلد لندخل لها تباعا.

ولأن الناس تخاف تصديق جريمة قتل الأب لابنه، بسـبب حبّ الأب للسلطة أو خوفه منها، فقد انتشرت عقب بث اللقاء روايات تقول إن الأب «اضطر» الى فعلته الشـنيعة بسـبب الاهانات التي يوجهها له ولده، معتبرين سـوء خلق الابن سببا كافيا بنظرهم ليقتله أبوه. إنهم يبحثون عن أسباب تحمي ما تعرّضت له العلاقة الأسرية من تهديد وانتكاسـة بسبب جريمة الأب، كانت الرواية «الشعبية» مصدًا نفسيًا أو حيلة دفاعية ابتكرتها الناس، لتسـتبعد نذير قيام الساعة، الذي بات واقعا معاشا عقب الجريمة. خـوف الناس من مواجهة الحقيقة، جعلهم يختلقون أسـبابا أوجه للقتل وفاتهم أن دافـع القتل أيا كان فهو غير مهم، بل المهم، هو عرض الجريمة عبر شاشـات التلفاز بالروايـة التي صاغتها الحكومـة وبطقس احتفالي مهيب، يمنـح خلاله القاتل أعلى وسام في الدولة، والأكثر أهمية هو أن يكون اللقاء مع صدام وليس سواه، فهو يعني

---

٢ . جريدة العراق العدد ٣٠٢٧ في ١٢ كانون الثاني ١٩٨٦ نقلا عن: http://saddamscruelty.blogspot.com/٢٠١٠/١٠/blog-post.html

أن راعــي انتهــاك معاني الود والرحمــة والأبوة كان رأس الســلطة. كانت قصة ذلك الشيخ المقعد مشهدا مروّعا بكل معنى الكلمة، ففيه تجمعت كل مآرب السلطة، مثلما انتهكت فيه مقدسات الإنســان وحرماته، كان هابيل العراق هذه المرّة أبا أزهق روح ولــده، معلنا ولادة مجتمع جديد، ليس له وشــائج مع ما ســبقه، لــم يعد خائفا من مؤسســات الســلطة وأجهزتها فقط بل من نفســه أيضا بعد أن أصبح أداة بيدها. لا أدري كم من الجنود أو المختلفين مع السلطة أو المعارضين لها خاف أن يقتله أبوه أو أخوه أو ربما أمه عقب ذلك اليوم؟ ولا أدري كم من الناس أعاد ترتيب قائمة « مثيري الخوف» لتضم الأهل أيضا ؟!

قبــل أن تبدأ الحرب بأســابيع قليلة، شــاهدت كيف «تجتّث» الســلطة أناســا ولدوا، وعاشــوا، وكبروا في العــراق، كانوا «مثلنــا»، يتحدثون، ويفكــرون بلغتنا. وجوههم، أســماؤهم، أحلامهم، لياليهم الفقيرة، كانت تشــبه ما نحن عليه، يعيشون بيننا دون أن نعرف أن هناك ما يميزهم عنّا بمزيّة كانت في عرف الســلطة جريمة ســيعاقبون عليها بالنفي بعيدا عن أرضهم التي عاشوا فيها.

في الصباح حملت السيارة «البيك آب» عائلة عبد الله النداف، لترميهم على الحدود مع إيران، كانت الجريمة التي نفوا بسببها هي إنهم من أصول إيرانية، جلست العائلة في حوض الســيارة، لم يسمح لهم بحمل شيء، ملابســهم التي تكسو أجسادهم الهزيلة حقّا،هي فقط ما حملوه من متاع بلدهم الى المنفى. كانوا منكسرين، مشدوهين، تدور عيونهــم حول الناس المحيطين بهم، تتوسّــل العطف أو ربّما تتســاءل عن حقيقة ما يجري لها، المشهد بدا وكأنّه ينبعث من القرون القديمة حيث يفعل السلطان ما يحلو له، يصلب، يصادر، يمحو ذنوب ويكتب أخرى، يطرد من مملكته من يشــاء وقت ما يشــاء، عوملــوا مثل مجرمين عتاة، يكســو وجوههم ذلّ المشــهد، انتهت حياتهم على هذه الأرض، لا أدري كيف ســيبدؤون حياة أخرى من دوننا؟ كيف ســيتحدثون مع الأغراب؟ هل سيرمون فعلا كلّ تفاصيل حياتهم وراءهم؟ هل خسروا كلّ شيء فعلا؟ ما الذي ينتظرهم في بلد آخر لا يعرفون شيئا عنه؟

وأنا أشــاهد عبد الله في حوض السيارة، مرّت بي اللحظات التي جمعتنا في بيتنا قبل أيام، مدّ الوســائد، والأغطية في باحة البيت وجلس أمامها حاملا قوســا يشدّه شريط مطاط وعصا، وبدأ يضرب القطن ليتطاير منه الغبار والعث، كان مبتسما، ويتحدّث معنا برفق، أخذت منه القوس وقلّدت حركاته، كان لا يقلّ عني سعادة بحملي لأدواته، مــرّت من أمامــي ذرات غبار القطن وهــي تتطاير في الهواء، حين شــاهدت عبد الله يجلــس بين عياله بانتظار الرحيل الأخير، شــاهدت أحلامه تتطاير مثل غبار القطن، مشــاعر عديدة كانت تتقافز في عيونه، الدهشــة، الألم، التوسل الممتزج بالحزن، لكنه أيقن أن الســتار الأخير قد أســدل عــلى حياته وها هي قد انتهت بلمح البصر، يشــبه مشهد السيارة وهي تسير بهم، ما يجري مع سيارات دفن الموتى، الناس تقف باكية مودعة، مضوا الى حيث تريد السلطة، الى المنفى القسري، الى الموت.

وبرغم السنين التي مرّت على رحيله ظلّت ذاكرتي تحفظ وجه عبد الله الصغير وأنفه المدبّب، رحل النداف تاركا أرواح من عرفوه حبيســة ســجنها. ماذا قال صدام في تلك الأيام عن أولئك الذين نقلوا على حين غرّة من الوجود الى العدم؟ هذا ما قاله:

«اجتثوا من أرض العراق لكي لا يدنســوا تربة العراق، ولا يدنســوا هواء العراق، ولا يدنسوا الدم العراقي عندما تمتزج دماؤهم بدماء العراقيين بالتزاوج، وهكذا اجتثتهم الثــورة من الجذور لكــي تنهيهم، وتبقي العراقي الصافي، الأبــي، الوطني، الشريف، الذي لا يقبل الذلّ، مرفوع الجبين يبقى دائما وأبدا»[4].

في حــرب الداخل كانت الحيــاة اليومية تنتظم على وقع ســؤال لا يتوقف، وهو: كيف يمكــن لي أن أبعــد عــن نفسي كل ما يمكــن أن يغيظ الســلطة أو يزعجها؟ ووســط الشكوك التي تحيط بهم بدا كلّ حديث عفوي أو صريح تهوّرا لا تحمد عواقبه، فكنا نتدرب على ضبط لســاننا حتى ونحن وســط بيوتنا وغرفنا، وحين نتكلم بســوء عن الســلطة لا بدّ من أن يردعنا أحد «الزم لســانك». لقد خلق كلّ واحد منا رقيبا داخل

---

٤ . جريدة الثورة العدد ١٦ / ٢/ ١٩٨١ نقلا عن موقع . http://saddamscruelty.blogspot.com/٢٠١٠/١٠/blog-post.html

نفسه، كان هذا الرقيب هو «الفلتر» الذي يمنع أي شوائب يمكن أن تكدّر مياه السلام مع السـلطة، فقد تفشـل كل أنواع الرقابة الخارجية، لكن الرقيب الداخلي لا يغمض أبدا، ولا يخطئ، ومع تزايد الشكّ يقلّ الشعور بالأمن ويزداد التهديد وتنتشر النظرة العدمية الى المصير.

صناعة المهانة

لأن الطغاة
يريدون ألا تتم الحياة مداها
وألا يحسّ العبيد
بأن الرغيف الذي يأكلون
أمرّ من العلقم
وأن الشراب الذي يشربون
أجاج بطعم الدم
وأن الحياة ، الحياة انعتاق
وأن ينكروا ما تراه العيون:
فلا بيدر في سهول العراق
ولا صبية في الضحى يلعبون
السياب

إن حزنـــي يكبر كلّما تأملت صنوف القمع الذي عشـــناه، كانت فدية باهظة تلك التي دفعتهـــا الناس من أجل تهدئة مخاوف الحاكـم أو المضي وراء مطامحه ونزواته، كنا نريد إرضاء شراهته للخطايا، نريد النجاة من قبضته بأي ثمن، كانت لذّة استسلامنا له تغرينا، وتسـلبنا الكثير من إنسـانيتنا، لم نعرف أن طاغيتنا صنع لنا عالما يخاف الحرية ومع مضي الوقت يتحوّل الخوف منها الى كراهية لها، ليست الحريّة وحدها ما خسرنا بل خسرنا قبلها مواردنا، وثقتنا بأنفسنا وببعضنا بعضاً، لقد حوّلنا الطاغية الى جنود مطيعين، وخلق مجتمعا فقد البوصلة وخسر جزءا كبيرا من قيمه الإنسانية.
وفي أرض الخـوف هـذه تنوّعت المصائـر والنهايات، فاختار البعض الانسـياق وراء السـلطة برغبة، أو بخـوف، واختارت الأكثرية الصمت، وهـرب آخرون بجلدهم من البلد، أما من فشـل في مقاومة إغراء مواجهة النظام فذهب الى مصيره المعروف، وهو القتـل وإخفاء الجثة ومراقبة العائلة ومحاسـبتها، كنا جميعنـا ندور حول الحاكم، نحبّه، نبغضه، نقاومه، نحاربه، نهرب منه، ونتشبه به، الحاكم هو الإله، ومعه تدور الحياة.
كانت الأجهزة المخصصة لحماية النظام ومراقبة الأنشـطة التي تتعارض مع سياسة السلطة متعددة وهي: مديرية الأمن العام وفروعها، منظمات حزب البعث المنتشرة في كل المدن والقصبات، جهاز المخابرات، الاستخبارات العسكرية، جهاز الأمن الخاص، الحـرس الخاص، وزارة الداخلية، فدائيو صدام، ويضـاف لهذه الخطوط الدفاعية، جيش سرّي، وهو جيش «الوكلاء». وهم الوشاة الذين ينقلون الى السلطات الأمنية ما يعتقدون أنه مضرّ بالسـلطة ومهدّد لها، من أقوال الناس أو نواياهم، وجيش الوشاة هذا كان أشدّ الجيوش إثارة للرعب والخوف، فهو يختفي بشتى العناوين والخلفيات والأعمار والمهن، لا يعرف عدد عناصره، أو طرق عملهم، وفي صفوفه شيوخ، وشباب، ونساء، أساتذة جامعة ولصوص، أغنياء وفقراء، فنانون ورياضيون.
حين سـقط نظام حكم صدام حسين، وضعت الناس يدها على وثائق الأجهزة الأمنية وتعرّت الحقائق والأسرار، كانت الفضائح تزكم الأنوف، ففي الكمالية، وضع صديق

لي يجاور بيته مقرا مشــتركا للشرطة والأمن يده على وثائق رجال الأمن، كانت أجندة ضابـط الأمــن؛ وهو برتبة عقيـد من أهالي اليوســفية أكثرها أهميــة، ضمّت صفحة عنونهــا الضابط بــ«المصادر». كتب فيها أســماء المتعاونين معه، صنّف هذا الضابط «مصـــادره» الى مجموعات، منهم من اختــصّ بمتابعة أخبار العوائل التي لديها أبناء هاربون من العراق سواء كان هروبهم لأسباب سياسية، أو من أجل لقمة عيش، أو أي ســبب آخر، وكذلك مراقبة الأشخاص داخل العراق ممن تشكّ أجهزة الأمن بنشاطهم الســياسي، وهناك «مصادر» أخرى تختصّ بمتابعــة الهاربين من الجيش، وآخرون، كلّفوا بمهمة متابعة أنشطة تهريب الألمنيوم ويسمّى بالــ«فافون». وكان هذا النشاط رائجا في الحي، وخاصة في سنوات الحصار الاقتصادي، حيث تضم المنطقة الصناعية مجموعة من مصاهر الألمنيوم، ينشــط أصحابها في تهريبه الى كردستان، وكانت هذه المصاهر مصدر رزق وفير لرجال الشرطة والأمن في المنطقة، حيث يدفع لهم أصحاب المصاهر الرّشــوة ليغضّوا النظر عن نشاطهم غير القانوني، وضمّت قائمة «مصادر» الضابط، أســماء عدد من النساء أيضا، لم يعرف على وجه الدقة طبيعة المهمة الموكلة لهن ونوع تعاونهن مع الأجهزة الأمنية.

فجّــرت أجندة الضابط مفاجــآت أو بالمعنى الأصح فضائح، طالت أشــخاصا كانوا بنظــر أهالي المنطقة ليس فقــط منزهين عن العمل أو التعاون مــع أجهزة الأمن، بل كان ينظــر لهم بأنهــم من «عتاة» الرافضين للســلطة والكارهين لها، فــاذا بالقائمة تكشــف أنهم من «عتاوي» الأمن، بين شــخصياتهم المعلنة والمســتترة، كانت المسافة شاســعة، ففــي الوقت الذي كانت صورتهــم في أذهان الناس هــي الأقرب الى صورة المعارض أو الرافض لقمع السلطة وأساليبها في مراقبة ومضايقة الناس فاذا بأجندة الأمن تكشــف عكس ذلك تماما، فهم مســجلون في الوثائق الرســمية عيونا للســلطة على الناس، الأســاليب الدنيئة في المراقبة كشــفت عن أن الأجهزة الأمنية، لا تعمل أبدا مــن دون عيون تابعة لها، تراقب وتدقّق وتوصــل المعلومة اليها، قوّة الأجهزة الأمنية جــاءت من ضعف المجتمــع، أو من ضعاف النفوس الذين ارتضــوا أن يقدموا أرواح

الناس وأموالهم لقمة سائغة للسلطة، ومع الاعتماد الكبير عليهم أصبح هؤلاء الوشاة بمرور الزمن «سـلطة» تؤذي الناس، والملفت أن الحكومة عقب سـقوط نظام صدام حسين أعادت الحياة الى «المخبر السري»، وتحوّل هؤلاء المخبرون في الكثير من الأحيان الى مصـدر أذى وإهانـة للناس، فلم تكن هنـاك أي موانع في أن يسـتخدم المخبرون «سلطتهم» في الإيقاع بخصومهم أو من لهم مشاكل شخصية معهم.

كشـفت أجندة ضابط الأمن عن حقائق مؤلمة، فبرغم أن الناس تعرف على وجه الدقة أن مهمـة أجهزة الأمن هـي مراقبتهم، وأن من بينهم من أصبـح «أداة» تتكفّل بهذه المهمـة، الا أن «مسـتوى» ما كان يحاك لهم، وطبيعته، ودقتـه، كان مفاجئا مثلما لم يكن إنسـانيا، وإحدى المفاجآت أو الفضائح التي أذهلت أهالي الحي، هي ورود اسـم شـاب فقير، ومن عائلة لا دخل لها بالبعث والسـلطة، كان قد انخرط في سـلك رجال الدين ولبس العمامة، واسودّت جبهته من كثرة السجود، لم يكن هناك ما يشير الى أن لهذا الشاب علاقات مع «الأمن»، فاذا باسمه مدوّن في سجلات «المصادر» وأن تجنيده قد تمّ قبل مدّة قصيرة من سـقوط النظام. كانت صدمة معارفه وأصدقائه شـديدة، برغم ما يبرّره هو، بأنه قد اضطر للموافقة على التعاون مع الأمن بسـبب ما تعرّض له من ضغوط، وانه لم يوصل أي معلومة مضرّة بإنسان الى أجهزة الأمن، لم يتعرّض هـذا «الوكيـل» لأذى وظلّ يمارس حياته بشـكل اعتيادي، كان لهذا «التسـامح» مع الشاب ما يبرّره، فقد خلت مفكرة الضابط من أي إشارة عن مهمة موكلة اليه.

كلّ هذه الجيوش كانت تراقب، تحصي، تدقّق في ماضي الناس وفي نواياهم وأفكارهم، كانت تتنافس في إذلالهم، حتى أننا لم نكن نعرف أيا منها هو الأعلى سلطة، مثلما لا نعرف من هو الأكثر بطشا وقسوة. في سجن حالك الظلمة، كانت تمضي أيامنا، عوائل الذين قتلتهم السـلطة، والذين سـجنوا، أو اختفوا دون أن يعرف مصيرهم، أو هربوا خـارج البلـد، كانت تنام وهي تـترك عينها مفتوحة تنتظر سـيارة «الأمن» لتحملهم حيث يعذبون ويفنون، آلاف الناس قتلوا أو سجنوا وصودرت أملاكهم، فقط لإن لهم أقرباء كان يشـكّ بولائهم للسلطة أو انتموا فعلا الى أحزاب معارضة تعيش قياداتها

خارج البلد.

هكـذا كانــت تراجيديا العراق في تلك الأيام ومعها عشــت وكبرت وحلمت مثل ملايين النــاس فهل يعقل أن أخرج من هذا الطوفان بروح معافاة وســليمة ؟ أبدا ســأكون كاذبا لو قلت إني خرجت ســليما ومعافى، لقد أصــاب «الجرب» روحي واعترف أنني أســعى لمراقبة آثاره على إنسانيتي، لست معافى وأنا لا أثق بالناس، ولست معافى وأنا لا أشــعر بانتمائي لبلدي ولا أعرف حقوقي فيه، ولســت معافى وأنا أرى أجهزة الأمن وهي تقتــل الناس وترمي جثثهم على أهلهم، وتطلب منهــم البكاء، بصمت، والحزن وراء الجدران، ولســت معافى وأنا أشاهد كلّ يوم «عيون» السلطة وهي ترقب أنفاسي وأفكاري، كنت أرى السلطة هي الوطن والوطن هو السلطة، فكيف لي أن أحب وطني وأثق بأهله وسلطته ارتكبت الأهوال بالنفوس والقيم والأعراف ؟

لــماذا هذه الجيوش والألم والرعب؟ كانت عبادة الحاكم والخوف منه مثل هيســتيريا أصابت الناس، ومعها غدت حياتنا أشــبه بحلقة دروشــة ترقص فيها الملايين رقصة الخــوف من صدام، تدور حوله وهو يقف في مركزها منتشــيا يرمق الجميع، مثل إله لا يشبع من العبادة، تضرب «الدرباشة» بقوّة، ليقال عن ضاربها إنه بريء من تهمة كره الرئيس، الملايين تهز رؤوسها بعنف وتردّد دعاء الحياة له، أو ترقب عصي شيوخ الحلقة وهي تهتز أمامها لتجرّها الى وســطها وكنــت أنا مع هذه الملايين، ندور حول الحاكم، نتعبّد خوفا أو طمعا. لقد كان صدام يشعر بنفسه أنه أكثر من مجرد إنسان حين نجح في فرض ســلطته على النــاس جاعلا منهم أدوات تطيــع رغباته بخضوع واستسلام.

ليــس الخوف من تصــدّع الجبهة الداخلية مــع بدء الحرب مع إيــران هو الذي بعث غريــزة القتل لدى صدام حســين، بل كانت متأصلة في شــخصه، وقــد كتب عن ذلك الكثير، وعادوا الى طفولته في قرية من قرى تكريت، والى يتمه المبكّر، وفقره، العوامل الاجتماعية والشــخصية لعبت دورا في صنع واحد من أكبر طغاة التاريخ، فضلا عمّا غذّاه به حزب البعث من فكر شمولي وأساليب عمل سياسي تبرّر كلّ الجرائم وتتجاوز

على أبسط قيم الإنسان الأخلاقية.

لكـن كيف واجه النـاس وصوله الى هرم السـلطة؟ حين اعتلى صدام سـدّة الحكم، كانت الناس شـغوفة به، شبابه، وقوّة شـخصيته، ووسامته، وحيويّته الملفتة للنظر، دفعـت أغلـب الناس الى النظر له بكثير من الرضا، معتبريـن إياه الأصلح لحكم البلد وإدارتـه وتنميتـه من بين قادة حـزب البعث، ولكنّـه وفي أوّل يوم له في السـلطة في تمـوز 1979 فاجأ العالم والعراقيين معا بحصد رؤوس رفاقه وأقرب الناس اليه من كبار المسـؤولين، لم يفعل فعلته الشـنيعة هذه بسرّيّة وصمت بل أمر بعرض شريط محاكمتـه لرفاقه على كلّ فروع حزب البعث. كانت رسـالة رعب حادّة وفظيعة، لقد وضع الجميع أمام حقيقته، ورسم بلا زيف أو رتوش صورته في خيال الناس، صورة الحاكم بالرعب.

بعد سنوات على إبادة رفاقه تحدّث صدام عن الجريمة في كتاب نشرته وزارة الثقافة والاعلام بعنوان، «صدام حسين / المختارات» كان عنوان الفصل «المؤامرة الخيانية / تحليل أولي والدروس المستخلصة»، حديث صدام جرى مع القيادة القطرية، يوم 18 آب 1979 اي بعد أقلّ من شـهر واحد على الجريمة، وبسـبب «غرابة» تحليل صدام للجريمـة وجدّت نفسي مضطرا الى إدراجه كنّـص، لقد ذهب صدام الى «البرجوازية» ليحملها مسؤولية المؤامرة! يقول صدام في كلمته:

«لا بـدّ أن يتضمن تحليلنا لهذا الموضوع نـشرة وافية تعمّم على الجهاز الحزبي لكي يعتمـد عليهـا في قيـادة الجماهير»... وهنا أركـز على ضرورة تنظيف مـا حولنا من العلاقـات الاجتماعية على مسـتوى القيـادة القطرية والكادر المتقدم والمتوسـط، بل على مسـتوى عموم الجهـاز الحزبي، فعلاقاتنا لا بد أن تكون مع الشـعب، أن تكون مـع البعثيين، وليس مع الوسـط البرجـوازي تحت أي مـبرّر أو أي حالة، لذلك فمن لـه صديـق مقاول عليه، أيّها الرفاق عليه أن يتركه من تاريخ هذه الجلسـة وسـوف أتابعكـم ...عليكم بالابتعاد عـن أي صديق له صلات بالوسـط الأجنبي أو ذي صلة بالأوسـاط التجارية التي تتعاطى بالعمولة «. وينهي صدام كلمته بـ «توسل» رفاقه

ألا يحرموه من حقّه في الرّد وطرح حجته!

وانا اتحدّث عن إدراكي لما يشكّله صدام حسين من رعب، اعترف أنّه ليس من السهولة أن اؤرّخ لـولادة ظواهـر مثل الوعي والإدراك، إنها أشـياء لا يمكـن أن يكتب تاريخ ولادتها باليوم والشـهر، ولكني سـأحاول أن أعيد ترتيب ذاكرتي فيما يتعلّق بصدام والأحاسيس التي تنتابني حوله.

في 1979 وهو العام الذي تولّى فيه سدّة الرئاسة، كنت في الحادية عشرة من عمري. أوّل «معرفتي» به جاءت مع لحظة إعدامه لرفاقه في السـلطة والحزب، كنت أشـاهد آثـار الصدمـة في أحاديث الناس، لـم أعرف من الذي أيّد وصفّـق لحفلة الدم تلك أو اعترض واسـتنكر وخاف، ولسـت معنيّا بذلك، وبعد أشـهر قليلة سـمعت أنّه أعدم محمد باقر الصدر أحد أهم رجال الدين الشـيعة ومعه شـقيقته، كان الحدث مدوّيا برغـم السريّـة والخوف في كلام النـاس المحيطين بي، كانت جرأة قتل شـخص مثل باقر الصدر تكشـف حقيقة صدام الوحشـية ودرجة اسـتهتاره بمشاعر الملايين من العراقيين. ثم بعد أشـهر شاهدت كيف تحوّل البلد الى ساحة حرب ضارية ومفجعة قادنـا لها صدام بـبرود وخفّة، فليس غريبـا أن تعلّق صورة صـدام في ذهني بالدّم والعنف، كانت مرعبة وتتداخل فيها الأسطورة مع التاريخ، وبرغم مرور سنوات على إعدامه إلا أنه لا زال يسـكن داخلي، وطالما حلمت به متصورا نفسي بين يديه، لم أقو على إبعاد شـبحه عن نفسي، لا اتحدّث هنا بلغة التّهويل أبدا، ولسـت راغبا في إضافة نقطة سوداء على سواد ما تركه على العراق، أو معنيّا بصورته التي أرادها هو لنفسه أو رسـمها له أعداؤه، فقسـوته ورعب مشهده أعيشـهما مع نفسي فقط، حديثي هنا يخرج لأول مرة من دائرة البوح للنفس، أعلنه، عسى أن أزيحه عني، ولا يكاد يمر يوم إلا وأنا معه، أقف بين يديه مرتجفا، أو متسـائلا، أو مستنكرا، اتحاشى عيونه، أراقب يديه وكلماته، أخرج منه حامدا الله على نعمة النجاة من فتكه، وفي أحيان كثيرة كان يلاطفني، يتودّد إليّ، يترك لي حريّة الكلام، لا يذكرني به سوء الحال الذي أعقب انهيار سـلطته، ولا أضعـه في موضع المقارنة مع من وصل السـلطة بعـده، أعيش لحظات

«لقائي» المستمر معه بروح ما كنت أعيشه في أيامه، هو لم يمت في داخلي أبدا، وأشكّ في قدرتي على تناسيه، أصبح «شيطاني» المستوطن داخلي .
كانت حرب صدام حسـين الداخلية ومـا فعله بمعارضيه خلال أعـوام الثمانينيات، منسـجمة تماما مع فكره وشـخصيته العدوانية، فليس عرضيّا أو طارئا قتله لآلاف الناس بشتى التهم، ومع إعلان السلطة في إيران رغبتها وسعيها لإسقاطه، كان عقال غريزة القتل قد إنفلت من روح صدام حسين، شكوكه شملت العراقيين كلّهم، لا أحد يملك حصانة البعد عن دائرة الشكّ، لا يملكها قادة البعث ومسؤولو الدولة، أقرباؤه، وخصومه بالتأكيد، الكلّ في دائرة الاتهام.
كان الرعـب منه يأخذ بالافئدة، ولا زلت اتذكـر الصفعة التي تلقّيتها من زميل، كنت أمازحـه حين دخـل الصف، كنا في الخـادس الإعدادي، كان والـده هاربا من العراق بسـبب انتمائه للحزب الشـيوعي ومطاردته من قبل السلطة، وانفصل تبعا لذلك عن والدتـه، فتزوّجت من شـخص آخر وعاش مـع أخواله، كان انكسـاره النفسي باديا للعيان بمجرد محادثته، يتحاشى تعزيز صداقاته، ويخاف من السلطة بشكل ملفت، كانـت صفـرة وجهه توحي وكأنّـه يعاني من مرض ما، دخل زميـلي هذا الى الصف وقلت له ساخرا:
ــ ليش تحـچـي عليه ؟ ليش ما تخاف؟
كنـت أعنـي زميلا لنا كنا نتحـاشى مزاجه العنيف وقوّة عضلاتـه، تحدّث هو عنه في الاسـتراحة بشيء من السـخرية دون وجوده، لم أشـعر إلا بصفعة تضرب خدّي، لم أفهـم غضبه وحين رميت بنفـسي عليه؛ كان زملاؤنا ومنهم صاحـب المزاج العنيف، قـد حالوا بيننـا، إنهالت عليه كلمات العتب والتأنيـب، فجلس في آخر الصف، وبكى، لم نعرف سـبب غضبه، إلا بعد ان اعتذر منـي وأخذني مع بضعة أصدقاء الى زاوية بعيدة، وقال إنه فهم من كلماتي أنّي أقصد صدام حسـين، وكأنّي قلت له لماذا تتكلم عن صدام؟ لم يكن اسـم صدام يلفظ بسـهولة وخاصّة في الأحاديث العلنية أو التي تدور بين أغراب، لذلك كانت ألقابه الرسـمية المسـبوقة بعبـارات التبجيل والاحترام،

من قبيل السـيد الرئيس، أو السيد القائد، ويزيد آخرون على هذه الكلمة، حفظه الله، هي التي تسـتخدم مع اسمه، أما الذين يريدون الحديث عنه بمزيد من الحذر فكانوا يسـتخدمون ضمير الغائب، وكانت الناس تخشى فعلا من اسـتخدام ضمير الغائب، لذلـك ظنّ ذلك الصديق أني اتحدّث عن صدام حسـين فامتلكه الخوف الشـديد من سؤالي، فلم يملك ضبط نفسه وضربني.

الخوف الذي استبدّ بنا يمنعنا حتى من الإشارة والتلميح الى صدام، وبسببه قد أفعل مـع شـخص آخر ما فعل معي زميـلي الخائف من التلميح، كنـت صادقا تماما حين قبلـت اعتذاره مني، عاتبت نفسي عـلى «تهوّري»، كان عليّ أن أكون حذرا ومحترزا في كلامي، هذا ما قلته له بوضوح. كنّا نخاف على أرواحنا من كلّ كلمة أو نظرة، لم نملك سوى أن نعلّم أنفسنا وندربها على فنون تفادي المخاطر المهلكة، لا نعرف لغة نتعامل بها مع اسم صدام حين نتحدّث عنه، كان بين مشاعرنا الحقيقية تجاهه وبين لساننا مسـافات شاسـعة، داخلنا، كان يغلي كالمرجل عليه، فهو في الحقيقة سفاح مستهتر، وعدوانـي منعدم الضمير، ولكننا نتحدّث عنه بكلّ ما يحويه قاموس الحبّ والاحترام والتبجيل، وحين نجد من يمنحنا الأمان من الأصدقاء كنا نفرش سجادة كرهه ومقته بكلّ مسـاحتها، ونرمي عليها كرهنا وقهرنا وخوفنا، لذلـك كانت الصداقة في أحيان كثيرة هي آخر معاقل التنفيس عن غضبنا على السلطة، وفي نفس الوقت كانت طريقا للمـوت أيضـا وخاصة حين تفلت من معيـار الثقة التامة، فالكثـير من الناس ذهبوا ضحايا سـوء تقديرهـم لدرجة الثقة التي يمنحونها لصديق، بعضهم كان مشـهورا وآخرون كانوا مسـؤولين أو قادة جيش كبار، أنهت حياتهم وشـاية صديق ظنوا أنّه أهل للثقة فتحدثوا أمامه عن مشاعرهم تجاه صدام ، فكانت نهايتهم.

رزاق

أيّها المـوت، أيّها القبطان القديم، لقـد آن لنا أن نرفع المرساة، فهذا العالم يضجرنا.... فلنبحر.

بودلير

شـعره الناعم، ووجه المستدير، وجسـده الممتلئ، وشـيخوخته التي يقلّد فيها والده الحكيـم، وحبّه العميق لأمه، كانت أجزاء من قصة رزاق التي ظهرت وكبرت واختفت بلمح البصر. كانت مدّة سـعادته وانسجامه مع محيطه الاجتماعي قصيرة فقد ادّخر حزنه الى لحظة واحدة لم يكن أيٌّ من أحبته شريكا له فيها.

ما بين عائلتينا علاقات تمتدّ الى ريف الكوت، وتحديدا الى قرية من قرى ناحية جصان في أقـصى الحـدود مع إيران التي سـيكون لـرزاق معها قصة مـوت لا حكاية حياة. عاشـت عائلتانا عيشا مشـتركا في بغداد في بيت مبني من الطين في خمسينيات القرن الماضي بعد تركهما القرية واتجاههما الى «العاصمة»، مثلما هاجرت آلاف العوائل من

الجنوب الى بغداد أملا بحياة أفضل.

ولـد رزاق وتألم ومات في بغداد، في رحلة لم تستـمر سـوى عقديـن من الزمن فقط، كانت كومضة برق. وكانت ولادتي قد تمّت معه في نفس السنة، كان جاري وصديقي وزميلي في المدرسـة، تشـترك يومياتنا البسـيطة بالكثير من التفاصيل، ففي المدرسة كنـا نجلس على نفـس المصطبة، وحين نعود الى البيت نجتمـع بعد وقت قليل في ظلّ الجـدران صيفا أو في «المشركانة» شـتاء، أو نلعب «الطوبـة» التي يحرس فيها رزاق المرمـى. هذا الحارس الشـجاع دارت حياته نحو طرق محفوفـة بالمخاطر قادته لها أفـكاره البريئة، وانتهت الى موت مؤلم. معركـة رزاق مع الموت لم تكن متكافئة فهو وحيـد قبالة جبروت، كيـف لفتى مثل رزاق، يخاف الليل، ونبـاح الكلاب، أن ينتصر على سلطة تعبّد طرقها بجماجم الناس وتغسلها بدمهم ودمعهم؟ رزاق قبالة سلطة صدام، أي «أسطورة» هذه التي كنت شاهدا على حقيقتها؟

كان رزاق كثير الحبّ لوالده «عجاج» الذي يعمل في دائرة للكهرباء، وكان ما يحفظه والده من الشـعر الشـعبي يفوق حجم معرفته بالكهرباء، كان شـاعرا يحفظ لكل حدث أو موقف أو جلسة أبيات شعر يردّدها وهو يتلاعب بالإيقاع كأي شاعر فحل، كان والـده مهابا مـن أقربائه ومن الجيران، لـم أقو على النظر اليه، بسـبب نظراته الحادّة، وحواجبه المرتفعة بطريقة تخيف طفلا لم ير لها نظيرا، كان عجبي من رزاق هو درجة تأثره به فهو يحفظ شعره، ويقلّد صوته، وإشارة يديه.

منحـت حماقتي مع رزاق في يوم من الأيام لحبّي له طاقة جديدة للبقاء، كان يركض أمامي في سـاحة مدرسـتنا الابتدائية، لحقت به وأنا استشعر خبثا يسري في عروقي، ضربت إحدى رجليه بقدمي، فسقط على بعد أمتار وهو يتلظّى من الألم كانت ساقه قد التوت بشـدة، وسرعان ما تورّم مفصل قدمه بشـكل مخيف، نقل الى مستوصف يقع أمام بناية المدرسـة، لم تكسر سـاقه، بل أصيب برضوض تركت وراءها زرقة في الجلـد، غضبه عليّ وزعله كانا مؤلمين لي أشـدّ الألم، لم ينفـع اعتذاري السريع منه في إيقاف أمواج غضبه، وحبسها لي رزاق في داخله، ولم تمض سوى أيام قليلة حتى ردّ

على خبثي معه بخبث أشـدّ ألما وأقوى، فأعاد عليّ سيناريو ما فعلت معه بدقّة، فعلها معي في نفس المكان وبنفس الطريقة لكنّي خرجت من ضربته بجرح غائر شقّ خط الحيـاة في راحة يـدي اليسرى، تاركا لي أثرا منه سـيبقى معي طـوال العمر، في تلك اللحظـات احتملنا جروحنـا وتبادلناها بحبّ لكن روحي ظلّـت ترفض جرح رحيله حتى اليوم فهو أقوى من أن يحتمل.

حين انتقلنا الى الدراسـة المتوسـطة دخل رزاق صفا ودخلت آخر، فحسـبنا ذلك أوّل ضربات الدهر القاسية، ولم نتوقع أنّ ضربة أخرى ستكون أقسى من أن تحتمل، كنّا نلتقي في أوقات الاسـتراحة بين الدروس، ونعود معا من المدرسـة ونذهب معا، أكملنا المتوسـطة وقلّت اللقاءات بعد أن فرقتنا خياراتنا المدرسية، كانت الحرب تستعر على الحدود مع إيران، وكان يقلّد ويردّد إعجاب إهله وأقاربه بالثورة الايرانية وبسـيطرة المعممين الشّـيعة على مقاليد السـلطة، مثلما كنت أفعل. الخميني او صدام، لا خيار آخر أمام الناس، صدام بلهجته الملعونة، ولباسـه الخاكـي المقيت وأجهزة أمنه التي تسوم الناس سوء العذاب، كانت ترتسم بأذهان الشّيعة كحكومة تسبق ظهور إمامهم الثاني عشر. صدام كان من شروط الساعة، وعلامات الظهور.

غذّى رجال الدين مخيال الشّـيعة الشـعبي، بصور من جبريّة لا يملك أمامها الفكر أي منفذ للهرب، كانت الروايات الدينية عما يجري للشـيعة تسـحرنا وتخفف وطأة المعاناة حيث تضعنا في عين الله، فهو الذي قدّر، وأمر، الشّـيعة ينتظرون القادم من السماء عبر ما يلاقونه من عذاب وقتل ومهانة، فهو لن يأتي حتى تمتلئ الأرض ظلما وجورا، امتلاء الارض بدم الشّيعة كفيل بنهاية عصور الموت والعذاب .

جاءني رزاق عصر يوم في نهاية العام 1986، كان ارتباكه بحجم براءته، اقترب مني كمن يريد أن يلقي عليّ سرّا من أسرار العالم الخطيرة، أهو اسم الله الأعظم هذا الذي يريد رزاق أن يكشـفه لي؟ اقتربت منه، همس لي، أحمل معي كتاب «الملاحم والفتن» لابن طاووس، ذهلت من هول المفاجأة، فقد كان لهذا الكتاب وقع على نفوس الشّيعة، إنه مدوّنة إلهية ليس للماضي بل للمسـتقبل، نبوءة بما سيقع في نهاية الكون بعيون

شـيعية، وكنّا نسـمع من المقربين بين الحين والحين عن هذا الكتاب أسـاطير تجعلنا نفتح أفواهنا دهشـة، قتل الشّـيعة والتضييق عليهم، وفسـق الناس، وتبرج النساء، واكتفـاء الرجـل بالرجل، والمـرأة بالمرأة التي يتحـدّث عنها الكتـاب كعلامات أكيدة لظهـور المهـدي ونهاية العالم، كنا نعيش هـذه النبوءات، وسـيكون الأمر في النهاية مفرحـا حين نعلم أننا وحدنـا اطلعنا على نهاية الوجود قبـل وقوعها، إنها شراكة في المعرفة الإلهية وفي تجسـيد دور إلهي، فنحن قوى الخير التي ستعيد بناء الأرض على أسـس أكثر عدلا وإنصافا، يبدو أن المهمة الموكلة لنا نحن الجيل الذي فتح عينيه على خطـاب الفداء والتضحية والثورة الدينيّة، ليسـت هيّنة، فحجم القداسـة التي ننظر بها لنصوص الدين ورجاله لم تتح للعقل أي فرصة للعمل أو النقد أو حتى السؤال، كان أشبه باستسلام ميت ليد من يدفنه، كنا مشاريع موت في سبيل الدين لا مشاريع حيـاة معه، الدين عنى لنا الموت والفداء فـكان رزاق غائب الوعي وهو يمارس دوره المرسوم .

اسـتعرت الكتاب وبعد أيام جاءني ليسـتعيده، ولكنه لم يكتف بأخذه بل طلب مني أن نتحدث معا لبعض الوقت، ذهبنا نتمشى نحو بسـاتين تقع على نهر ديالى المحاذي لحيّنـا، كان رزاق مرتبكا وهو يتحـدّث بلغة لم أكن أعرفها عنـه، بدأ حديثه بالظلم الذي نتعرّض له كشيعة، ولكنّه تساءل عن نهايته طالبا مني الإجابة، فاجأني سؤاله، ولذت بالصمت بعض الوقت، وعرفت لحظتها أن كتاب «الملاحم والفتن» الذي أعارني إيـاه كان المقدمة التي يعتقد أنها كافية لإقناعي بضرورة «التّحرّك» والعمل من أجل التمهيد لظهور المهدي المنتظر، أو على الأقل لوقف الظلم المحيط بالشّـيعة، لم أتردّد فقلت له، هل تورطت يا رزاق ؟ وكنت أعني بالورطة انتماءه لأحد الأحزاب الشيعية، التي لم نكن نعرف سواها وهي تعمل وتعيش في إيران وتأتمر بأمر الحكومة الإيرانية أو تحـت إشرافها ومراقبتها، قال لي، ليس ورطة أبـدا، كبر رزاق بنظري برغم خوفي عليـه وعلى نفسي، وقد خفت لمجـرد مفاتحتي بالموضوع، فهي تكفي وتزيد لإعدامي، وفي داخـلي لمته كثـيرا على فعلته وصراحته معي، وبين رفضي واعتراضي على مسـاره

الـذي اختـاره لحياته وبـين إصراره على عمله انتهـى الحديث، كنـت أنظر له كيف سيعذب ويسحق ولكنّي لم أقو على منعه.
في آذار مـن العام 1988 فقد أثر رزاق وشـقيقه فاضل في نفـس اليوم، ذهب أهلهم الى المستشـفيات ومراكز الشرطة ولكن شـكّهم بأن «الأمن» اعتقلهـم كان يزداد كلّ ساعة، وفي الأسبوع نفسه أيضا كنّا قد فقدنا شقيقي في مجزرة حلبجة، فبدا لنا القدر وكأنّه يرسـم لعائلتينا مصيرا مشـتركا حتى في الحزن والفقدان، البكاء والألم يوزع علينـا بالتسـاوي، كنت أكثر أفـراد العائلتين حزنا فقد خسرت صديقـا بريئا ونقيّا، وفقدت أيضا شـقيقا حنونا رغـم صخبه وانفعاله. كان خوفي مـن إمكانية أن يبوح رزاق بالحديـث الذي جرى بيننا يسرق مني حزنـي على أخي وعلى رزاق أيضا، كنت أرقب اعتقالي الوشيك، فاعتراف رزاق ليس مستبعداً، لأن ما يمكن أن يتعرّض له من تعذيب يفوق طاقة البشر، والتعذيب يكفي ويزيد على الاعتراف، سواء كان حقيقيّا أو كاذبـا. والاعتراف الكاذب عادة ما يلجأ اليه المعتقلـون لينهوا به عذابهم الطويل وما يمرّ بهم في السجن من مشاق، فالكثير من المعتقلين كانوا يعترفون بأشياء لم يفعلوها أبدا، كان التعذيب في أقبية الأجهزة الأمنية مهولا، والمعتقلون يريدون إنهاء شـقائهم بأي طريقة وبأي ثمن، حتى لو كان الإعدام، لذلك كانوا يؤيدون التهم التي توجّه لهم من قبل المحققين، وللمزيد من السـخرية بالمعتقلـين كان عناصر الأمن يطلقون على المعتقل الذي يعترف بأنه بدأ «يغرد» . يشبهون أصوات الموت بأصوات البلابل .
امتنـع الكثـير من أقربـاء رزاق وجيرانه عن زيـارة عائلته، ومواسـاتها بفقدانه هو وشقيقه، كان الخوف من السلطة قد اكتسح المجتمع، وضرب أبسط صور التعاطف الإنسـاني، وبدا وكأنّ عارا شـنيعا لحق بعجـاج وعائلته، ولكن أبـي ظلّ على عادته اليوميّـة في زيارة بيت صديقـه الحميم برغم إلحاح أمي وتوسـلها بل وتهديدها له، كنت أرقب صمت أبي وحزنه، كان صمتا بليغا وحزنا بعيد الحدود، لم يكن يرغب في الجدال معها ويكتفي بكلمة أو اثنتين لا ينسى أن يوجّه فيها لوما أو عتبا لأمي، وكان يعذر الناس الذين امتنعوا عن التواصل مع عائلة رزاق وطالما سـمعته يقول «حقهم

الحكومة ما ترحم ابد» .

ليس بالنسبة لقضية إعدام رزاق وحده، بل لكلّ من ذهب ضحية اعتراضه أو انتقاده أو معارضته لصدام، لم يكن هناك من يسـمح لنفسـه بأن يشـكّك، أو يلوم ضحايا معارضـة السـلطة، رغم ما يتعرّض لـه أقاربهم وعوائلهم من تنكيل، وتعسـف. إن أحدا لم يكن يجرؤ على السـؤال حول جدوى، وفائدة، ما يقوم به هؤلاء الشباب، كان «الجميع» يتحفّظ على أي أسـئلة تشـكّك بنوايا وأنشـطة معارضي السلطة. لذلك لم أسـمع أي لوم على ما فعله رزاق وصحبه بأنفسهم وبأهلهم، هل كان هؤلاء الضحايا هـم من يمنح الناس الأمل بنهاية صدام حسـين؟ وقبل ذلك هل يمكن أن يمنح الأمل شباب لا يملكون سوى الحماسة في مواجهة سلطة جهنم؟

في أيلـول من عام 1988 أبلغت دائرة الأمن عائلـة رزاق بأن عليهم المجيء الى إحدى دوائرها لتسـلّم جثته هو وشـقيقه؛ اللذين أعدما شـنقا، ذهب عمّـي علي مع عجاج لتسـلّم الجثث، كان فعله بقدر ما فيه من شجاعة وتعاطف مع عائلة عجاج إلا أنه لا يخلو من «تهوّر»، فكان سـهلا بل ومتوقعا أن تعتقلـه الأجهزة الأمنية، وليس بعيدا ايضا أن تضعنا في دائرة الاتهام وهذه وحدها كافية لمنعنا من ممارسة حياتنا بصورة طبيعيـة، لم يكتف والـدي بما قام به أيام اختفاء رزاق وشـقيقه بزيارة العائلة، بل أصرّ بعـد دفـن الجثث على التواصل مـع صديقه عجاج، ولا زلت اتذكـر أنه بعد أن زارهـم عقب دفن الأشـقاء، نقل عن عجاج قولـه بحسرة وألم إن «أجسـامهم زركة وركابهم (رقابهم) صايرة مثل الحبل».

كيف وصل هؤلاء الشباب الطيبون الى حبل المشنقة ؟ لماذا «تمرّد» رزاق على السلطة؟ هل كان مدفوعا بمصلحة شـخصية؟ ام أراد تخفيفا ما من سـعير جهنم؟ وقبل ذلك كيف حوّل رغبته بالمعارضة الى حقيقة مستعد لدفع ثمنها؟

مضت سنوات طويلة وانا لا أعرف كيف انتمى رزاق لتنظيم سياسي معارض للسلطة، كان حجم الخوف الذي يحيط بأي سـؤال عن قضية سياسـية يمنعني من أن أسـأل ليـس فقط عائلة رزاق بل حتى أصدقاء كانـوا يعرفون تفاصيل دقيقة عن التنظيم،

لكن حســن حظهم هو الذي نجّاهم من الموت، وبعد سقوط نظام صدام، اهتديت الى الطرق التي أوصلت رزاق لحبل المشــنقة، كان في طريقة تنظيمهم من الألم ما قارب ألم خسرانهم نفســه، فقد كانــت القصة كلها «توريط» جرى على يد الســلطة، حيث فتحت أبوابها ورعت تنظيمهم بنفسها.

في قصة رزاق ورفاقه، كان «البطل» هو معارض سياسي يعيش في إيران، وكان يسكن في منطقة مجاورة للكمالية، وله فيها أصدقاء وأقرباء، دخل العراق عام 1986 للعمل على كســب الشــباب الى صفوف تنظيمه، ووقع بيد الأجهزة الأمنية، لكنها لم تعدمه، بل فتحت لــه الأبواب على مصراعيها وحوّلته الى أداة طيعة بيدها، خرج من «مديرية الأمن العامة» مرتبطا بالعميد قاســم مســؤول القسم الســياسي فيها، بدأ نشاطه في مفاتحة عدد من الشــباب على العمل معه، افتتح عمله باثنين فقط، وأوكل لكلّ منهما مســؤولية مفاتحة شــخصين آخريــن لا أكثــر، شرط أن يكون دقيقــا في اختيارهم، ووجــه الدّقــة التي تريدها أجهــزة الأمن هو أن تكون لديهم رغبة وحماســة في تقبّل العمــل، أما لمــاذا التدقيق على هذه الصفات فلأنها تريد أن تســبق الأحزاب المعارضة في كســب الشــباب، وحين يكون التنظيم مســيطرا عليه من قبل الأمن ويضمّ الشباب المندفع والمتحمس فستكون قد كسبت الجولة مسبّقا «واجتثت» هؤلاء الشباب وفوّتت الفرصة على الأحزاب، ولكي يعطي «قائد التنظيم الوهمي» انطباعا جادّا؛ كان يبدو لهــم حذرا ودقيقا، وفي نفس الوقت منحته هالة «المعارض» المســتقر في إيران الكثير من المصداقية والثقة، بدأ نشــاطه بتزويد الشــباب بالكتب الدينية المحظورة (وربما كان كتاب «الملاحم والفتن» الذي أعارني إياه رزاق أحدها) وفعلا نجح في توريط أول مجموعة، وكانــوا طلبة في كليّة القانون، وتوالى عمله فانضم اليه شــقيقان، مهندس ومدرس، ثم شــقيقان آخران، أحدهما طالب في كليّة الإدارة والاقتصاد والآخر في كليّة العلــوم، وانضم اليهــم رزاق وكان طالبا في إعدادية الصناعة وشــقيقه فاضل وكان حينهــا جنديّا. يبدو أن «قائد التنظيم» حزم أمره على إبادة عوائل وليس أفرادا فقط، يبدأ اجتماعه بمجموعته، بفتح صحيفة من صحف النظام، ويلعن صدام حسين الذي

تتصــدّر صورته الصحيفــة، داعيا الأعضاء الى «التأمين» عــلى لعنه، فيردّدون وراءه، آمــين، آمين يا ربّ العالمين، ولكي يضيف مزيدا من الأهمية على دوره وخطورة عمله، أخذ رفاقه في «الجهاد» الى بيت يخفي فيه الكثير من الأسلحة، وهو بيت مهيّأ من قبل أجهزة الأمن نفســها، وبالنسبة للشــباب، كانوا فخورين بـ «قائدهم» الذي بعثه لهم قدرهم، لكنّهم لم يعرفوا ما ينتظرهم من مصير، فقد كانوا ينشــطون ضدّ الســلطة، ولكن تحت رقابتها وإشرافها، سبقت السلطة بلعبتها القذرة هذه، الأحزاب السياسية في تنظيم الشــباب، وربحت الضربة الاستباقية، فلو نجحت المعارضة في تنظيم هؤلاء الشــباب، لتطلب الأمر جهودا مضنية في كشــفهم، فما المانع أن تتولى الأجهزة الأمنية بنفسها مسؤولية الإيقاع بالشباب؟

تركت عائلة رزاق بغداد، عقب إعدامه، واستقرت في محافظة الكوت، قالوا إن وجودهم بــين أقاربهم يمكن أن يعرّض هؤلاء والجيران أيضا لمخاطر مراقبة ومحاصرة أجهزة الأمــن، وكانــوا صادقين في ذلك، فالســلطة ومن التجربــة الطويلة معهــا لن تكتفي بإعدام المعارضين لها، بل ستضع منازل جيران وأقارب الضحايا تحت مجهر الرقابة الشديدة والتضييق المستمر لسنين طوال.

زرت قــبر أمي بعد ســنة من إعدامه، ثم وبنفس المناســبة ذهبت لقــبره، وقفت أمام صورتــه، اتذكر بالضبط متى وأين التقطها، اســتعدت حياتنا حتى لحظاتها الأخيرة وهــو يلــوّح لي بيديه من بعيد قبل أن يدخل بيته، لم تفارقني صورة متخيّلة لمشــيته وهو ينقاد للمشنقة، قلت مع نفسي أي شيء تذكره رزاق وهو يواجه الموت شنقا؟ هل ندم؟ هل تذكرني؟ هل اعتذر مع نفســه لوالده ؟ أزحت التراب عن صورته لأشــاهد ابتسامته وأجهشت بالبكاء .

عقب ســقوط نظام صدام حسين حصلت عائلة رزاق على بعض من الوثائق الرسمية حــول قضيته، ومنها كتــاب محكمة التمييز بالرقــم 1765 في 1 /6 / 1988 تحت عنوان «جدول أعمال المحكمة ليوم 30 /5/ 1988» والموجّه الى ديوان الرئاسة جاء فيه:

«حسـمت محكمتنـا القضية المرقمة 16/ 1988 (أمن عـام) بالدعوى 728/ ج / 1988 الخاصة بالمتهمين قاسم محمد شمخي وجماعته وقرّرت ما يلي:
هـ ـــــ الحكم على المجرمين ضياء اسـماعيل ابراهيـم ورزاق عجاج سرحان بالإعدام شـنقا حتى الموت وفق المـادة 175/ 2 ق ع بدلالة قرار مجلـس قيادة الثورة المرقم 1370 في 13 / 12/ 1983 ومصادرة أموالهم المنقولة وغير المنقولة.
و ـ اعتبار جريمة المدانين أعلاه جناية عادية مخلّة بالشرف عملا بقرار مجلس قيادة الثورة المرقم 61 في 17/1/ 1988 .
ز ـ مصادرة الرمانات المضبوطة والتّصرّف بها أصوليّا».
كان المحكوم الأول في القضية «ضياء اسماعيل ابراهيم» زميلا لنا في المدرسة، وكانت شقيقته التي تكبره صديقة لشقيقتي، وتزورها بشكل مستمر، ولكنها انقطعت عنها عقب إعدام شـقيقها، وحين زارتنا بعد فترة ليسـت بالقصيرة، كان الحزن قد حوّلها الى عجـوز، ولم أكن أعرف أن ضياء قـد حكم مع رزاق بنفس القضية، إلا بعد زيارة شقيقته.
في 15 أيلول 1988 دعي والد رزاق لتسلّم جثتي ولديه، اللذين أعدما يوم 4 أيلول، لم يكمل رزاق عامه العشرين حين التفّ حبل المشـنقة على رقبته لينهي بفظاظة حياته السريعـة، ولم يترك وراءه أي أموال لتصادرها الحكومة كما ينصّ قرار إعدامه، التي تصف ما ارتكبه بـــــ «جناية عاديّة مخلّة بالشرف». رفع رزاق مرساته ورحل تاركا لنا بعض ذكريات، وروحا محبّة، وصفاء ليس له مثيل، ويا لجمال ما ترك.

فاضل راضي

إن حزنا في ساعة الموت
أضعاف سرور في ساعة الميلاد
المعري

في أحد أطراف ساحة كرة القدم المجاورة لبيتنا، تربض أربع غرف مبنيّة من الطين سكنتها عائلة راضي أبو شوارب، المكوّنة من راضي وزوجته هندازة وشابين وبنت ويعيش معهم كلبهم «حطاب» الأقرب الى وداعة قط. كان راضي عصبيّا، حادّ المزاج على الدوام، وكان غضبه شديدا على الأطفال الذين يزعجونه بلعب الكرة قرب خرابته، لم يزد تهديده عن الصراخ والسباب. يعمل راضي في مخبز حكومي لإنتاج الصمون في كراج الأمانة، وبحكم صداقته مع والدي كانا يتبادلان الزيارة بشكل شبه يومي، أما والدتي فكانت تشارك هندازة حياكة السجاد في بيتها الطيني، لذلك كان تواجدي في بيت راضي جزءاً من يومياتي.

لم تكن شوارب راضي التي ترتفع أطرافها حتى تكاد تلامس عيونه هي فقط ما يميز شخصه بل تضيف له ضحكته ونبرة السعال التي تنتابه باستمرار ميزة أخرى، تجعل منه «كارَكتر» متفرداً يحفر له في الذاكرة مكانا عميقا، فقد كان حادّا في ضحكته وفي كحّته المستمرة وفي سلوكه أيضا، كان أشدّ ما يقلق حياة راضي ويهدم سكينته هو اعتقاده بأنه وقع ضحية سحر صنعته له امرأة كان يعرفها أيام شبابه بعد أن رفض الزواج منها رغم إلحاحها، فتحوّل حبّها له الى كراهية، فصنعت له سحرا أدخلت من خلاله بعض الشعرات النجسة في باطن قدميه، يقول إنّ حياته تبدّلت منذ ذلك اليوم ووهنت قدماه. لم أسمع من أهلي أو من الجيران أي مناقشة أو اعتراض على تفسير راضي لحالة الإرهاق في أقدامه، بل بالعكس هم مقتنعون بتفسيره ومتعاطفون مع محنته، وغالبا ما ساعدوه في البحث عن أشخاص لهم القدرة على إبطال سحر حبيبته وإيقاف مفعوله، وظلّ يعتقد أنّ رجليه هما ضحية الشعرات النجسات، فكان يقضي جزءا من الليل في وضعهما وسط قدر من الماء الحار لتقوم ابنته أو زوجته بتمشيط أسفل القدم بغصن من نوع خاص من الشجر، يسمى بشجر «العصف».

في بيته الطيني يعيش راضي كشيخ قبيلة، يحبّ الطعام الدسم، ولا يخلو بيته من «الدهن الحر» الذي يفرط في تناوله، يحلق لحيته يوميا ويهتمّ بنظافة ملابسه بشكل لافت. كان ابنه الثاني، فاضل، شابا متفردا، يمتلك مواصفات القائد الحزبي، له قدرة المواجهة والجدل، وتعبويا من طراز نادر. كان جريئا، وفصيحا في خطاباته في المدرسة أو في التجمعات التي يقيمها حزب البعث الذي ينتمي له ويعشقه حدّ الجنون. كان ذلك قبل تولي صدام للسلطة، وبعدها بقليل.

البعض كانوا معجبين بفاضل ويصفونه بـ «المثقف»، وآخرون كانوا يسخرون منه، ومنهم من يحسده على جرأته، كان يقف ليرتجل كلمته «الجماهيرية» ويلقيها بإيقاع يثير الانتباه، لا يتردّد في مناقشة فكر البعث وبرنامجه وسياسته مع أي شخص وفي أي وقت. تغطّي جدران غرفته الطينيّة صورة تجمع صدام حسين وأحمد حسن البكر وهما يرتديان بدلتين بيضاويتين، لا يسمّي الرئيس ونائبه بأسمائهم حتى في

الحديث العادي، بل يستخدم ألقابهم الحزبيّة والرسميّة، وكأنّه وسط تجمّع حزبيّ، لم يكن يهتمّ بعلاقات الحبّ مع البنات، ولم يعرف عنه يوما أي علاقة مع الجنس اللطيف، لا عابرة ولا قارّة، لا جنسيّة ولا عذريّة، ربما كان شغفه بـ«البعث» قد سلب منه روح الشباب ومغامراته ونزواته، أو قد يكون الفقر هو السبب. وباستثناء حبّه لكرة القدم لم يكن أي حبّ يداني حبّه للبعث.

لا زال كثير من أهالي الحي يذكرون «خطبته» الحزبيّة التي بدأها بالنظر الى آخر صفوف الحاضرين لينادي على والدته «هندازة»، العجوز المصابة بضعف البصر، كأنّها فعلا قد دخلت الحشد حين ناداها، ليتحدّث معها عن إيمانه بحزب البعث وبسلطته وقادته، كان غريبا في ممارساته، ومنها أن شجارا عنيفا حصل عقب مباراة بين فريقه وفريق خصم، فدعا في اليوم التالي كلا الفريقين الى الحضور في الملعب نفسه الذي حصلت فيه المشاجرة وحين اجتمع الحضور، أخرج فاضل ورقة من جيبه ليقرأ عليهم خطبة في التسامح والتعاضد ونبذ الأحقاد، كان فعله هذا ينمّ عن ممارسة متفردة بين شباب منطقة شعبيّة لم يكمل الكثير منهم الدراسة المتوسطة.

أكمل دراسته في معهد الإدارة في كركوك بعد مضي أكثر من عامين على بدء الحرب مع إيران، والتحق بجبهة الحرب في جبال السليمانية، ولم يلبث أن قتل فيها، ظلّت جثته ملقاة ما يزيد عن شهر في ما يسمّى بالأرض الحرام، وهي المسافة الفاصلة بين الجيشين، العراقي والإيراني.

ذهب شقيقه الأكبر الى الوحدة العسكرية التي ينتسب لها فاضل ودخل الأرض الحرام ووصل الى جثّة شقيقه، وجيء بها ليلا الى بيت حسين الحمزة صديق والدي وقريب عائلة فاضل، المقابل لمركز الشرطة، فزعنا الى بيت أبو علي وهو بضع غرف متناثرة ومنفصلة عن بعضها، وضعت الجثّة في غرفة وأغلق عليها الباب، سحبني والده من بين الناس ليطلب مني أن أدخل اليها وأفتح التابوت لاتأكد أنّ الجثة لفاضل، لم أقو على الرفض تعاطفا معه أو ربّما خوفا منه، يومها لم يتجاوز عمري الخامسة عشرة، دخلت الغرفة ووقفت أمام التابوت؛ مددت يدي لأفتح الغطاء، ارتجفت وأنا أحاول

رفعـه، لكني لم اتوقف، كانت «رجولتي» تمنعني من الصراخ والهرب، رفعت الغطاء بعد تعثر، وظهر كيس من النايلون يلفّ الجثّة، كان أصفر اللون بسـبب قدمه، لذلك حجـب الوجه بالكامل، أضاف هذا لخوفي حملا جديدا، رفعت غطاء النايلون ونظرت وجـه فاضل بانفه الملفت في طوله وشـعره الخفيف، كان يغـطّ بنوم عميق، خرجت بهدوء مفتعل كي أبدو شـجاعا، اقترب مني راضي وقلت له: هو فاضل، أطرق برأسه نحو الأرض وبكى، شعرت أنه يقاوم نفسه بعنف ليمنعها من الصراخ ولم يقو بكاؤه الصامت على إشـباع حزنه الكبير، دموعه لم تكف ألمه، أما قطراتها التي سقطت على وجنتيه فكانت جزءا من نهر كبير يمتدّ على مساحة روحه.

فـسّر البعـض بقاء جثّة فاضـل في الأرض الحرام أن أصحابه امتنعـوا عن المخاطرة بأرواحهـم والمغامرة بسـحب جثتـه من الأرض الحـرام، فالجثّة مرصـودة من قبل الإيرانيـين، والاقـتراب منهـا يعني الموت، وقال آخـرون إن امتناعهم لم يكن بسـبب الخوف بل لكرههم لفاضل بسبب شدّة إيمانه بعقيدة البعث وشراسته في مواجهة غير المؤمنين بها أو المعارضين لها، لذلك ذهب شقيقه الى وحدة أخيه الميت وهدّد بايصال الأمـر الى جهـات عليا فيما لو بقيت جثة شـقيقه مرميّة في العـراء، ورضخ الضباط واستعادوا الجثّة بالتعاون مع شقيقه. وبغضّ النظر عن أسباب رفض وحدة فاضل اسـتعادة جثّته، فان كون هذا الكلام مجرد إشـاعة بثّت في المنطقة فانها تعكس نوعا من التمنّي بل وربما التشفي به، بسبب صدق إيمان فاضل بالبعث.

حيـاة فاضل وسـط حينا وعلاقتـه مع محيطه التـي تذبذبت بين التّقبّـل والإعجاب والرفض ثم الاستنكار، هي بمعنى من المعاني تعبّر عن العلاقة بين البعث والمجتمع، كان فاضل في شبابه إبان سبعينيات القرن الماضي يحظى بإعجاب أقرانه من الشباب، الذين وإن لم يعبّروا عن ذلك أمامه لكنهم لم يخفوه بعيدا عنه، كان صادقا في عقيدته السياسيّة، ومنتظما في نشاطه الحزبي وفاعلا فيه. ولم يكن البعث خلال السبعينيات قد فعل بالناس ما فعل بعدها من جرائم ومجازر وأخطاء، وبغض النظر عن النخب والأحزاب السياسية المعارضة، كان البعث يحظى بنوع من التّقبّل الشعبي، وأضافت

له السـلطة التي تربّع عليها، سببا آخر للانتشار والتّوسّع، لم يكن البعث نخبويا ولا أتباعـه خياليين أو متعالين عـلى الناس، ربما عرف الكثير من النـاس حقيقة البعث وطبيعة فكره الشمولي والأرهابي قبل أن يصل للسلطة، لكن هؤلاء العارفين كانوا قلّة قليلة، أما الأكثرية فكانت لا ترى فكر البعث وممارسـاته التي انكشفت بمرور الأيام أو تغيّرت على يد قيادات ما بعد السـلطة، وهناك من قال إن البعثيين من غير القادة كانوا بعد فترة ليسـت بالقليلة من توليهم السلطة عام 1968 «يخجلون» من كونهم حزبـا حاكمـا، ويتعاملون مع الناس بنـوع من الاحترام والتّـودّد، ولذلك كان الكثير من قادة البعث قد عارضوا صدام حسـين بعد أن وصل للسـلطة أو قبل ذلك بسـبب ترفه وعيشـه الباذخ، وربما كان علي صالح السعدي القيادي البعثي الكبير أشهر من استنكر على صدام حياة الترف والثراء التي يعيشها لكنه لم يكن الوحيد .

هـل يمكن أن تكـون علاقة فاضل بأهل منطقتـه صورة مصغّرة عـن علاقة البعث بالمجتمع؟ وهل يمكن فهم الفجوة بين حزب حاكم وشـعب محكوم من خلال علاقة شـاب بعثي بمحيطه الاجتماعي؟ سأرد بالإيجاب وأسمح لنفسي أن تمضي وراء هذه الفرضيـة، ومعها سـأحاول أن الملم ذاكرتي واتوسـع فيها لكي أبعـد عن نفسي أي مشـاعر غضب أو رفض أو اسـتنكار تركها تاريخ طويل من القمع والتنكيل مورس بحـقّ النـاس دون رحمة من قبل البعث. وأنا أكتب ما تمليـه علي ذاكرتي أجد نفسي ملزما بأن اعتذر مسبقا لكلّ من ظلّ حبّه لفاضل كبيرا وصادقا، اعتذر لأرواح راضي، وهندازة، ولشـقيقه، وشقيقاته على نكئي لجراحهم التي طوتها السنوات عقب مقتله وحملت الكثير من الأحداث الحزينة والهموم الكبيرة.

هل ظلّت مشاعر الناس تجاه فاضل على حالها في كل فترات حياته؟ سأكذب بالتأكيد حين أقول إنها فعلا بقيت على حالها، أبدا، لم يبق نسيج الجدل والحوار والاختلاف بين فاضـل ومعارضي فكره الحزبي على ذات المنوال، فاذا كانت الناس وخاصة الأصدقاء والجيران في أواسـط السـبعينيات لا تتردّد في الكلام الصريح والصادق وهي تعبر عن أفكارهـا بلغة صريحة أمام شـاب بعثي، فإنها ومع مرور الأيـام تحوّلت الى كائنات

مرعوبة من فكرة أن تجادل بعثيا في عقيدته وفي أخطاء حزبه فضلا عن جرائمه.
من جانبه انتقل البعث أيضا من مرحلة الشباب الى مرحلة صلابة الرجولة وحدّتها، ومن الخجل لكونه حزبا حاكما الى غلاظة القتل الجماعي من أجل الحفاظ على سلطته. لقد تبدّلت مشاعر الطرفين وأدوارهم، فخجل البعثي أصبح «صلافة» واستهتارا، وصراحة الناس مع البعثي انتهت وحلّ بدلها الرعب.
ولأنّ الناس قد شاهدت تحوّل البعث الى أداة للقمع يسخره صدام حسين وفق ما يشتهي وحده، فإنها أيقنت أن الركون الى الثقة المسبّقة بالبعثي هو نوع من المخاطرة يصعب توقع نتائجها. وفي قصة فاضل مع الموت سيكون تمني مصيرا للبعث مشابها لمصير فاضل شيئا مفهوما ومتوقعا.

جيل الثورة

البعثي الحقيقي لا يأمن لأي شـخص تشـكل فكريا قبل الثلاثين من تموز عام 1968.

كنعان مكية

كتابه « القسوة والصمت»

أطلـق حـزب البعث على من ولد عام 1968، تسـمية «جيل الثورة»، كانت التسـمية حقيقيّـة، ليس من زاويـة البعث «التعبويّـة»، التي حاول من خلالهـا تكريس هذه الصفـة عـبر أدبياته، بل كانت التسـمية حقيقيّة من وجهة نظر الجيل نفسـه، جيل 1968 عاش في عهد الشموليّة، وتربّى على أحاديّة الحزب، والقائد، والفكر السياسي، والإعلام، وتعاطى مع التعدديّة التي زخر بها العراق على أنها جزء مهمل أو مرفوض

مــن الماضي، وأن عليه أن يتعامل معها بالكثير من عدم الاكتراث. جيل 68 لم يشــهد ممثلا في المسرح الســياسي ســوى البعث، ولم يدرس الحياة السياســية التي ســبقت 1968 إلا باعتبارها مرتعا للصــوص، والعملاء، والخونة، الذين تطهّرت منهم البلاد على يد البعث.

أما التعدديّة فقد تلاشــت أمام سطوة المركزية العربية، و»القطر العراقي» لا يعرف إلا بانه جزء من الأمة العربية وعليه أن يسخّر إمكاناته المادية والبشرية لخدمة هدف الوحدة العربية المقدس، لم نســتهجن فكرة أن على الجميع من غير العرب أن يلحقوا بركــب العروبة مقدمين ولاءهم المطلق لســلطتها، لقد أُهمــل كل ما هو غير عربي أو اعتبر زائدة دوديــة تركتها الجغرافية، والهجرات، والحروب على نقاء عروبة العراق، ولم يعد انتماء الكردي أو التركماني الى حزب عربي، عنصري في اســمه، و شــعاره، وخطابه، وفكره، وممارســته، مســتهجنا أو غريبا، كان على الداخلين لحظيرة الفكر البعثــي الشــوفيني أن يتنكروا لعرقهم وقوميتهم، كنا نضــع الأصل العربي النقي في مــكان مقدس ومركــزي ونعتبره معيارا تقــاس على ضوئه درجــة الوطنية، والولاء، والاخــلاص. لقــد سرت روح حزب البعث التــي تعامل بها مع الكــرد في دماء الجيل العربي، «جيل الثورة»، ورسمت العنصرية البعثية صورة الأكراد في أذهان هذا الجيل بأنهم يكرهون العراق، و يتوارثون التآمر عليه جيلا بعد آخر، وبســبب انفصاليتهم وســعيهم لتمزيــق وحــدة العراق كانــت جرائم القتــل، والنفي، والتطهــير العرقي، والتغييب، التي أذاقتهم إياها الســلطات المتعاقبة, مستحقة، أو مبرّرة، أو مقبولة، أو مفهومــة، أكثر مما هي مدانة ومرفوضة. أضاع جيل 1968 بوصلة الحقيقة والحقّ، بعد أن زرعت فيه الكثير من بذور التطرف، والعنصرية، والغرور القومي البليد.

أمــا أنظمة الحكم التي ســبقت البعث فقد عدّها خطاب الســلطة متخلفة، ومتآمرة، بدءا من النظام الملكي الذي وصف بالرجعية وصنيعة الاســتعمار، مرورا بــ«قاســم الدكتاتور»، والأخوة عارف وخاصة عبد الســلام «المتآمــر الكبير والانقلابي الرذيل». والغريــب أنّ مناهــج دراســة تاريخ العــراق الحديــث في جميع مراحل الدراســة لم

«تمتدح» أو «تستحسن» أو «تثني» على أي نشاط أو حركة قامت بها السلطات أو حتى القوى المعارضة لها التي سبقت البعث، وباستثناء انقلاب رشيد عالي الكيلاني لم يقع أي فعل يستحق أن يدرسه التلميذ وهو يعيد شريط نصف قرن كامل سبق وصول البعث الى السلطة. على جيل الثورة إذن أن يعيد اكتشاف بلده من خلال فكر موغل بالعنصرية، وتمجيد الذات، ويضع عيون البعث بديلا عن عيونه.

أما الأنظمة العربية فلست أعرف نظاما واحدا لم يكن في يوم من الأيام عدوّا لدودا لـ«العراق» . ولا زالت أوصاف البعث السلبية للأنظمة العربية عالقة في ذهني، فحافظ الأسد سمّي بالخائن وببائع الجولان، أما الملك حسين فقد تربّع لفترات طويلة على «عرش الخيانة»، في حين احتلّ السادات صدارة الترتيب في الخيانة فهو «أبو رغال العصر». كانت كلمة «الخيانة» هي الأكثر تداولا في خطاب البعث، حتى بدت رخيصة وممجوجة لحدود كبيرة. وحين وقعت الحرب مع ايران احتفظ حافظ الأسد وحده باللقب فهو الوحيد الذي لم يقف مع العراق، أما آلاخرون، من عرب الخليج الى بربر المحيط فلم تطلهم نيران التخوين والتجريم، ولكن حافظ من دونهم احتفظ بلقب الخائن حتى أن إلحاق كلمة الخائن باسمه بدا وكأنه فعل «طبيعي» ويخرج أحيانا بشكل عفوي حتى من قبل الناس العاديين وفي لحظاتهم الحميمة. كان جار لنا على علاقة حبّ مع فتاة في المنطقة، وصلت الأمور بينهما الى درب مسدود، فقد عرفت الفتاة أن حبيبها «العوبان» وأن أجندة حبيباته لا تضمّ اسمها فقط بل هناك كثيرات سواها، وكلّما طلب منها الصفح والغفران، جاءه الرفض مشفوعا بكلمة خائن، وفي يوم ما وجد نفسه مضطرا الى إيقاف شقيقتها في الشارع طالبا منها التوسط بالصلح، فردت عليه بثقة تامة : «خائن»، فصرخ صاحبنا:

ـــ شنو القصة؟ خائن، خائن، يا هو اللي يحچي ويای يگول خائن، حافظ الأسد آني؟

وبالعودة الى الشخصيات الكبيرة من الخارجين عن ربقة البعث فقد رسمت لهم أجهزة إعلامه صورا متعددة لكنها لم تخرج عن أوصاف العدو الشرير، فهم خونة،

أو مندسـون، أو شـعوبيون، أو متآمـرون. باقـر الصدر، ملا مصطفـى البارزاني، الجواهـري، فهد، عبد الرحمن البزاز، وغيرهم، كانوا بنظـر البعث أعداء للوطن. لقد وجدنـا، نحن جيل 1968 أنفسـنا في متحف العداء والتخوين، لم نسـمع صوتا غير صوت البعث، ولم نع أي حقيقة غير تلك التي ربّتنا عليها شموليته، تشكل وعينا على فكر البعث و»مبادئه». لا دخل لي هنا بالزمن الذي يقطعه أبناء ذلك الجيل من أجل الوصـول الى حقيقـة البعث وفكره، بل اتحدّث عن الثمن الذي دفعه من أجل أن يرى شـيئا آخر في الأفق غير الـذي انعكس على حياته وفكره هو كجيـل، فاذا كان البعث يتحـدّث عن «الزمن» باعتباره معيارا لتمييز الأجيال الثورية عن سـواها، فان الجيل نفسـه يتحدّث عن «الثمن» الذي دفعه لاكتشـاف الخديعة التي مورست عليه، وبين «الزمـن» و«الثمن» اختلاف جوهـري. هو، وأعني البعث، يتحـدّث عن نقاوة الجيل وثوريته، عن «الضحية» التي توارت خلف هيجان فكره، والجيل نفسـه يتحدّث عن «التضحية» التي دفعها ليكتشف ما وراء فكر البعث ولغته الرومانسية المخادعة من حقائق وأكاذيب، كان جيل 68 هو «الجيل الضحية» و«جيل التضحية».

في تموز عام 1986، وهو الذي بلغ فيه مواليد 1968 عامهم الثامن عشر، كتب رئيس تحريـر مجلة «ألـف باء» الحكومية، افتتاحية العدد تحت عنـوان «جيل الثورة» قال فيها:

«إن خريجـي هذا العام الذين يدخلون بعد أشـهر المرحلـة الجامعية، هم من مواليد العام الذي قامت فيه ثورة 17 ـ 30 تموز الخالدة، فعاشوا كلّ سنوات عمرهم في ظلّ الثـورة، ونهلوا من مبادئها، وتمتّعوا بخيراتها، ولـم يتغنوا بقصائد غير التي تتغنى بهـا، وعلى هؤلاء تقع أعباء إضافية، هي الدفـاع عن الثورة وحمايتها وصيانتها، وقد أثبت طلبتنا، أنهم أهل لهذه المسـؤولية، فبارك الله فيهم وهم يبدؤون مرحلة جديدة من حياتهم، ليتسـلّموا الراية من الجيل الذي عاش سـنوات ما قبل الثورة، وعانى ما عاناه في العهود السوداء، وكافح، وناضل، وضحّى، وفجّر الثورة لتكون خيمة تعيش في ظلّهـا أجيال جديدة، وتحية للثورة الخالدة التي نحتفل بذكراها الأسـبوع المقبل،

وتحية لقائدها العظيم صدام حسين»[5].

لـم يكذب هـذا الصحفي البعثي في مقالتـه، فحين كان علينـا أن نتغنّى بقصائد، لم نجد غير شـعر البعث وأدبه وأغانيه، لم نردّد سـوى ما يطلب منا أن نردّده، رافضين «العهود السود» كما يسمّيها الصحفي البعثي، يفتخر البعث بشموليته، بل ويعتبرها أسـمى أهداف سياسـته، لذلك لـم يترك حـدودا فاصلة بين سـلطته وحرية الناس، فالحرية بالنسـبة للبعـث كانت شرّا يجب أن يحارب بكلّ قـوّة، لقد انحصرت مهمة البعث الأساسية في «إعادة صياغة الإنسان»، وهذه من أوضح مبادئه وأكثر بديهياته الفكرية التي يدافع عنها بدل أن يخجل منها، وللأسف كان جيل 1968 هو أول من أعيدت صياغته.

«العراقـي الجديـد» في خطاب السـلطة هو الثـوري، الوطني، المضحّـي، المدافع عن الثورة، وكان هو في الواقع الإنسـان المهان، المسـتلب، المرعوب من السلطة والخاضع لهـا بـكل جوارحه، لقد أعيدت صياغتنا على شـكل روح خاضعـة، خائفة، ومرتعبة من السـلطة، ومن المجتمع، لقد خلقنا طائعـين ومنقادين، لا أدري حتى اليوم حجم خسـائر «جيل الثورة»، هل هي السـنوات التي انقضت بين «فوبيا» السلطة والسعي اليومي الحثيث للانصياع لها والإمسـاك بخيط رضاهـا وعفوها؟ هل هي التخاريف التـي أنهكـت عقولنا ومنعت عنا فرص الحياة بشـكل طبيعي، بعيـدا عن التجييش وتغييـب الوعـي؟ هل هي فقدان فرص التعلّم والتربية المتحـضّرة ؟ هل هي الكرامة المهدورة؟ هل هي الأرواح التي أزهقت على يد السلطة ؟ هل هي الملايين التي تحطّمت بسبب اليتم والفقر والجهل؟ هل هي العراق التائه مجهول المصير؟

---

٥ ـ مجلة ألف باء / العدد ٩٢٨ ـ ٩ تموز ١٩٨٦.

أحزان الحرب

رسالة تطوّع

سـيدي القائد العظيم صدام حسين المجاهد الأكبر في سـبيل الحق والعدل رئيس الجمهورية العراقية حرسـه اللّه من كل سوء.

أريد أن أكون معكـم جنديا بلباس جندي وحربة جندي، وأن أسـاهم بعمل ما، مهما قلّ، لأشـفي غيظي، ولكي يعود الهدوء الى نفسي.

أريد أن أكون معكم لأرى بشـائر النصـر رأي العين، أما إذا كان لا بـد من الموت، فلمـاذا نموت جبناء ؟ ما أحقر الحياة بعدكم.

أريد أن أكون معكم لأركض مع الأطفال الى حيث يسقط الوحـش «الفانتـوم» لاتفرج معهم علـى الوحش وهو يلفظ أنفاسـه الأخيرة. أريد أن أكون معكم «لأهوِس» وأرقص مع الرجال والشيوخ حين يرونك ويبتهجون.

أريـد أن أكـون معكـم لأزغرد مع النسـوة وهـن يرين نسورنا تنقضّ على الغربان والعقبان فترديها في أعالي السماء .

فهلا حقّقت هذه الأمنية لعراقي أحبّك بعد أن آمن بك.

أحد جنودك ورعاياك المخلصين.

ذو النون ايوب

1980 / 10 /1

فيينا / النمسا

كتابه « صدام والتنين»

كان لي ثلاثة أشـقاء مضوا الى جبهات الحرب مع إيران بعد شهور قليلة من بدايتها، حزن أمي عليهم لا يشـبه حزننا أبدا، تبكي وهي تردّد شـعرا يحكي لهفتها عليهم، كانوا مغنمها الوحيد في عالم شحيح كما تقول لحظة استذكارهم، حين ينضب الشعر تنضب دموعها، وتمسـح بفوطتها الخشـنة آثار دمعها من على خدّها، تهزأ من الأكل والماء، ولطالما رأيتها وهي تنظر لصحن الطعام بعين الساخر من لذته، وعندما يأتي أحدهم في إجازته الشـهرية، تبـدو وكأنّها راقصة بالية، رشـيقة، بفعل الفرح الذي يـدبّ في عروقها، يتبـدّل دمها، ولونهـا، ويغدو صوتها رقيقا كصـوت أميرة، تطبخ دجاجـة كانت قد نذرتها للإله حين تراهم. لكن عمـر فرحتها كان قصيرا، لا يتعدّى أيام إجازاتهم الشهرية، وحين يعودون الى ساحة الحرب تعود لتمارس طقوس عبادة الحـزن، كانت مفزوعة من احتمال تلقّيها خبر موتهم، وتسـأل مسـتغربة، ترى هل يمكن أن يتركهم الموت؟ هي أشبه بمن يتوسّل هدية من لئيم، تارة تساوم ملك الموت بروحهـا، تخاطبه كأنّه يجلس قبالتها، اتركهم أحياء وخذ مني حياتي، دعهم يكملوا رحلة شـبابهم، تذكره أن كلّ واحد منهم أعطاه لها ولي من الأولياء، أحدهم كان هبة «أبو اليمة»، والآخر وهبه لها «أبو الجوادين»، والثالث كان من «أبو الفضل».

كانت تحفظ أسماء وحداتهم العسكرية، وحين يقع هجوم في جبهات الحرب، تجلس أمام التلفزيون لتسـتمع للأخبار وهي لا تتعدّى بيانا أو أكثر تصدره القيادة العامة للقوات المسـلحة، يصوغه صدام حسين بنفسه وخاصة في المعارك الكبيرة والحاسمة، كان تركيزها ينصب على أسـماء الوحدات التي تشـارك في المعركة وحين يذكر البيان اسم وحداتهم العسكرية، تلجأ الى الدعاء من الله أن يحفظهم ولا تنسى أن تتوسّل به لينهي حياة صدام حسين بأبشع طريقة، ما تقوم به نهارا، تعيده ليلا، البكاء.

وحـين أجد أمي وسـط لوعتها، أترك المنزل، وفي مرات كثيرة كنت أمشي في الشـوارع دون هدف، ألوذ بهروبي من حزنها عسى أن أنسى ألمي عليها، لكني أظلّ أحوم حولها في خيالي، وكثيرا ما سألت نفسي ماذا لو لم يكن لها أولاد؟ ألم تكن حياتها أفضل من دونهم؟ في تلك الأيام تشـكّلت الكثير مـن تفاصيل روحي، فمضت على غير ما يجري

عليه مســار الطفولة، لم أعد مشــغولا بمكرها ولهوها، ولست معنيا بإعادة اكتشاف العلاقة بين جســدي والعالم الخارجي، بين الأنثــى والذكر، أو بين العبد والمعبود، بل تمضي نحو أســئلة شــائكة تتعلق بالوجود، بالإله الذي تركنا نبحر في بحر عاصف، بالعدالة التي بحثنا عنها طويلا ولم نجد لها أثرا.

حين أوشــكت الحرب مع إيــران على نهايتها جاء لأمي من يخبرهــا أن ولدها «فلاح» فــقــد في معركة حلبجة، وكان ذلــك في آذار من العام 1988، تاركا لها أربعة أحفاد، ثــلاث بنات وولد، هو الأصغر، أضاف أحفادها لأرض حزنها الكثير من أنهار الدمع، فاســتعدت لمعركــة البــكاء الطويل، كانــت تضعهم حولهــا وكأنّها تريد أن تغســل أجسادهم الغضة بماء عيونها، ليس صدام حسين وحده من تحمله المسؤولية، وتصبّ عليه اللعنات في ما حلّ بها من مصائب، كانت ترمي السماء والأرض بنيران أسئلتها، على أنها اهتدت أخيرا الى ســبب جديد وراء مصيبتها وهو تخمير الطرشي الذي قامت به كنّاتها ولأول مرة قبل أيام من خبر فقدان ولدها، فهي تعتقده ســبب المصيبة، هو الذي أفقدها ولدها، لوثت نجاسة التخمير بيتها فحلّت عليه لعنة الربّ، وقع المحظور، وفقد ولدها تاركا لها أربعة يتامى.

كان الأمــل بنجاتــه أقرب الى المحال، فــاذا كان ملك الموت قد أخطــأه عشرات المرات في المعــارك «العادية» فكيــف يمكن أن ينجو من رائحة الكيمــاوي ونيرانه؟ الحديث عن حلبجة شــغل العالم يومها، حيث جرت فيها مذبحــة كبرى قتل خلالها أكثر من خمسة آلاف إنسان بعد أن ألقى عليها «علي حسن المجيد» أسلحته الكيمياوية، وسمّي بعدها بـــ «علي كيماوي»، ومن المفترض أن يكون فلاح وسطها، ومع هذا الخبر الأليم، توقف حظّها عن العمل، وهو الذي وقف معها ثماني ســنوات، لقد أصيبت هذه المرة «بصاحب الأولاد» كما تسميه، كانت تدخّن بشراهة، واكتفت بالسيكارة غذاء وصديقا، جفّ بلعومها، وتغيّر صوتها، وبدت «البحة» فيه قاسية قبل أن تفقده لما بقي لها من سنوات، ظلت تداوي حزنها بالصمت، رافضة الطبيب والدواء حتى تبيّن أنها مصابة بسرطان الحنجرة، اكتشــف المرض في مراحل يمكن فيها إيقاف تدهوره والســيطرة

عليه، قرّر الطبيب المعالج إجراء تداخل جراحي طالبا منا إدخالها الى مستشفى مدينة الطبّ لإجراء العملية، أدخلت المستشفى وأجريت لها الفحوصات قبل يوم واحد فقط مـن الجراحـة، قال الطبيب إن صوتها سـينحبس بعد العملية، جـرت الأمور على ما يـرام لكنهـا في اللحظات الأخيرة رفضت إكمال المهمة، اعتقدنا أننا سـننجح في ثنيها عن قرارها معتبرين أن خوفها هو سـبب رفضها، ومع مرور الوقت اكتشـفنا وهمنا، فلـم تنجح معها توسـلاتنا وضغوطنـا، إصرارها على الرفض كان شـديدا، قالت ما الفائدة؟ وكأنّها لا تريد أن تتحمّل المزيد من الألم، لقد شـبعت منه تماما، رفعت راية استسلامها دون خوف وتردّد، احتجاجها على هذا العالم كان بحجم رفضها لطريقة الحياة الحزينة التي عاشتها، استفحل المرض وانسحبت من مواجهته.

بعد أشـهر رضخت أخيرا لرغباتنا الملحّة بقبول العلاج الكيماوي، لكن المرض تمكّن منها، اسـتلقت على الفراش أكثر من سـتة أشـهر لا تنام من دون أن تضع حفيدها «محمـد» الذي لم يتعـدّ الثالثة من عمره بجنبها، كان ينتـشي بقربه منها، وكثيرا ما رأيتها وهي تنظر له بصمت وتبتسـم، تلاعبه وتحدثه وكأنّها معافاة من كل مرض، وفي النهايـة ثقب المرض جلدها، وبانت أحشـاء رقبتها، ولم تقو على الأكل أو الكلام، وما بقي من لحمها لم يكن سوى نصف ما كانت عليه قبل المرض، وفي فجر الحادي والعشرين من آب عام 1990، وحينها بدأت طبول حرب الكويت تقرع، ودعت حياتها، رحلت وتركتنا نواجه فصلا جديدا من فصول مصيرنا دون دمعها ونذورها.

قرب الحدود

إذا كان أغنى الأغنياء في العام 1958 هم - في الأغلب - من الشيعة فكذلك كان أيضا أفقر الفقراء، وخصوصا أولئك المئة ألف، أو ما يقرب من ذلك، من « الشروقيين» - أي الشرقيين - المهاجرين من لواء العمارة العشائري، والذين كانت «صرائفهم» أو أكواخهم الطينية، تتداخل مع المنظر الطبيعي لبغداد الكبرى. وكان بؤس هؤلاء المفجع، بلا شك، عاملا من عوامل المرارة الكثيفة التي أدت الى الهيجان الجماهيري الذي أطبق على العاصمة العراقية يوم ثورة 14 تموز 1958.

حنا بطاطو

العراق : الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية

الكتاب الأول

نـزح والدي ومعه أمـي وطفلاهما الاثنان في العام 1957 من ريف محافظة واسـط الى بغـداد، كانت قريتهم قريبة من الحدود مع إيـران، لا يجيد أبي القراءة والكتابة، ولا يتقـن مهنـة يقارع بها رغيـف الخبز في مدينة ترك من أجـل العيش فيها زرعه، وأهله، وعشيرته، ووجد نفسه محشورا في إتونها وصخبها. وأشبه بمنفيين من أرض بعيدة، سـكن أبـي وأمي بعد وصولهما الى العاصمة في «عرصـة» بمنطقة العطيفية ثم انتقلوا بعد أشـهر الى بارك السـعدون ثم الى النعيرية والكيارة في بغداد الجديدة، ولأنّ حياتهم هي عبارة عن ملء فراغات، كانوا يبنون خرائبهم حيثما شـاهدوا أرضاً فارغة، إنّهم طارئون منذ أن ولدوا، يشبهون أجدادهم البدو الذين عاشوا قبل عصور الملكية الخاصة، على هبات الطبيعة والسلطان تتشكّل حياتهم.

رحلتهم الشاقة نحو المال حرمتهم من حياتهم الريفية البسيطة، فدفعهم فقرهم المدقع لطرق أبواب مدن لا ترحم، المهاجرون، ومنهم أبي، سرعان ما عرفوا أن شوارع المدينة أقـسى من أرض الريف. المدينة تغلق طرقها أمام أمانيهـم. ظلّت همومهم وأحزانهم تدور حول قسـوة المدينة وبسـببها، يصعـب على المهاجرين فهـم تقلباتها وتمنّعها، فهي تتلوّى قبالتهم مثل أفعى وتتغنّج مثل غانية، الخوف منها واشـتهاؤها يسكنان أرواح القادمـين اليها مـن الريف، ويتبدّى خوفهم من خـلال النظر الى الأماكن التي يختارونها للسكن في العاصمة، فهم يلقون رحالهم ويستقرون في أول حي يصادفهم من أحيائها، إنهم يخافون أعماقها، ويخشـون مركزها المخصص للأغنياء، فيلوذون بالأطـراف، فهي تقيهم شرورهـا، المهاجرون من الجنوب ومنهم والدي اسـتقروا في أحياء بغداد التي تقع في مدخل المدينة، مكتفين بهذا الحدّ من المواجهة معها.

قبل أن ينتقل والدي من قريته الحدودية الى بغداد بسنوات، ارتكب جريمة، ظلّ نادما عليها ما بقي من عمره، قتل أحد أقاربه، بسبب عرف عشائري موغل بالهمجية، فقد رغب القتيل أن يزوج إحدى بناته لرجل تطعن العشـيرة في أصله العربي، كان كرديا لا يعلـن ذلك، ولأنّ العرق العربي في نظر العشـيرة أطهـر، وأعلى قيمة ودرجة، اعتبر رجالها هذا الزواج إهانة لهم، برغم أنّ العشيرة نفسها هي خليط من بيوتات وأفخاذ

ربما لن تجد لها جَدّا أو أصلا مشتركا، لكنهم لم يجادلوا في هويّتها العربية في العلن، كانوا قد حسموا إيمانهم بعرقهم العربي. المهم، كان القتيل شخصا شجاعا، وجريئا، وطالما سـمعت أمي وهي تمتدح شـجاعته النادرة، تقول إن قتلته وهما عمي ووالدي لم يكونا قادرين على مواجهته.

كان أبي وهو يتحدّث عن الجريمة لا ينسى سبّ أحد أقاربه بسبب تحريضه لهم وهم شباب صغار السن، على الثأر من ما فعل مع عائلتهم، فحين قرّر القتيل تزويج ابنته لخطيبها، هجم على منزله عدد من رجال العشيرة، وارتكبوا بحقّ عائلته أفعالا شنيعة، اعتدوا على النساء بغياب الرجال وأهانوهن شرّ إهانة وقتلوا عددا من أغنامه، فاضطر الى الرحيل عن القرية، وحين اسـتقر في مكانه الجديد، قرّر الثأر من أبناء عشـيرته، فهجـم في الليـل على قريتهم، وكان من سـوء حظّ عائلة والـدي أن تتلقّى الضربة في أغنامها وفرسها، فكان غضبهم شديدا، لأنهم لم يشاركوا العشيرة في اعتدائها المشين على منزله، فقد حبسهم والدهم في البيت وهم ثلاثة أشقاء، كانت العشيرة تعرف بمنع جدي لأولاده، ولكنهم ومع تلقيهم للضربة وجدوا أنفسهم مظلومين ومهانين، فقالوا، لقد ترك المجرمين وضرب الأبرياء.

كان الضحيـة يـتردّد عـلى ناحية جصان وهي تفصل بين سـكنه الـذي اختاره بعد أن ترك عشـيرته وبين قرية أقاربه، وشاء سـوء حظه أن يشاهده «المحرّض» فأسرع لوالدي وأخبره بما شاهد، فأخذ والدي ومعه شقيقه الأكبر السلاح، وجلسوا في حفرة عـلى الطريـق، وحين اقترب منهم الضحية وصار في مرمـى الرصاص، لم يملك عمي أعصابه فرمى بنفسـه على والدي ليمنعه من القتل، وتوسـل بأبي أن يتركه، فوجّه له والدي ضربة بأخمص «البرنو» على رأسـه ورماه مغشـيّا عليه، بـرز للقتيل، وأطلق عليـه الرصاص، كانت «آنـة عمكم» هي آخر كلمة خرجت من فـم القتيل. وكثيرا ما تؤلـم أمي هذه الكلمة حـين تتذكر الحادث، وهي ترويها باسـتمرار وخاصة بغياب والدي، الذي كان شحيحا جدا في روايتها، فلم أسمعها منه سوى مرتين أو ثلاث، وكنا بدورنا نتحاشى تذكيره بها، هرب والدي الى أحد الإقطاعيين المتنفذين لدى السـلطة،

وألقي القبض على عمّي وقريب لهما هو ابن خالهم، وزجّ بهم في سجن الكوت، وطبقا للعادة، جلست العائلتان الى الفصل العشائري، سوّيت القضية بأن يزوج جدي ابنته الوحيدة المتبقية، وأخرى تعود له بصلة قرابة، لأولاد القتيل، وأن يدفع لهم مبلغا من المال، وخرج المتهمان بعد أشهر من السجن، كانت العائلتان اللتان تشكلتا عن زواج» الفصل العشــائري» هما الأقرب الى نفسي من بين أقاربي، وأحببت أبناء عمتي حبّا لا حدّ له، كانت جريمة أعقبت حبّا وتســامحا لا ثأرا وكراهية. وســأبدو قاســيا لو قلت إني في الحبّ الذي يجمع بيني وبين أبناء عمتي قد أكون شــاكرا لوالدي على صنيعته في سري، لكن الحقيقة الأكيدة أن قتل إنســان لا تبرّره أي نتيجة أو نهاية، فهو مدان بصرف النظر عن أي ظرف أو سبب أو نتيجة.

عاش والدي وعائلته نصف حياته في بيوت من الطين وفي نصفها الآخر كان يعمل في الطين، ورغم وقوعه في طرف من آخر أطراف بغداد إلا أنه وبعد سنوات طويلة امتلك أول بيت طابوق و»طابو» في منطقة الكمالية.

ليســت أطراف الأطراف هي فقط قصة عيش أبدانهم، بل هي ايضا أماكن أحلامهم، فهــم فقراء معدمون، جلّ أمانيهــم أن يكفوا مؤونتهم ويبعدوا عن أنفســهم تطرف الجوع وكفره، وحين اســتقروا في بيت الطابوق سرعان ما حولوه الى مفقس أطفال، عاش منهم ثمانية ومات نصف هذا العدد.

ترك أبي عمله كأجير يومي، ودخل ســلك العمل في الدولة بعنوان ســاعي (فراش) في أمانة العاصمة، نزع عقاله ودشداشــته وارتدى ثياب الأفندية، وبوظيفته و»أفنديته» انتصر على المدينة وعنادها أو ربما خضع لسلطتها وجبروتها.

البيت من غرفتين تقاومان البرد والحرّ بإصرار، كنّا خمسة أولاد وثلاث بنات، كبراهن تزوّجت قبل ولادتي، حبّه لنا كان خفيا، يمارســه باقتصاد في الكلمات وشــّح بالقبل واللهو، لم يكن عنيفا ولا يعرف لغة الصفعات، حين يعود من عمله في أمانة العاصمة كان يبيع المشويات في بسطية تجاور مقهى قريبا من بيتنا يسمى مقهى «ابو حسن».

اختــار العمل جوار المقهى ليس فقط لكثرة المشــترين مــن رواد المقهى بل لأنه يتيح

له فرصة ممارســة لعبة «الدومنة» التي يحبّها بشكل لافت ويهوى معها أيضا اقتناء بطاقة اليانصيب.

كان «حســين الحمزة» صديقه المقرب مهووســا مثله بشراء بطاقات اليانصيب بكل أنواعهــا، وشريكا له في بســطية «التكة»، ضحك الحظ لحســين الحمزة فربح بطاقة يانصيــب وكان ذلك مطلــع العام 1979، لا أدري كم كان المبلــغ، إلا ان حلمه بشراء قطعة أرض تحقّق، كانت أوراق اليانصيب تشعل بيتنا كلّ يوم، لم تكن أمي مقتنعة بهــذا الهوس الذي يرهق ميزانيــة العائلة، وتعيبه عليه، كانــت تفتش جيوبه، وكلّما شــاهدت رزمة أوراق اليانصيب ولم يكن ليكتفي بواحدة، تزداد غضبا وانفعالا. وفي نهاية العام 1981 ابتســم الحظّ له، فربح بطاقة الرافدين، كان المبلغ 6 آلاف دينار، وهو كبير بأســعار تلك الأيام، الســتة آلاف دينار أســكتت أمي ســتة آلاف يوم، أبقى والدي الأمر سرّا، إلا أن شراء تلفزيون ملون و»كاونتر» وطقم كراسي وسجادة في يوم واحــد، فضحه، فلم يعد معقولا أن يقول إن هذا الأثــاث «الباذخ» هو من ذاك الراتب الشحيح، فما اشتراه من أثاث يفضح ما يملك من نقود، كان خوفه من الحسد يدفعه الى الصمــت إلا أن رغبتــه العارمة بتعويــض أيام فقره وبؤس بيتــه دفعاه الى غضّ النظر عن عيون الناس وحسدهم.

كان لمقهى أبو حسن أثر كبير في روحي، فهو الذي حبّب لي الغناء والهيام مع الألحان، حتــى غدا الغناء عشــقي، لم نكن نملك تلفزيونا قبل عــام 1977، ومع تلفزيون ابو حسن توطّدت علاقتي بالغناء، كانت أصوات المطربين تسقي أراضي بعيدة في روحي وتملأها بحزن شفيف لا أملك له تفسيرا ومعنى، كنت أترك تلك الأغاني وهي تأخذني بعيدا عن الأطفال والصبيان وعالمي الصغير، أتركها وهي تســحل خلفها كومة أسئلة عن معنى الحب، والقســوة، والحنان، أســئلة تطاردني بالكثير من الحيرة والنشــوة معا، كنت فرحا بكل هذه الآلات وهي تمارس ســحرها عليّ، تشــدّ، تجذب، تبحر بي، كانت متعة لا تضاهى أعيشــها وحدي، هــي جزء من عالمي الروحي الصغير، لم يكن ابو حســن يسمح للصغار بالجلوس على مصاطب المقهى، فيقفون خلفها، ليشاهدوا

التلفزيون الأســود والأبيــض، كان القليل من الصغار يزورون المقهــى، أما أنا فاتاح لي عمــل أبي أن أخصص جزءا من يومي لتلفزيون المقهى وقليلا ما كنت أســاعده في عمله، ولا أعرف حتى اليوم لماذا أعفاني من دون أخوتي وأبناء عمّي من مهمة إيصال طلبات الزبائن داخل المقهى أو خارجه الا في حالات قليلة، وكانت لهذا الاستثناء فائدة ليست بالقليلة في إشباع نهمي من الأغاني .

في العــام 1978 ومــع بدايــة العطلة الصيفيــة، أخذني أبــي الى دائــرة بلدية بغداد الجديدة، التي يعمل فيها فراشــا للمدير، لأبيع الطوابع البريدية، كنت سعيدا بدوري الذي أمارســه، أجلس فجرا فاستشعر الرجولة وهي تدبّ في عروقي، وفي تلك الدائرة ابتســم لي الحظّ مع الغناء وليس مع المال طبعا، فقد اتاح لي القدر فرصة مشــاهدة المطرب ياس خضر، في ذلك اليوم امتزج الفرح بالحزن، أو بمعنى آخر، انتهى الحزن بالفــرح، فقد بعت طوابــع لرجل بدين وأصلع، أعطاني دينــارا، فأخذته منه وأدرت وجهــي لأبحــث عن «صرف» لــه دون أن أخــبره بمقصدي، إلا انه أمســكني وصرخ بوجهي وهو يهزّني بقوّة، لم أفهم ردّ فعله العنيف إلا متأخرا، فقد ظنّ أني سأهرب بالدينــار، لم أقو على منــع دموعي، أعطيته الدينار وأرجع لي طوابعي، وجلســت في باب الدائرة أبكي، اقترب مني شــخصان؛ أحدهما كان ياس خضر بشــحمه ولحمه، مدّ يده الى شعري وطيب خاطري ببضع كلمات ورويت له ما جرى، ابتسم ومنحني ربع دينار أخضر اللون .

قلت له وأنا فرح برؤيته وبالمبلغ الذي أعطاني إياه: آني أعرفك انت مو ياس خضر؟

قال لي: اي آني ياس خضر.

دخل الدائرة، ومشــيت وراءه، أتامله مليّا، ترى كم مرّة يمكن للقدر أن يمنحني مثل هــذه الفرحــة؟ بقيت اتابع خطواته حتى آخر المطاف حيث اســتقل ســيارة صفراء اللون وابتعد، ظلّت نشــوة اللقاء تمدّني بالكثير من الفرح. لقد منحني دفء التقائي بياس خضر الكثير من الحب للغناء .

يرتاد مقهى «أبو حســن» شــباب الحي وكبار الســن أيضا، بينهم الموظف الحكومي

وعامل البناء، الرياضي والفنان، الأمي والمتعلم، وكنت أشعر بينهم بنوع من الانسجام والألفة، أحبّ أحدهم لاتصاف روحه بالدعابة، ويدهشني آخر بشهرته في لعب كرة القدم بمهارة، واتعاطف مع جمعة وأشقائه الأيتام الذين يحملون صينية «الحب شمس» ليلا ونهارا أمام المقهى. إلا أن أيام الانسجام كانت قصيرة فقد أحالت السياسة والحرب سكينة الناس الى رماد، في الحرب عرفت أنه لا يزال ثمة شيء غير مألوف في هذا العالم، فهو لم يخلق ليشبع رغبات الأطفال، وليعتني بنزواتهم، الحروب والسياسة تستعجل الطفولة، تحثّها على الخطو السريع نحو الرجولة، في الحرب تحولت الأغاني الى أناشيد تمجد الموت ورائحة البارود، ولم تعد ساحات كرة القدم للعب الكرة فقط بل لتحشيد الجماهير، لتشاهد كيف يعدم الهارب من الحرب، أو لتصغي لخطب البعثيين وأوامرهم، ولم يعد المقهى مكانا للراحة والاسترخاء فقد تحوّل الى مخافة بعد أن امتلأ بالجواسيس، صفوف المدرسة تكتظّ بالحزبيين وهم يخططون لمراقبة أهالي الحي، وعلى سبوراتها تكتب مفردات الاجتماع الحزبي لا شخابيط الأطفال، ومع الحرب بدت غايات المكان عرضية وعابرة، وذاكرته ملتبسة. أعطتني ساحة كرة القدم جزءاً آخر من مشهد الموت، وهو يدور هذه المرة ليس بين إرادات البشر والصراع بين أفكارهم، بل بين إرادة الله ورغبات الشيطان، لم أعرف الدين من فتحة العبادة والنسك بل من نافذة الحرب والموت والفتك، المقهى وملعب كرة القدم كانا مفتتحا لمعاني الصراع السياسي والعسكري، وتبدلا من كونهما مكانين للهو واللعب الى مسرحين للصراع وتشابك القوى. حدث هذا الانقلاب في الغاية من ساحة كرة القدم، خلال أيام عاشوراء، كان ذلك في النصف الأول من سبعينيات القرن العشرين، وقبل أن تقرّر حكومة البعث إلغاء مراسم عاشوراء، في ساحة الكرة يجسد أهالي الحي واقعة كربلاء، يصطفّ الجيشان، الأموي والهاشمي، الحسين وأهله وأصحابه وهم بضعة أشخاص يواجههم الآلاف من الجنود، المشهد يخلو من النبل والرحمة، وعلى جانبي الساحة التي يمثل فيها المشهد، تقف مئات الناس وهي تبكي بحرقة، تلطم النساء على صدورها وتصرخ، كنت مشغولا بالحزن الذي يلفّ روحي

وبالألم الذي تركني حائرا وأنا أسبح في أمواج الدموع، كان المشهد مهولا بالنسبة لطفل لا يعرف معنى القتل والذبح، ولا يميّز بين الحق والباطل، وبين الإيمان والكفر، أو بين الشهادة والقتل العادي، دخل الحقد بشكله المقدس والإلهي الى ثنايا روحي، وبدا العالم بالنسبة لي مكانا ليس للحياة بل للموت وانتظاره وتقديسه.

ذاكرة الخوف من الأماكن التي سكنت فيها طفولتي، تتوقف حين أعيد فتحها، أمام بيت حسب الله جارنا البدين ذي الشوارب الهتلرية، كان خزعل شقيق حسب الله مشهورا بين أهالي الحي باعتباره خبيرا في استخراج الجن من أجساد الناس، بيت حسب الله سأظلّ طوال العمر أنظر له بعيون طفولتي، أخافه، أمقته، اتمنى لو لم يكن، لم يتجاوز عمري ثماني سنوات حين سمعت وشاهدت لأول مرّة كيف يصرخ الرجل بشكل هستيري، صراخ سلب مني بلمح البصر كلّ أماني وبراءتي، وجعلني أنظر للشرّ وهو يتلوّى أمامي بعصاه الغليظة، وبعرقه المتصبّب بغزارة، ولهاثه العالي والمتقطع.

وجدت باب حسب الله مفتوحا، وقادتني خطواتي الى مصدر الصراخ، كانت ظهيرة صيف حارّة، مددّت ببصري، شاهدت رجلا مربوطا الى الشباك، نحيفا وبشعر طويل وأشعث يرتدي دشداشة سميكة ورّثة، لا يفصلني عنه سوى أقلّ من متر، وضعني سوء حظي أمام عيون الضحيّة، وفوقها ترتفع يد خزعل الجلاد اليسرى وهي تحمل العصا لتنزل بقوّة على الجسد النحيل، يصرخ المجنون بصوت هستيري، وأشعر أن أعضائي كلّها ترتجف، لم يعبأ خزعل بصراخ الرجل، هو في واد آخر، غير واد الجنّ الذي يسكنه ذلك المسكين، تتوالى ضرباته على ظهر الرجل وأرجله، كان الحبل الذي ربط به المجنون قصيرا فبقي ملتصقا بالشباك، لا يستطيع أن يتمدّد على الأرض، استغرق المشهد ثواني معدودات لكنها تكفي لأن تحفر في طفولتي أخاديد من الدم والألم، هربت مثل الجنّ، ركضت صوب الباب، لم أعد أنظر لبيت حسب الله إلا بعيوني الخائفة التي هربت منه، لم أعد أقوى على النظر الى خزعل، أفرّ مرعوبا منه حين أراه، عيونه بكل التفاتاتها ووحشيتها وحمرتها، هي وحدها التي ارتسمت في خيالي وهي

ما أقوى على تذكره من مشــهد التعذيب اللعين، نســيت شــكل الضحية وبقي الجلاد برائحته، وشهيقه، وتشنجه عالقا في روحي، عشت أكثر من ثلاثة عقود مجاورا لبيت حســب الله ولا يفصلنا ســوى شــارع لا يتعدّى طوله امتارا قليلة لكني أجزم أني لم أدخــل ذلك البيت وان مرّت به الأفراح والأحــزان؛ ولا مرّة واحدة بعد ذلك اليوم، كان بالنسبة لي بيت أشباح رغم طيبة وعفوية أهله.

الكمالية

البـلاد تعتبر حضارية أكثر، بقدر ما هــي طافحة بالقيم الأخلاقية الصحيحة والناجعة، التي تحمي الضعيف لكي لا يصبــح أكثر ضعفــا، وتمنع القوي مــن أن يكون أكثر قوّة.

بريمو ليفي
كتابه « هل هذا هو الإنسان؟»

بسخاء نادر وهبني الحي الذي أسكنه فرصة العيش وسط الغناء والموسيقى، ولكنّه، وبألم أكبر، علّمني أول أشكال الكراهية. للكمالية قصة لا تشبه قصة الأحياء الاخرى في العراق، فيها يسكن أكثر من ألف شخص من الغجر (الكاولية) معزولين في بضعة شوارع في بداية الحي، مسلوبين من حقوق المواطنة. المدارس، والوظائف الحكومية، والتّملّــك، والجنســية حرموا منها عقودا طويلة، ولم يحصلــوا عليها إلا حينما وقعت الحرب مع إيران، فحينها فقط أصبحوا عراقيين وأبيح لهم حق التّملّك، في الموت فقط

فتح لهم الوطن أحضانه.

شكّل الألف غجري جزءا حيويا من المجتمع العراقي، حيث لم تمنعهم قلّة عددهم من البروز بشكل ملفت في الغناء والرقص، يمارسون عملهم في الملاهي، وحفلات الزواج، والختان، ويمتهنون الدعارة أيضا وخاصة في سنوات الثمانينيات حيث راجت مهنتهم هذه بشكل ملفت.

الغجر علامة فارقة في جسد حي يسكنه فقراء شديدو المحافظة، وشمهم كان بارزا، وبالمقابل كان وشم كراهيتهم أكثر سوادا وقتامة، يسهر الحي في الكثير من الليالي على الموسيقى الصاخبة وصوت المطربات ومواويلهن، فيبدو كأنّه ملهى شرقي كبير، أما في النهار فيلبس هؤلاء الراقصون والمطربون ثياب سجناء الرأي والضمير، فيستعدون لشتى فصول الكراهية والاحتقار، كان الصمت والحذر سلاحهم الوحيد لمواجهة ما يمرّ بهم من عذاب وألم.

عمل الغجر في الموسيقى والرقص ليس هو ما يميزهم عن غيرهم حسب، بل تضيف لهم سمرة وجوههم وطريقة كلامهم العالية النبرة تميّزا آخر، وينفرد الغجر أيضا بطبيعة العلاقات الاجتماعية والأسرية، فالنساء هن صاحبات القرار والكلمة الفصل لهن في إدارة البيت لكونهن القوى المنتجة، ويتحمّلن مسؤولية إعالة الأسرة.

ولسكان الكمالية قصص مع الغجر فيها من الكآبة مثل ما فيها من البهجة، تشبه هذه القصص ما قرأنا عن الأسياد والعبيد، فأهل الحي يشعرون بـ «عار» و«إثم» مجاورة الغجر حيث ينظرون لهم كأراذل وإباحيين. المشاعر السلبية هذه عرّضت الغجر لعنف متواصل ومحموم. كانوا محتقرين أشدّ الاحتقار، لذلك كان الاعتداء عليهم مألوفا ومنسجما مع كراهيتهم، دفعهم محيطهم نحو الإقلال من حركتهم داخل الحي حتى بدت شبه منعدمة، رقعتهم كانت شوارعهم وبيوتهم وفيها يمارسون حياتهم بحذر شديد، عزلتهم هي آخر سدود مواجهتهم لمشاعر احتقارهم، لقد ضاق عليهم الخناق وما بقي لهم إلا سجن أنفسهم داخل بيوتهم .

الصور القاسية هذه كانت تتداخل فيها صور أخرى مختلفة عنها، كانوا هم سوق

المتعة الأكثر رحابة وحبورا، كانوا «كرماء» مع كارهيهم، العلاقة الملتبسة بين العرب والغجر تمنح فرصة للتأمل في سلوك الشخصية العراقية وتناقضاتها، ففي الوقت الذي يقابل الغجر بدرجات عالية من الكراهية والاحتقار كانوا سوق متعة لا نظير له أمام المتبضعين من وزراء الى عمال، ومن تجار كبار الى فقراء معدمين، لا شروط لدخول هذه السوق، ومع الغجر يمكن أن نشاهد كيف يقابل الصوت الجميل بالحقد والعنف، والرقص بضرب الأحذية، والموسيقى بكلمات السّباب والشتم، في معركة حقوق الإنسان كان الغجر يعرفون أنهم ضحايا لا يسمع لهم صوت أو رأي أو كلمة، كان الحق مع أعدائهم على الدوام.

من كل مشاهد الاعتداء على الغجر بقي مشهد واحد عالق في ذهني حتى اليوم، ففي عصر يوم شتائي بارد وأمام مركز شرطة الكمالية، إنهال شرطي أسمر اللون غليظ الشارب، بعصاه على امرأة غجرية في الخمسينات من العمر، وكلما ازدادت هذه المسكينة ألما تزداد صراخا وبالمقابل يزيد الشرطي ضرباته قوة وعددا، المعركة بالنسبة للغجرية كانت قاسية وخاسرة ايضا، لكن الشرطي لم يكن واثقا من نصره، حتى سقطت المرأة أمام سيارة الشرطة التي أقلتها الى المركز، ووقف الشرطي فوقها وهو يلهث بصوت عال ويجرّ أنفاسه مثل دبّ اصطاد ضحيته وتوقف ليستريح قبل أن يلتهمها، ومع سحل المرأة الى داخل البناية انتهت العملية، لم أعرف ذنب المرأة الذي استحقت عليه هذا العقاب الوحشي، بافتراض أن هناك ذنبا يستوجب هذه العقوبة، كان وللأسف لا يزال، مشهد ضرب الشرطة أو أي جهاز أمني الناس بالعصا، اعتياديا ومألوفا، وإلا ما مهمة الشرطي سوى أن يعذب الناس ويكون شديدا معهم؟ وحتى اليوم لست قادرا على تصوّر شرطي من دون عصا ينهال بها على الناس أو لسان يسبّهم ويلعنهم، ولست قادرا على تصوّره وهو يلاطف الناس ويتحبّب لهم، الشرطة تعني الفظاظة والقسوة.

انتهى مشهد ضرب الغجرية، أدرت وجهي نحو الشارع والألم يعتصر روحي، مضيت متسائلا مع نفسي ماذا لو لم تكن هذه المرأة غجرية؟ هل يقوى هذا الوحش

البشري على ضربها أمام الناس؟ إنها لعبة الأقوياء والضعفاء، أو لعبة «الشرفاء» مع الكاولية .

شعور أهالي الكمالية بالطهرانية والقوة وإحساسهم بالإهانة من مجاورتهم لعوائل غجرية تمارس عملها المشين على مرأى ومسمع الجميع، يدفعهم الى نكران الحقائق والكذب عندما يسألهم أحد عن عنوان سكنهم، فيتهربون من الإجابة بشتى الطرق، وفي حال كشف أمر سكنهم يقولون:

ـــ الكمالية مو كلها كاولية، وهذولة بيوتهم قليلة، وما نسمح لهم يختلطون بينة، وبالمنطقة عشاير وشيوخ .

وحين يجدون أمانا وثقة بمن يكلمونه كانوا يضيفون:

ـــ والكاولية باقين بيناتنا لأن الحكومة والتكارتة يحبونهم ونحن لا حول لنا ولا قوّة بطردهم .

كان للكثير من المسؤولين والموظفين الكبار أو أقرباء صدام علاقات مفضوحة مع الغجر، وهي صورة من صور الاستغلال والاستهانة، وفيها تتداخل التراجيديا مع الكوميديا، والقسوة مع الرّقة، فكان لعلي كيمياوي مثلا وهو أحد أكثر المسؤولين المقربين من صدام فجاجة، علاقة بعدد من الغجريات يقضي معهن سهراته الماجنة، ومع عطاياه وهباته كان يهينهن ويضربهن، حتى أنه أمر «بحلاقة» شعر إحدى المقربات منه «نمرة صفر» لسبب لم يعرف، في جلسة طرب وسكر أنزل بها عقابه الفظ فأمر بحلق شعرها.

علاقة « كيمياوي» بالغجريات لا تمت بصلة للعلاقات الإنسانية الطبيعية، بل هي شكل من أشكال العبودية، فما بينه وبينهن ليس علاقة طبيعية بين رجل وامرأة، سواء كان حبّا أو عشقا، محرّما أو مقبولا، بل علاقة سلطان بجواريه.

تجوب سيارات الموظفين الكبار في السلطة، مدنيين وعسكريين، شوارع الغجر بشكل شبه يومي، وكان الخوف منهم يحبس الأنفاس، يسكر هؤلاء ويطلقون العنان لعربدتهم، لم تسلم من بطشهم حتى الحيوانات، وفي مشهد جرى عام 1985على

مــا اتذكر، ترجّل شــاب، يبدو أنه ابن مســؤول كبير، من ســيارته التــي أوقفها أمام ســيارة نقل تحمل أغناما يقودها رجل كبير في الســّن، لم يســمع هذا المسكين صوت منبه ســيارة الشاب وظلّ على مسيره البطيء، غضب الشاب، فأخرج مسدسه وصعد لسيارة الرجل وأفرغ رصاصاته في رؤوس الأغنام، ترجّل من مكان الجريمة، استقل ســيارته ومضى لا يلتفت لشيء، صعد صاحب الأغنام الى ســيارته ليســتطلع مشــهد الكارثة الذي حلّ بأغنامه، كان قاتل الأغنام من ذوي الحقوق الزائدة، لهذا كان يشعر بلذّة استخدام تلك الحقوق مع الأغنام، وليس مع البشر فقط.

بني مركز للشرطة في الكمالية بســبب وجود الغجر فيهــا، فامكانية وقوع جرائم أو جنح في شــوارع الغجر عالية، لذلك يتيح وجود الشرطة مهمّة حفظ الأمن والسيطرة عــلى أي عمل يخلّ بالنظــام العام، ولكن الشرطة وجدوا أنفســهم في مأزق كبير بعد صعــود نجم التكارتة في الســلطة، وعنى ذلك في حقيقته صعوبــة تطبيق الإجراءات القانونية على المســؤولين وأقاربهم ممن لهم علاقة بالغجر ويرتادون بيوتهم، فهؤلاء هم موظفو سلطة لا تعبأ بالقانون ولا تعيره أي احترام فكيف يطبقونه؟

شــذوذ المتنفذين لم يتوقف عند معاقبة النســاء بحلق شعرهن وهي عقوبة عسكرية معروفة في الجيش، بل يتعداه الى حدّ الشذوذ الجنسي أيضا، كان لي صديق لديه سيارة أجــرة ويصادفه في بعض الأحيان عمل مع الغجر ومنه مثلا أن يوصل الغجريات الى ملاهي بغداد أو بيوت ومزارع المسؤولين، قال إن شابا غجريا استوقفه، قبل ان يلتفت الى اثنــين مــن معارفه من الغجر يقفــان في الجهة المقابلة، طالبــا منهم الذهاب معه الى حفلة «للدولة»، وســمّى لهم أســماء أصحاب الدعوة، لكن الشابين رفضا الذهاب، ووسط إلحاحه، اقترب الشابان الرافضان الى صاحبي، وقالوا له :

ـــ اخــذه عمّي وروح، ذولــة الي رايحين الهم الجماعــة دكوا بينا قبــل فترة، عافوا النسوان وطاحوا بينا !

كانــت حفــلات الأعــراس في الســبعينيات لا تتمّ مــن دون وجود غجريــات، يرقصن ويغنين، ومشــهد العرس هو هكذا: توضع كراسي الفرح في الشــارع على شكل مربع،

ومع أول الليل تخرج الراقصات الى وســط المكان، وحــين يبدأ الرقص والغناء، يدفع من يشــاء من الحضور ما يســمى بــ«الكيت» على الراقصات، ولكن يشــترط بالدفع أن تجلس الراقصة جوار دافع المال ويســمّى هذا المشهد «بالتفريعة»، وهي أن يزيح الضيف منديلا شــفافهعــن رأس الراقصة ويضعه على صدرهــا أو أرجلها، ويتكرّر مشهد الراقصة مع الضيوف .

اليوم تخلو الكمالية من الغجر، وبهذا فقدت جزءا من تاريخها ومن وقع اســمها على نفوس محبي الغجر وكارهيهم أيضا، هرب الغجر منها بأرواحهم، وتركوا بيوتهم أو باعوها بثمن بخس عقب أيام قليلة فقط على ســقوط نظام صدام، وحين رحلوا عنها نســيت المدينة اســمها وارتدت كساء آخر كان هذه المرّة منســوجا من التراث الديني، وغدت شيئا آخر غير الكمالية.

بعــد مــا يقرب من عقد عــلى هروبهم، لم يجد الغجر لشــتاتهم أرضــا تحويهم، ولا لمصيرهــم المثقــل بميراث ألــم واحتقار طويلين مكانــا يحفظ إنســانيتهم، هربوا إثر تلقيهم تهديدا عبر ســيارات طافت شوارعهم وهي تحمل مكبرات الصوت؛ قيل لهم، اتركوا بيوتكم ومن يخالف سيعاقب، بضع كلمات فقط كانت الفصل الأخير لهم على هذه الأرض الباطشة .

الغجر
«الجير» و «الجبايش»

فنّ الإجهاز على الطّريدة يبدو، لعمقه البدائيّ وتأصله، كأنــه فطريٌّ طبيعــيّ يتفوّق على جميــع الفنون. من جميــع الجهــات التــي تحيط بالطريــدة البائســة تعلو الأصوات: ضعوا سكّيناً بين الفكّين، خنجراً على الحنجرة، سيفاً على الرقبة. لا تنسوا الأقدام والأيدي وليكن اختيار السلاســل دقيقاً وجيداً، لا تعذّبوا جســم الأرض بحفره لاســتقبال جســم الطّريدة. احرقوه، أو اتركــوه للضباع وغيرها مــن الحيوانات والحشــرات اللاحمــة، ولكم أن تسمّوا هذا كلّه.... ماذا؟

ادونيس

يتشابه مصير الغجر مع مصير اليهود في العراق، سقتهم الأكثريّة عددا، والأقليّة تسامحا، من كأس المذلّة ذاته، وذاقوا المصير نفسه، القوافل التي حملت متاع «الفرهود» اليهودي مرّت بالغجر، فلم تترك لهم سوى أسمالهم، وبعض من ذكرياتهم، مسدلة الستار على حياتهم المفعمة بالكثير من المسرّات والأوجاع، تركوا أرضهم التي عاشوا فيها مئات السنين، هاربين بأرواحهم ليعاد عليهم مصيرهم الأول، المنفى والعذاب، رحلوا وهم يتساءلون، متى لا تكون هذه البلاد ألما؟

تبدو صورة العراق الحديث قبل أن يدخل في طور العسكر والشمولية والحروب أكثر اتساعا وتعدّدا مما هي عليه اليوم، فثمة يهود يعيشون بلا خوف ويمارسون مهنهم التجارية الرفيعة، وطقوسهم الدينية، وثمة غجر يرقصون ويغنون ويتحلّق حولهم كثيرون، السلاطين والرعاع، الأغنياء والمعدمون، المحبون لهم والشغوفون بهم حاموا كالفراش حول نار الغجر، وثمة غابات نخيل تسدّ قرص الشمس، وأهوار تتسع لغابات القصب والطيور المهاجرة، والسمك، ويتسع تاريخها ليصل لسومر، المهد الأول للبشرية، وبين غابات النخيل وغابات القصب «بحر السومريين» امتزج الصابئة بالماء والطين، فمنحتهم معابدهم، وحرفهم، وتجانسهم الاجتماعي، شعورا قارّا بالأمن والسلام. هذه التعددية الدينية والعرقية انتهت كلمح بالبصر، واليوم تبدو الصورة كالحة لا يبرز فيها سوى غبار التّطرّف والعنف والحروب والآيديولوجيا ضيّقة الأفق.

كيف جاء الغجر الى العراق؟ ومن أي أرض رحلوا؟

تعود جذور الغجر في العراق الى القرن الخامس الميلادي، حسب الدكتور طه الحديثي في كتابه «الغجر والقرج في العراق» الذي يقول:

«وصفوة القول، إن الغجر قد وفدوا الى العراق بموجات متتالية، أولها جاءت من الهند الى المدائن، إبان حكم الملك الساساني «بهرام جور»، في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي، الذي طلب من ملك الهند تزويده ببعض المغنين من قبيلة «لري» أجداد الغجر، وذلك لاستمتاع شعبه بالموسيقى، خاصة وأنه شجع رعاياه على الشرب

وسـماع الأغاني والعزف، وسـوّى بين الطبقتين من الندماء والمغنين، فقرب اليه من أطربه وإن كان في أوضع الدرجات، في حين أبعد من لم ينجح في إطرابه»[6].

في أواسـط السبعينيات كان عدد الغجر في العراق 5569 نسمة، تسكن 174 أسرة في الكمالية وعدد أفرادها 1019 نسمة، أي ما يزيد على 21 بالمئة من مجموع الغجر في العراق، لم يكن للألف مخلوق هؤلاء أي حقّ من حقوق المواطنة، حرموا من الجنسية العراقيـة، ومن التعليم، ومن الوظائف العامة، ومن الملكية، عوملوا مثل داء في جسـد المجتمع، فقانون 43 لسنة 1971 حرمهم من تملّك العقار سواء كان أرضا زراعية أو أميرية، باعتبارهم أجانب، وتصفهم مديرية النفوس العامة في قرارها المرقم 16390 في 29 تموز 1959بالقول:

«إن الغجـر (الكاولية)، جماعة لا تملك جنسـية معينة، وبذلـك تعدّ من الأجانب ولا يجوز تسـجيلها في سجلات الأحوال المدنية ومنحها دفاتر النفوس إلا بعد استحصال شهادة الجنسية العراقية أو شهادة تجنّس»[7].

ثم يتكرّر الأمر معهم في العام 1974، فتعيد الأحوال المدنية وصفهم ومعاملتهم بهذه الطريقة:

«إن الغجر (الكاولية) أقوام عديمو الجنسية ويعاملون معاملة الأجانب، لهذا يقتضي في حالـة عثوركـم على قيود المسـجلين منهم في السـجل المدني عـدم الموافقة على أية معاملة لهم إلا بعد أن يقدّموا شهادة الجنسية العراقية»[8].

كان مأزق الغجر مع العمل في قطاعات الدولة لا يقلّ حراجة عن مأزقهم المعيشي الآخر «الجنسـيّة والتّملّك» فقانون العمل رقم 151 لسـنة 1971، الذي عدّ العمل من حقّ العراقيين وحدهم كما يقول الحديثي في كتابه، لم يستفيدوا منه لأنهم ليسوا عراقيين! وحرمـوا كذلك من حقّ العمل بصفتهم أجانب لأن إقامتهم في العراق غير شرعية. من

---

٦ . طه حمادي الحديثي :» الغجر والقرج في العراق «، مطبعة جامعة الموصل ١٩٧٨ ص١٩.

٧ . المصدر نفسه: ص١٥٧.

٨ . المصدر نفسه: ص١٥٩.

بهرام جور حتى اليوم وهم ليسوا عراقيين؟ ألا كم هو عجيب هذا العراق؟
اكتمـل حصارهم حين منعوا حتى من العمل في «الجـير»، فقد طرد 150 غجريا من معمـل الطابـوق الجيري في مدينة الزبـير بالبصرة، بعد مضي شـهر واحد فقط على عملهم فيه، لعدم حصولهم على الجنسية العراقية، إنهم أنجاس لا يحقّ لهم حتى لمس «الجير»، أي إقصاء يعيشه شغيلة الطرب والموسيقى والرقص هؤلاء؟
مأزق الغجر في العمل عاشـه أطفالهم في التعليم، فقد منعوا منه بسـبب الجنسـية، والإقامة المشبوهة، وحين افترض أن أطفال الغجر يمكن لهم أن يدخلوا المدارس أشعر أن بدني يقشعر عندما اتصور ما سيحلّ بهم على يد زملائهم من مهانة، واستخفاف، وعنف، سيعذبون دون هوادة ورحمة، إنهم في أدنى درجات سلم المجتمع . فأي طاقة تكفيهم لمواجهة زخم هائل من العنف يبدأ من أول الطفولة ولا ينتهي في الكبر ؟
تكتب مديرية شرطة الأقضية في محافظة البصرة في كتابها المرقم 1158 بتاريخ 22 تموز 1976، تقريرا الى المحافظة، تقترح فيه ترحيل الغجر الى «الجبايش»هذه المرّة، فتقول:
«نظرا لارتياد حي المعامل، أطوار من المواطنين، بالإضافة الى الكويتيين والسعوديين، ومن جنسـيات أخرى، ولا يستبعد أن يسـخروا لأمور مختلفة، علاوة على قرب الحي مـن المعامل الصناعية الضخمـة، ولقربه من وحدات الجيش، ولأن المنطقة سـتكون منطقة صناعية في المستقبل، مما يجعل وجود هذا الحي شاذًا، لا يتّفق وسمعة وطننا ومجتمعنـا، كما أن وضعه في هذه الحالة يزداد سـوءا، لأنهـم يزدادون يوما بعد يوم وتنمو الرذيلة معهم، عليه، نـوصي بترحيلهم الى منطقة، كالجبايش، وتطويرهم من الناحيـة الاجتماعية، والثقافيـة، والصحية، والفنية وإلا، فان بقاءهم بهذا المسـتوى يعتبر آفة اجتماعية خطيرة»[9] .
شـذوذ، ورذيلة، وآفة، وسوء يتزايد، وتشويه سمعة، وضرر بسمعة الوطن والمجتمع، وتجسّس وتخريب، تلك هي أوصاف الشرطة للغجر، فهل يمكن تصوّر الطريقة التي

٩ . الغجر والقرج في العراق: ص ١٦٨.

يتعاملون بها مع أناس بهذه المواصفات الخطيرة ؟ هل يمكن أن يعيش إنسان بأمن وسلام وصورته في دوائر الحكومة المتنفذة والباطشة، لا تترك سوءا إلا ووصفته به؟ ألا يعني مقترح ترحيل أناس يمتهنون الغناء والرقص الى الجبايش إبادة جماعية لهم ؟ من حياة الغناء والرقص الى الجبايش؟! يا لقسوة هذا العالم. مأزق الغجر انتهى أخيرا الى أشياء أخرى أبعد من الجبايش، إنه الشتات .

بوجود قوانين تمنع الغجر من حق التّملّك، كيف تسنّى لهم بناء بيوتهم في الكمالية؟ يقول الدكتور طه حمادي الحديثي:

« ومع ذلك شيّدوا مساكنهم في الكمالية بمساعدة العراقيين، وهذه المساعدة تمت باسلوبين، يتمثل الأوّل في التّحايل على القانون، وذلك بتسجيل الأراضي التي تم شراؤها من الملاكين في مديرية العقار العامة بأسماء العراقيين الذين يطمئنون اليهم، بحكم قيام علاقات وديّة معهم عن طريق تزويج بناتهم للعراقيين، أما الثاني فيتمثل بمنح القروض المالية الى أسر الغجر غير المقتدرة على بناء المساكن عوضا عن المصرف العقاري، اذ لم يسمح هذا المصرف بتسليف الغجر لأغراض البناء، ومن ثم تتكفل تلك الأسر بتسديد ما بذمتها من ديون الى العراقيين»[10].

تسكن الكمالية 15 مطربة، من بينهن حمدية صالح، صبيحة ذياب، شكرية خليل، ساجدة عبيد، مطلوب محمد، امتحان عليوي. وينقسم غجر الكمالية الى بيوتات أربعة، هي، آلبو طحيمي، وآلبو ثنيوان، و آلبو نصيف، و آلبو دلي. ومع نشوب الحرب مع ايران، منح الغجر الجنسية العراقية ، فتطوّع بعضهم الى الجيش تلبية لنداء الوطن ! محرقة الحرب وحدها وليس تاريخهم الذي يمتد لآلاف السنين هي التي أعادت لهم حقوقهم .

تعود ملكية أراضي الكمالية وربما التسميّة ايضا، الى علي كمال عبد الرحمن، وهو رجل أعمال كردي، شغل مناصب مهمة إبان العهد الملكي، منها نائب في البرلمان، ومدير لشرطة بغداد، وقائممقام قضاء سوق الشيوخ، واشتغل أيضا بتجارة الأراضي

١٠ . الغجر والقرج في العراق: ص٥٢.

أثناء توليه لهذه المناصب. يقول صباح الابن الوحيد لعلي كمال في مذكرات والده:
« لاحظت عليه انه كان متسرعا في قراراته مما يتسـبّب في كثير من النتائج السـلبية، والمثـال على ذلـك، بأنه حين بـاشر في بيـع الأراضي في الكمالية تقدّم اليـه نخبة من الرهبان الآثوريين، لشراء جملة من الأراضي لإسـكان رعاياهم فيها، وكانوا قد اتفقوا مع الوالد على أن يهب لهم قطعتين ـ مجانا ـ لبناء كنيسة ومدرسة، وعندما راجعوه بغيـة تحرير عقد معه، طلب أحدهم من والـدي أن يزيد على القطعتين قطعة أخرى مجانا لبناء مستشـفى، فما كان من والدي إلا أن هبّ واقفا، وقال بنوع من الانزعاج، إنه صرف النظر عن البيع لكثرة ما طالبوه بالتنازلات» .
ويكمل صباح :
«وانا أقول اليوم، لو أنه لم يتسرّع بقراره ووافق على مطالبهم لكان حال الكمالية في وقتنا الحاضر أحسن بكثير» [11].
شهدت سـنوات الثمانينيات أوسع فترات رواج نشاط الغجر في مجال الدعارة، ومعه كان ضيـق أهـل الحي من مجاورتهم يتّسـع أيضا، كان شـعورهم بمجاورة الغجر يقـارب اقترافهم للذنب والخطيئة، فمشـاهدة الشـباب القادمين مـن مختلف المدن العراقية، القريبة والبعيدة، وهم يتنقلون بين شوارع الغجر بحثا عن المتعة الجنسية أمـر صعب على أهل الحي تحمله، ورغم أن أغلبهم يرتادون يوميا بيوت الغجر إلا أن شـباب المنطقة كانوا يتعرّضون بالتجريح وأحيانا بالإهانة والضرب لكلّ من يسألهم عن بيوت الغجر أو يستفسر منهم حول أي شيء يتعلق بهم.
وفي يوم ما، تلقى عدد من الشـباب قدموا من خارج الحي الى «بسـطة» شديدة، بعد ان قادهم سوء حظهم الى شوارع «العرب» ليسألوا عن الطريق الى بيوت الغجر، كانوا وسط المنطقة تماما، وأرشدهم البعض، الى عدد من بيوت «المعدان» تقع في آخر الحي تماما، وعلى حدود منطقة «الفضيلية» معقل المعدان الأكبر والمجاورة للكمالية، طرق

---

١١ . مذكرات علي كمال عبد الرحمن / تقديم وتحقيق جمال بابان / ٢٠٠١ / بغداد. ص ١٧٥ـ ١٧٦.

الشـباب بيوت المعدان وطلبوا منهم «تهيئة الوضع»، وحين اكتشـف شـباب المعدان مراد هؤلاء الشـباب، إنهالوا عليهم بالـــ»تواثي» التي يجيدون اسـتخدامها بشكل ملفت، وحين انتهت المعركة، وهي من طرف واحد، هرب طالبو المتعة والدماء تسـيل من أجسادهم، دبغت جلودهم بدل أن يطفئوا شهواتهم!

في صيـف العـام 1986، وتحديـدا أيـام إقامة بطولـة كأس العالم لكـرة القدم في المكسـيك، هجم عدد من شباب المنطقة على بيوت الغجر، جاءت هذه الخطوة بعد أن انتهى حديث حول حياتهم مع الغجر جمعهم في مقهى، كان صاحبه، وهو شـيوعي سابق، مندفعا في تحريض الشباب، شحنة العواطف التي استولت عليهم كانت كافية لدفعهـم للهجـوم على بيـوت الغجر دون الالتفـات الى ما يمكـن أن يتعرّضوا له من أذى وقمـع من قبل النظـام، الخطوة «البريئة» هذه، مفصولة عن أي حراك سـياسي معارض، يومها كانت السـلطة محبطة ومسـتنفرة بسـبب معركة الفاو التي انتهت قبل أشهر قليلة بخسارة المدينة، وسيطرة الإيرانيين عليها، الوضع داخل البلد لم يكن أقـل توتـرا من الوضع على جبهة الحرب، وأن يقدم عدد من الشـباب، لا يخلو تاريخ أهلهـم وأقاربهم مـن وجود معارضين للنظام، أعدموا أو سـجنوا، على خطوة تعدّها الحكومة تحدّيا كبيرا لسلطتها، هو أمر أقرب الى الانتحار.

هجم الشـباب على بيوت الغجر، حطّموا زجاج سـيارات كانت مركونة أمام البيوت، وما يسـهل تحطيمه، أفرغوا بلمح البصر ما تضمره أرواحهم من كره واعتراض على السـلطة، وحين انتهـت حملتهم كانت الشرطة قـد طوّقت المكان، فاسـتطاع الكثير منهم الهرب ولم يلق القبض سـوى على شخصين فقط، سجنوا بتهم الاعتداء البدني فقط، لم تصل قضيتهم الى حدّ المسـاسّ بالأمن، ولم يوصف فعلهم كنشاط معارض للسـلطة، بعد أن نجح أهلهم في التّوسـط لدى أعضاء في حزب البعث وضباط شرطة للملمة الموضوع بشكل ودي.

واليـوم، حين أنظر لما قام به الأصدقاء من حملة «إيمانية»، أجدهم بعيدين تماما عن أي اتجاه نحو الإسـلام السـياسي، بل دفعتهم روح الرفض لوجود الغجر بينهم نحو

فعلتهم الخطيرة، كان احتضان التكارتة والمسؤولين للغجر هو الدافع الحقيقي الذي حدا الشباب الى مهاجمة بيوت الغجر دون النظر في العواقب الوخيمة لفعلتهم.

الإيشان وعاشوراء

ولعلّ طقوس الشـيعة في عاشـوراء قد عوّضت العراق شـيئا من جفاف القرون. وهي لا شـك طقـوس الحزن العميق. ولكن في كلّ شـيء عميق فعل تحرير. وتمثيل الأحزان بالأفعال تنفيس: وهذه هي لعبة تلك الطقوس فهي مهرجان شعبي فيه ألوان من تفريج الكرب وتبديد الوحشة، والفرح......

إن تدخل السياسـة في الدين ينشـط تدخل الدين في السياسـة، وبدلا مـن عاشـوراء طيب، مرّة في السـنة يسـكن عاشـوراء متجهم كل أيام السنة، بدل العواطف الزاخرة كتائب خرسـاء. رماد يخلف السنديانة. الوحشة تعقب الألفة.

أحمد المهنا

كتابه «الإنسان والفكرة»

يقع بيتنا في نهاية الكمالية، ترتفع الأرض أمامه بما يشـبه التل، كان أهلنا يسـمونه

«إيشـــان»، في شــماله تقع حســينية الســيد محســن الحكيم، وأمامها تجري مراسم عاشــوراء كلّ عام، كانت كرنفال حزن كبير، تتبدّل فيه تفاصيل حياة الناس، يرمون ثيابهــم الملونة، ويكتفون بالســواد، لا يتزوّجون أو يخطبــون أو يختنون صغارهم، يحلّ اللطم والبكاء بديلا عن الفرح، وانا لا اتذكر من مراســم عاشوراء سوى مواسم قليلة.

«الإيشان» وعاشوراء في العام 1977 قصة يتقاسمها الفرح والخوف والحزن، فرحة ذلك العام صنعتها يد العلم والبحث، فقد قام فريق تنقيب أثري بالحفر في «الإيشان» ليســتخرجوا منه كنوزا أثرية، فتحت للناس شــيئا من تاريخ هذا البلد وتاريخ العالم القديــم. كنت ومعــي رفاقي من الصغار، نرقــب رجال البعثة الآثريــة كلّ يوم، نبدأ معهــم عملهــم ولا ننتهي حين ينتهون، فنظــلّ نتقافز فوق الجــدران التي بانت من تحت الأرض، نفرح بكنز اللهو الذي فتح أمامنا. ذهب، ســكاكين، أوانٍ، لكن مفاجأة وقعت وغيّرت مســار نشوتنا بالمكان الى حذر منه، حين اكتشف المنقبون جثثا دثّرها تراب القرون، وحفظها من العبث، كنا نعتقد أن أهل هذه البيوت المندرســة، ماتوا أو قتلوا قبل أيام، رحلوا تاركين وراءهم كلّ شيء، وحين يجنّ الليل كان رعبنا من البيوت الغائرة في أعماق الأرض يمنعنا حتى من النظر الى «الإيشان»، وكأنّه لم يكن يهبنا كل هذا الفرح الغامر في النهار.

ليس سهلا إبعاد الأشباح من ليل البيوت الغائرة في أعماق الأرض، كان مشهد عظام البشر التي أزيح عنها التراب، وهي عارية من الحياة والبهجة، يثير خوفنا.

لــم أكــن أعرف أهمية الذهــب في حياة النــاس إلا عندما وجد المنقبــون بعضا منه في الموقع، يومها سمعت أمي وجاراتها، يتحدّثن بدهشة عن الثروة التي نزلت على هؤلاء المنقبين، «لو تجارة لو كلبت حجارة»، كان هذا المثل هو فحوى ما يتردّد على لسانهن وهنّ يحســدن من حفر الأرض ليصل للذهب، إنهم لم يفعلوا شيئا، لقد قلبوا حجارة صماء من مكانها، فقادتهم نحو المال الوفير، أســطورة العجائز تشبه أساطير العالم القديم، التي تقلب المستحيلات الى ممكنات.

كان قريبنا «جحيل» يعمل مع فريق التنقيب أجيرا في نقل التراب الى السطح، كان يقضي بين فترة وأخرى شطرا من الليل مع أبي، كنت أسمع حديثهم، لم يكن يحكي عمّا اكتشف في «الإيشان». كانت تعوزني الشجاعة لأن أطلب منه الكفّ عن الحديث حول عشيرتهم، وزرعهم، وخلافاتهم قبل أن يستقروا في بغداد، كم تمنيت أن يتوقف عند الناس الذين وجدوهم تحت التراب، لماذا لم ينقذهم أحد؟ لماذا أهالوا عليهم هذا التراب الهائل؟ من دلّهم على الجريمة؟ أسئلة كنت أحار فيها، معتقدا أن جحيل وحده يمتلك إجاباتها، وأسرارها الدفينة، كنت أراه شخصا لا يشبه الآخرين بسبب عمله في الكشف عن الجرائم والجثث، وحين قادني الحديث الآن الى «الإيشان» اللغز، قرّرت أن أبحث عنه في المصادر التاريخية، فكشفت لي تلك المصادر عن أننا كنا نلعب على أرض حكمها حمورابي، وربّما مرّ بهذا «الإيشان»، وتحدّث الى الناس الذين عاشوا فيه والذين كنّا نتقافز على هياكلهم العظمية وندخل غرفهم ونلمس أوانيهم، هل كتب قانونه على هذا التراب الذي نلعب عليه؟ لم أشعر بالفرق بين فرحة اللعب فوق «الإيشان» وأنا طفل صغير، وفرحة ما كشفته المصادر التاريخية عنه وأنا رجل كبير.

تقول مصادر هيئة الآثار أن التلّ الذي نسكن على حافته كان يسمى تل «العليمية»: «ويقع في منطقة الكمالية الى الجنوب الشرقي من مدينة بغداد، تم أواسط الستينيات التحري في أربعة خنادق تجريبية، فظهر أن قطع الفخار التي عثر عليها تعود الى العهد البابلي القديم، والفترتين الكشية والفرثية، كما عثر على صحن فخار منقوش بكتابات آرامية، وقد أكدت التحريات أن المستوطن يحتوي على ثلاث طبقات بنائية، وقامت الهيئة التي ترأسها السيد معتصم عبد الرحمن عام 1977 ـــ 1978 باستظهار أبنية في الطبقة الثالثة، وعثر على أوان، ورأس سهم، وسكاكين ومنجل، وفخاريات هذه الطبقة لا تحوي فخاريات الطبقة الثانية، كما عثر على قبور أطفال، ومواد طباشيرية، ومعدنية، وعاجية، وأختام اسطوانية تعود للفترات المذكورة في أعلاه، كما جرى التنقيب في عدد من النقاط في التلّ، فكشف عن بعض الحجر والمداخل والمدافن،

وعثر على بعض الجماجم والجرار الفخارية، ومجموعة من رقم الطين، وأربعة أقراط ذهبيــة، ومجموعة من الخرز، وأقراص الغزل، وصحون من الفخار، على اثنين منهن كتابات آرامية، يعتقد أنها من العصر الساساني» [12].

وكما كان العام 1977 عام الفرحة، الفرحة كانت ترقد تحت أرض «الإيشان» تركها لنا حمورابي ومضى، فقد كان كذلك عام خوف زرعته الســلطة في نفوسنا دون ذنب، تحت الأرض كان الفرح وفوقها كان الخوف، أي حيرة عشــنا؟ ففي الوقت الذي عنى عاشوراء للشيعة جزءا من معتقدهم، وحياتهم، كان بالنسبة للسلطة طقسا مرفوضا وممنوعا، لم تصدق الشــيعة قرار الحكومة بمنع عاشوراء بدءا من ذلك العام، لكنها عرفت يومها أنها ســتعيش عصرا زاخرا بالموت والعذاب. منعت مراســم عاشوراء في الشــوارع لكنها استقرت في أرواح الشيعة، منعوا منها، ومنعوا أنفسهم من نسيانها، اشــتدّ كره الناس للســلطة واحتقارها، كنت أسمع الكبار وهم يتحدّثون عن «حوبة» الحســين، التي ســتحلّ بالبعث المجرم، كانوا يقولون إن البعثيــين هم من جنود بني أمية، وتلك بنظرهم الكفر والرذيلة، بنو أمية قتلوا الحسين وسبوا أهله وداسوا جثته، والبعث منع أحبابه من استذكاره بالطريقة التي يحبون، هكذا تقول الناس.

كان قرار منع مراســم عاشــوراء أكثر قرارات ســلطة البعث حمقا واســتهتارا، لقد حــوّل بطش الســلطة الملايين من الشــيعة الى أعداء، ولم تقدر هــذه الملايين أن تفهم دوافع قرار المنع، لقد أعطى هذا القرار لمشــاعر الإحساس بالظلم على أساس طائفي طاقة كبيرة للبروز والنمو، أو على الأقل كان بداية تخندق السلطة طائفيا، الكثير من زوايا النظر لهذا القرار كانت بالضدّ منه، توقيته الذي جاء مع بروز الشيعة في إيران وتأثيرهم في شــيعة العراق، تعارضه مع مصلحة الســلطة نفســها لأنها ضربت فيه نصف عدد مواطنيها، تقاطعه مع واجب الدولة برعاية شؤون الناس الدينية واحترام طقوسها ما دامت لا تتعارض مع السلم الأهلي.

---

١٢ . الكشاف الاثري في العراق / اعداد الدكتور قحطان رشيد صالح / ١٩٨٧ / بغداد / المؤسسة العامة الاثار والتراث ص ١٣٨.

القــرار كان طائفيا بامتياز، وحفر خندقا بين الشّــيعة والســلطة، ولكي يعاد ردمه وإصــلاح آثاره يجب التنازل عنه أولا، ثم بعد ذلك التقليل من آثاره السياســية، لكن الذي وقع بالفعل أن الســلطة تمادت فيه بشــكل ســافر، وعاقبت بقســوة أي خرق لــه، فكانــت نتائجه وخيمة مع تقدم الأيام، فقد أعقبته بأشــهر قليلة ثورة الخميني، فأعطى منع عاشوراء شيعة العراق المبرّرات الكافية للنظر الى السلطة باعتبارها ليس فقط ممثلة للســنّة ومدافعة عنهم، بل باعتبارها عدوّة للشّيعة وتعمل على إقصائهم، وتهميش طقوســهم، وتضييق مســاحة حريتهم الدينية لإذابتهــم في النهاية، فلاذوا بالثــورة الإيرانية ودولتها باعتبارها المنقذ لهم من ســلطة تحتقرهم وتحاربهم. ومن جانبهــم وجد رجال الدين في إيران بعد توليهم الســلطة أن الأرضية في العراق مهيأة تماما لتلقّي فكرهم ولغتهم، لا أدري الى أي حدّ كان يمكن للسماح للشيعة بممارسة طقوسهم الحسينية أن يمنع أي تقارب أو إعجاب أو أمل بثورة الخميني؟

تضــمّ الكمالية حيّــا صناعيّا كبيرا، تصنــع فيه مختلف المــواد، كاشي، حدادة، ورق، منتجــات تجميل، ومن بــين معامل الحي، كان معمل «محمد حديــد» أكثرها بقاء في الذاكــرة، كان المعمــل يعود للســياسي العراقي والوزير في عهد قاســم، محمد حديد، والد المعمارية الشــهيرة، زها حديد، يبعد مصنعه عن بيتنا نحو 100 متر، ينتج مواد كيمياوية، منها مبيدات الحشرات، وبودرة الأطفال، كان حديد في مطلع الســبعينيات يزور مصنعه بشكل متقطع، ولأن شوارع الحي الترابية لم تعتد على حركة السيارات، لذلك كنا نشــاهد سيارته من مسافات بعيدة، يمنحنا الركض وراء سيارته، شيئا من اللهو البريء، كنا نقف في حالة الاســتعداد للانطلاق جوار ســيارته حين نلمحها من بعيــد، وحين يقترب منا نركــض ونحن نغني «اجا محمد حديد» ونعيدها حتى نصل به الى باب المصنع.

لــم نكــن نعرف أي شيء عن هذه الشــخصية، ولســنا مــن أنصار الحــزب الوطني الديمقراطــي أو مؤيديــن لشــخص قائده محمــد حديد، وبعد أن اختفــى حديد من المشهد، عرفت أنه أحد كبار قادة التيار الوطني وتحديدا الحزب الوطني الديمقراطي،

الــذي يتزعمه كامل الجادرجي قبل انشــقاقه عنه، وهو مثل الكثير من الشــخصيات السياســية، والصناعية المهمة، انكفأ بعيدا عن أي نشــاط ســياسي حين وصل حزب البعث الى السلطة.

قصــة حديد التــي التقطت يومها بعضا من تفاصيلها، كشــفت لي عــن أن هناك من يخافــون ســلطة البعــث، ويلتزمون الصمت والانــزواء، حتى وهــم يتمتعون بمنزلة سياســية رفيعة في وقت من الأوقات، كنت أســمع ذلك من أحاديث الكبار، شخصيته التي تســتحق الاحترام وقربه لفترة من الفترات من عبد الكريم قاسم، هي التي تقف وراء الحب والاحترام الممتزج بالإشــفاق على شــخصيته وتاريخــه. وكان حبّ الناس البســطاء لعبد الكريم قاسم جارفا، ولا يخلو ذكر للســلطة يومها، إلا وكانت صورة قاســم، الزاهد، والمتواضع، والكريم، قد طفحت على ألســنتهم، كان بنظرهم قديســا خــسره العراق، وحين عرفت أن البعثيين عارضوه وحاولوا قتله، ثم قتلوه في النهاية، كانــت حيرتي لا تقف عند حدّ، ترى لماذا يقتلون حاكما له كلّ هذه الهالة القدســية؟ بين حبّ قاسم وبين غربة ورثته عن الأغلبية بدت هناك فجوة هائلة تفصل بين الناس والسلطة، وبدا كره الحكومةِ حادّا لا يلين.

حرب الكويت

لقد ملّ العراق من الحروب
صدام حسين
في حديثه مع السفيرة الأميركية آبريل غلاسبي قبل
100 ساعة من غزو الكويت

العام هو 1990، واليوم هو الثاني من آب. كان عامان فقط قد مرّا على نهاية الحرب مع إيران، وهما لا يكفيان لمحو آثارها، فعشرات الآلاف من الأسرى لا زالوا في معتقلات إيـران، والكثير من العوائـل تنتظر معرفة مصير أبنائها المفقوديـن في الجبهات. أما الذين انتهت خدمتهم العسـكرية من الجنود فقد عادوا للحياة المدنية ليبحثوا وسـط ركام الاقتصاد عن مصدر رزق يكفي لعيشـهم بعد أن تركتهم السـلطة دون معونة ودون عمل.

في السابعة صباحا وصلت الى عملي في صبغ البيوت الذي أمارسه أيام العطلة الصيفية، كان الأسطة قد تعاقد مع«ابو سمير»، وهو مقاول لبناني، تصيبنا قلّة حيائه بنوبات

ضحك مخنوق، فهو لا يتردّد في إطلاق العنان لرياح بطنه في أي مكان أو زمان يشاء، كنا مندهشـين من حريته، ربّما لم يكن معنيا بمشـاعرنا أو ربّما كان يسـخر منها. البيت يقع في زيونة، الحي الراقي شرق بغداد، الذي خصّصه عبد الكريم قاسم لقادة الجيش، قبل أن يسكنه لاحقا وزراء، وتجار كبار، واساتذة جامعة، وصناعيون.

زيونة، تعني لنا، نحن أبناء شرق القناة، مكانا يتنعم فيه المترفون، السـيارات الأنيقة والأثاث الناعم والجميل، وهدوء الشـوارع والبيوت، وأجهزة التبريد والتدفئة والغرف الواسـعة، والطعام الوفـير واللذيذ، والإطمئنان للغد وللسـلطة، كانـت صور زيونة البهيجة هذه تملأ خيالنا.

الشـارع نفسـه الذي يقع فيه البيت كان يفضي في نهايته الى منزل المرأة الوحيدة في حياتـي يومهـا والأقرب الى روحي، زميلتي في الدراسـة الجامعيـة، التي قبلت بقمع شـغفي بها وتقبّلت حرصي على تفادي المزيد من الحـبّ، قبلت صمتي عن التصريح بحبّهـا، أحبتني وهي تنتظـر الصخب وأحببتها بصمت، وظلّت تتوسـل في سرّها أن ألعـب دور الحبيب الواضح الكلمات والنوايا والأفعـال، تردّد حين تحاصرها رغبتها بأن تعيش مثل كلّ الفتيات، قصّة حبّ طبيعية، كلمات أغنية تتحدّث عن صفات من يفوز باللذّات، فتغني قربي «فاز باللذّات من كان جسورا»، فأهمس لها بأني لم أجد لذتي حتى اليوم، كنت أسخر وأتألم في داخلي من دوري الذي ألعبه وغرابتي واختلال روحي أو اعتلالها. أريد الحبّ وأخافه، وبقي سـؤال الأمس يؤرقني حتى اليوم، لماذا كنـت ألعـب ذلك الدور اللعـين، دور الخائف أو الخجول أو البـارد العواطف ظاهرا والمتأجج باطنا؟

والدها محام معروف وأمها تدير مدرسـة ثانوية، عاشت معي لحظاتي لكنّها ظلّت مسـكونة بماضيي وطفولتي. تسألني بخجل وكأنّ صوتها يأتيني من أراض قصية، تحدثـت لي بفرح طفولي رائع عن بيتنا الذي مرّت من أمامه بسـيارتهم التي تقودها أمهـا، باب بيتنا الأزرق المتهالك، والمعامل التي تشـغل نهايته، والغجر السـاكنين في بدايتـه، وجارنا حسـن المعتوه وهو يجلس بدشداشـته الرّثّة أمـام البيت، أرادت أن

تعيـش قصة حب بطلها شـابٌ فقيرٌ يسـكن شرق القناة، وفتاة تسـكن زيونة، لكن قسـوتي، أو عبثي، أو جبني، أو مخاوفي منعت عن تلك الفتاة حلمها وأمنيتها. قصّة الحب هذه لا تصلح للسـينما الرومانسـية لأنها لن تنتهي بفرح، ولن يخطف الشاب فتاته من عائلتها ليضع الجميع أمام القدر أو أمام الحقيقة، قرب منزل تلك التعيسة كنـت على موعد مع حرب أخـرى، لا مع صفحة جديدة في طريقـة حبّ بليدة، حرب ستكون هذه المرّة مع العالم كلّه.

في ذلك النهار اللاهب وفي زيونة، سمعت خبر غزو الكويت، نقل موسى الشاب المصري، حـارس البيـت، بفرح ورضا خبر الغـزو، رفع صوت الراديو الى أعـلى درجاته، كان صـوت المذيع مدويا، الغضب، والفرح، والشـعور بالنصر والقـوة يملأ نبراته، ورغم ذلك كان موسى المصري أشـدّ فرحا من مذيع السـلطة، يبدو أن ثراء الكويتيين سحق روحـه وغدا إله غضب، ونبي حرب وعدوان. كان إذلال الكويت بالنسـبة له نوعا من التعويض عن الحرمان والغربة، كان ردّ فعله نوعا من الإسترداد لكرامته التي أهانها فقـره، في حين كان المقاول اللبناني ابو سـمير نقيض مـوسى بالكامل، قال إن الغزو تهوّر لن يقبل به العالم، وسيجلب للعراق الخراب والدمار.

منحتنـي حيـاة الناس في زيونة فرصة لتفسـير ردود فعل مـوسى، فقد كنت أعيش أجواء المقارنة بين عيشـنا وعيش أهل زيونة، بين عالم الهدوء والراحة والثراء، وعالم البيوت المكتظة والفقر والحرمان، زيونة هي الكويت، وموسى هو أنا، وتقبّل ما جرى في آب 1990، كان نابعـا مـن أرض الحرمان والفقر، من الحقـد الذي تؤجج نيرانه المقارنة بين حياتين متناقضتين، حياة الفقر ودنيا الترف، حياة الخوف وحياة الأمن، الألم تحت حكم العسكر والرغد تحت حكم العقال.

كان الغزو نسخا للتاريخ، بل لأقدم صور اقتصاده وسياسته ومنطقه البسيط، القوي يـأكل الضعيـف، والفقير يغزو الغني، كان فرح الناس بالغزو كاسـحا مثل فقرهم، وقليلون من أخافتهم تبعات ما جرى، والأقل منهم من استنكره أو انتقده، الكثير من الفرحين دفعهم لذلك التّشـفي بالكويت لأنها دعمت صدام بلا توقف أو تردّد طوال

فـترة الحرب مع إيران، ووقفــت وراء قيادته وبطولته، وآخرون فرحوا بالمســلوبات لأنهــا فتحت لهم فرص الثــراء، ومنهم من فرح فعلا بعــودة «الفرع الى الأصل» كما أطلق صدام على احتلاله الكويت.

لم تمض أيام قليلة على الغزو حتى لبســت أســواق بغداد ثوب ثــراء بدا غريبا عنها؛ أجهــزة الفيديو، والتلفزيــون، والعطور الراقية، والدشــاديش الرقيقة، والســيارات الناعمة الملمس والرخيصة الثمن، ملأت الأســواق، لم ينقص المشــهد التاريخي سوى «الجــواري»، ســتمحو الكويت أحزان إيــران، هنا في هذا البلــد لا تمحو آثار الحروب سوى الحروب.

لكــن هذه الصــورة سرعان ما أخــذت في التّبدّد، وبالتدريج وجد الناس أنفســهم في حرب أخرى لا تقل عن حرب إيران قسوة، وقد انقسموا الى فريقين، أولهما، يصرّ على أن الحرب مع إيران دمرت فينا وقســت علينا أكثر من حرب الكويت، وثانيهما يقول خلاف ما يقوله خصمه، فيصف حرب الكويت بانها أجهزت على النسيج الاجتماعي، وليس على الأرواح والأموال فقط .

كان حديثا يسمع كل يوم وفي كل جلسة أو لقاء، الناس مشغولة في تمييز فصلي الموت والخــراب وليس في تلمّس مســتقبلها وأحلامها، إنهم يلعقــون جراحهم ويتجادلون حول خرابهم، أعاد الناس قراءة تاريخ بلدهم من خلال الحرب وكأنّهم وضعوا يدهم عــلى كنز المعرفة، عادوا الى خراب ســومر وبابل على يد الفــرس والى فتح العراق على يد المســلمين وما وقعــت فيه من دماء ووقائــع مرعبة، ووصلــوا الى جيوش هولاكو، وتيمورلنك وهي تحوّل دجلة الى نهر من الدم، ثم دلفوا إلى العثمانيين، وباشــواتهم، واغاواتهم، وعسكرهم.

الحرب في العراق جزء من هويته، وتاريخه؛ فكيف يمكن له أن يستقر ويهدأ وهو خلق من طينة الحرب؟ صورة لا تفارق العراقي وهو يمضي مخذولا ومختنقا بالعبرات الى حرب يراها قدرا لا فكاك منه .

اتاح غزو الكويت فرصة للعراقيين لاكتشاف أشكال خراب لم يعرفوا مثلها ولقد قسم

الغزو الكويت على قسمين: الأول حرق بالكامل والثاني سرق بالكامل. ومثل غزوات قبائل العرب في العصور القديمة ونهبهم وسلبهم لأبناء جنسهم، دخلت مسلوبات الكويتيين الى العراق الخارج توّا من حرب حرقت أمواله وأوصلته الى المجاعة، واذا كانت غريزة القتل والسلب تستعيد نفسها مع انفراط القوانين والرقابة؛ فكيف بها اذا خرجت برعاية السلطة وتحت إشرافها ؟

لقد دخلت «الحضارة» بأثاثها الحديث والمترف لعراق الموت والأسر والفقدان من خلال الحرب لا من خلال التجارة، دخل لهم الفيديو والسيارة الفارهة و«الموز» وعلب «البيبسي كولا» على ظهر دبابة لا على سطح باخرة، كان مشهد ذهول العراقي من ترف جاره يجرف معه بقايا الإيمان بحياة كريمة توفرها له السلطة.

165 يوما احتل فيها الجيش العراقي «شقيقته» الكويت، أخرج فيها كلّ غرائز الوحش البشري، القتل والإغتصاب والسرقة والحرق والإهانة وجرف الممتلكات، حتى أن كلمة «حوبة» الكويت ظلّت تدور على ألسنة العراقيين طوال سنوات أعقبت الغزو.

فرضت الأمم المتحدة عقب الغزو بأيام حصارا اقتصاديا على العراق، منعت بموجبه أي تعاط اقتصادي ومالي وتجاري مع العراق، لن يباع شيء ولن يشترى شيء، ولكن صدام لم يكن مهتما بهذا القرار، وهو غير معني بنتائجه على الناس وعلى مستقبل البلد، بدا تحديه للمجتمع الدولي وكأنّه غير خاضع لتبرير ولا يمكن تفسيره، يريد صدام أن يفرض بطشه على العالم مثلما يفعل مع العراقيين، ويعامل المجتمع الدولي وكأنّه ديكتاتوره أو حاكمه المطلق، وكلّما ازداد تعنتا كلما خسر البلد فرص الخروج من الكارثة.

بدأت بعد أسابيع قليلة آثار الحصار تبرز بالتدريج، ارتفعت أولا أسعار المواد الغذائية الأساسية، ومع تقدم الأيام فقدت العملة شيئا ليس بالقليل من قوّتها الشرائية، كانت ذيول الحرب الأولى لا تزال باقية تجر وراءها ملفات لم تطو بعد، الأسرى والمفقودون ينتظر أهلهم معرفة مصيرهم، لم تكف سنتان لإغلاق هذه الملفات، ولكن أسابيع

فقط أعقبت غزو الكويت كانت كافية للبدء بأوسع عملية تبادل للأسرى منذ الحرب العالمية الثانية، عاد الأسرى وبدأت روايات غريبة تنتشر بين الناس، فأحدهم عاد ليجد زوجته قد طلّقت منه لتتزوج شقيقه أو قريبه، لأنهم عجزوا سنوات طوالا عن معرفة مصيره أو أن أهله «دفنوه» شهيدا بعد أن أوصلت الحكومة «جثته» لهم، روايات لا تنتهي ولا يمكن التمييز بين تلك المنسوجة من وحي الخيال أو التي فصّلت من قماش الحقيقة، ففي الحروب يتداخل الواقع مع الخيال، والأسطورة مع الحقيقة.

يريد صدام تسوية سريعة لمشاكله الملتهبة قبل أن يخوض حربا جديدة، ويدخل في مشاكل جادّة وجديدة أيضا، وبالمقابل كان عناده للمجتمع الدولي صادما للجميع، فهو يرفض الإنسحاب من الكويت ويعلن استعداده للحرب أيا كان حجمها وطبيعة الدول والجيوش التي ستشترك بها، وذلك يعني أن على الناس أن تشدّ حزام الجوع والخوف من حرب أخرى لن تكون تقليدية هذه المرّة. مضت شهور الترقب ولم يلن موقف صدام، وفي الخامس عشر من كانون الثاني 1991، انتهت المهلة التي حدّدها الرئيس الأميركي جورج بوش الأب للخروج من الكويت دون قيد أو شرط .

في الساعة الثانية من صباح السابع عشر من كانون الثاني عام 1991 كان صوت منبه سيارة يضرب بقوة أمام باب بيتنا الواقع في حي الأمين الثانية الذي انتقلنا له عقب نهاية الحرب مع إيران بأشهر، لم يكن الأمر مفاجئا بالنسبة لنا فنحن ننتظر وصول سيارة «الأولدز موبيل» الاميركية التي أهدتها الحكومة لشقيقي الأكبر، الضابط في الحرس الجمهوري، فتحنا الباب وأدخل ابن عمّي وهو سائق أخي في الجيش، السيارة داخل الكراج، استلقى متعبا من رحلته التي بدأت من الرطبة في أقصى الغرب، وقبل أن نضع رؤوسنا على وسائدنا، دوّت انفجارات القنابل، كان الموعد معها بالنسبة لنا معروفا مثل موعد وصول السيارة، فقد انتهت المهلة التي حدّدها الرئيس الأميركي جورج بوش الأب لصدام حسين للخروج من الكويت، وكلاهما كان ضمن «برنامج» العائلة في ذلك اليوم، في لحظة وصول السيارة الأميركية ترمي الطائرات الأميركية بحممها على المدن، سيناريو هوليوودي حاذق صاغه بحرفة ومهارة روائي كبير،

الموت والحياة يسيران في سكّة واحدة .

جلسنا على صوت الأسلحة الثقيلة وهي تهزّ الأرض والأرواح، كان المشهد مروّعا ومجسّدا لما قرأنا عن أهوال القيامة، وكأنّ صواريخ الحرب مع إيران لم تعلمنا ما يمكن أن تكون عليه أصوات القنابل وانفجار الحديد، كانت هذه قادمة من القرون الوسطى، فهي معزوفة رعب «بسيطة» ومن مقام يمكن أن يؤديه الهواة، أما صوت أسلحة تحرير الكويت فكانت «سمفونية» أهوال قادمة من عصر الحداثة، وخارجة من أرواح مطلقيها الخائفين على مواردهم ومصالحهم ومجالهم الحيوي .

بدأت الحرب الأخرى أو قل بدأت الحرب في العراق فصلا جديدا، سيكون ألمه ودماره مثار عجب العالم، كانت تكفي قنبلة واحدة لأن تهزّ بغداد بكل اتساعها، وتضع حياة الناس على كف عفريت، الحرب هذه المرّة ليست على الحدود بل فوق رؤوس المدنيين وعلى أرضهم وبين بيوتهم .

قبل أن تبدأ حرب تحرير الكويت بأيام، ترك أغلب أهل بغداد بيوتهم، وانتقلوا الى أقاربهم ومعارفهم في محافظات أخرى، اعترض والدي على خروج عائلتنا، كنت أنا وإياه ومعنا زوجات أخوتي وأطفالهم الخمسة في البيت، أما أشقائي الثلاثة فهم وسط ساحة المعركة ورابعهم لا زال أسيرا في إيران، وحين بدأ القصف الجوي، أسقط في يده وعرف أن قراره لم يكن صائبا، فنيران الحرب ليست بعيدة عنه وعن أحفاده.

قرّرت أن أبحث عن طريقة للخروج من حمم الحرب، كان الأمر صعبا، فوقود السيارات تلاشى بعد ساعات، وبدا الحصول على لتر منه أشبه بالعثور على كنز، خرجت أبحث عن وسيلة للنجاة، وعلمت أن أحد الأصدقاء وكانت لديه سيارة حمل قد وصل للتوّ من محافظة الكوت، حيث أوصل عائلته هناك وعاد ليحرس بيته، طلبت منه أن ننقل العائلة الى قرية من قرى محافظة ديالى لدينا فيها أقارب ينتظرون وصولنا، حملنا متاعنا وكان بضمنها برميل نفط وخروفان؛ كان أبي قد اشتراهما قبل الحرب بأشهر قليلة حين بدأ أسرى الحرب مع إيران يعودون للبلد لينحرهما فيما لو عاد أخي من الأسر.

خرجنا بعد الظهر بقليل بسيارة صديقي «البيك آب» القديمة التي لا تقوى عجلاتها البطيئة على اللحاق بخوفنا ودقات قلوبنا، وصلنا ليلا وكنا كمن نجا بروحه من وباء حلّ بمدينته، اكتشفنا أن الخراف توشك على الموت فقد تسرب النفط أثناء السير في الطرق الريفية الوعرة التي مررنا بها وامتصّه جسدها، كانت بلا حول حين أنزلناها من السيارة، رميت جانبا تنتظر الموت، فلحمها لا يصلح للأكل بعد أن أشبع نفطا، وبعد ساعات أصبحت جثثا، كانت إشارة بأن الأمل بعودة أخي تلاشى، هذا ما قاله أبي وهو يرمق جثث خرافه، امتلأ بيت مضيفنا بالأقارب والجيران من أهل القرية، بدأ أحدهم وهو رجل كبير في السنّ، وفيه شيء من البلادة الحديث معنا، متسائلا عن مصير حي «الوزيرية» في بغداد، وهو لم ير بغداد سوى مرّة واحدة فقط ! كنت أحوج ما أكون الى ضحكة أبدّد بها الخوف والتّرقب والقلق .

سألته: ليش الوزيرية ؟ امبين عندك ولف هناك.

قال: لا ، بس أخاف على الوزراء .

ضحك الجميع .

فقلت له مازحا: لا تخاف لأن الوزراء يعيشون بحي العامل مو بالوزيرية.

ارتبك ورد علي: هاي شلون عمي ؟ وزير بحي العامل ؟!

رددت عليه: حجي، احنا دولة اشتراكية، الوزراء بحي العامل والعمال بالوزيرية .

أراد إحراجي فقال لي: لعد الريس وين يعيش؟

ولأنــي كنت أعرف أنّه يحبّ صدام حسين حبّا بالغا، قلت له: الريس يعيش بنص الكلوب، حجي.

بعد يومين تركت العائلة وعدت الى المنزل، كان القصف يزداد شدّة مع حلول المساء، تتناثر شظايا الصواريخ لتشكل لوحة فناء ليس لها نظير، لم تفهم الناس لماذا تستهدف مدينتهم في حرب هدفها تحرير بلد يبعد مئات الكيلومترات، ما دخل شبكات الكهرباء في معركة التحرير تلك ؟ هل تعيق الجسور حركة الطائرات؟ لماذا تعاقب المدن؟ ومع تزايد القصف كانت ثقة من بقي في المدينة بسلامته وعائلته تضعف كل

يـوم، فتحرير الكويت سـيمرّ بجثث الناس ودمار بيوتهم. بعد أسـبوع أو أكثر على بدء الحرب وصل شـقيقي «صلاح» هاربا من وحدته العسـكرية وسط الكويت، بعد أن حصل على وثيقة إجازة فارغة ملأها هو، تحدّث عن الحرب، وصفها بأنها تشـبه «أفلام الرعب»، كان مصدوما، فرغم خوضه لمعارك لا تحصى في الحرب مع إيران، إلا أنه شـاهد في ثمانية أيام « كويتية» ما فاق مشـاهد ثماني سنوات « إيرانية»، تحدّث عن الرعب الذي أصاب الجنود من حجم الأسـلحة وقوّتها، وعن الجوع الذي أصابهم وفتّت أجسـادهم وتركهم مثل الأموات. قال إن فرصة نجاة شقيقيّ الاثنين من الموت بعيدة، إنهم يضربون سيارات الجنود ومعداتهم بصواريخ تهدم مدنا كاملة، قال إن صاروخا واحدا يكفي لإنارة مدينة أو حرقها.

كان أقسى ما في تلك الحرب هو أن الكثير من الناس كانت ترغب بالمزيد من الصواريخ والرعب والقصف، أملا بإسقاط الرعب الأكبر، والخطر الأدهى. كانت عيونهم مصوّبة نحـو صـدام وليس نحو مصيرهم، ظنّـوا أن الحرب كلّما اشـتدّت وطالت فإن الأمل بنهاية صدام سـيقترب أكثر، وسـيصيدونه حتما، الحرب التي تطيح بصدام هي في النهاية ليسـت حربا بل سعادة وهناء، اصطياد صدام يستحق أثمن الأشياء وأغلاها. كان رهانـا هائلا، فإمـا النجاة من صدام وإمـا الخراب الأبدي والعـدم، وفعلا وقع الهول، حرق البلد وبقي صدام هانئا وباسما ومنتصرا.

مضـت أربعـون يوما على الحرب، انسـحب الجيـش من الكويـت، وتوقف القصف، وبدأت عوائل الجنود تبحث عن مصير أبنائها. المشهد بدا وكأنّه مصنوع من لحظات القيامـة، الموت، والمأسـاة، والنار والعقاب الموجع، كانت ترسـم مشـهد العراق وهو ينكسر ويحترق.

في آخـر أيام الحرب كنت أقف بين أهالي الحي في نقطة التقاء الطريق السريع بطريق قنـاة الجيش وهـي تقع في بداية منطقتنا، لنشـاهد الجنود والضباط المنسـحبين أو المنهزمـين، وهم يدخلـون الى بغداد، كانت هذه النقطة في جنوب شرق بغداد هي أول مـا يصل اليه القادم من الجنوب، المشـاهد كانت مروعة بـكلّ معنى الكلمة، لا يمكن

تكرارها أبدا، أفقد الإجهاد الجنود قدرتهم حتى على الكلام، تروي عيونهم المندهشة ما جرى لهم، الكثير منهم لم يكن يعي ما يقول، كانت ملابسهم ووجوههم ممزوجة بالأوحال، البعض منهم حافي القدمين، أحد هؤلاء الحفاة كان ضابطا برتبة مقدم، جلس على الأرض وبدأ يسبّ صدام والحكومة بصوت مسموع والغريب في الأمر أنّ الناس كانت تخاف أن تسكته، كان غيظه مخيفا.

التعاطف مع الجنود كان باديا بوضوح على الناس الذين يرقبون المشهد، الكثير من النساء كانت تبكي بصوت عال، يوزع الحاضرون السكائر بين الجنود، ويمدّون لهم أيديهم لينزلوهم من السيارات التي تقلّهم، تعكس هذه المشاهد العفوية تعاطفا بين الجيش والمدنيين، الكلّ كان يتلمّس المأساة والهزيمة والذلّ، كانت تلك المشاهد هي أول وأصدق ما شاهدت من صور الشعور الوطني، لم يدان تلك اللحظات بعدها أي شعور طاهر ونقي، كانت أرواح الناس متعلقة بمصير البلد، وباكية عليه، لقد خسر الجميع في هذه المعركة، كانت هزيمة ليس لها نظير، الجيش، الاقتصاد، الموارد، المستقبل، كلّها غدت رمادا.

كان مشهد ما يجري أمامنا غريبا حقا، فعلى جهة الطريق الذاهب الى الجنوب كانت ارتال الجنود تمضي مسرعة وبكامل لياقتها، لتبدأ فصلا دمويا جديدا تقتل فيه «العراقيين» هذه المرّة، في حين يرتسم في الجهة التي تصل الى المدينة مشهدا آخر نقيض مشهد الذهاب، تحمل السيارات القادمة من الجنوب، جنودا شبه أموات، ممزقي الملابس والأرواح، مهزومين ومنكسرين، بينما يمضي جيش آخر الى الجنوب ليدخل في حرب مع شعبه هذه المرّة، سيقتل الناس ويحفر في الصحارى قبور جماعية لهم، وسيدخل الجنود المنهزمون في حرب الكويت الى بيوتهم ليتلمسوا ويتأملوا ما جرى لهم، عن أصحابهم الذين احترقوا وتركت جثثهم نهبا للكلاب والذئاب في الصحارى والمدن والشوارع.

كنا نستقي أخبار الإنتفاضة من الجنود المنسحبين أو بالأحرى المنهزمين في الحرب، كانت كرة النار قد لفت البصرة أولا، فكنا نسمع منهم تفاصيل ما جرى في المدينة

التي سقطت بيد الثوار، ومع سقوط المحافظات تباعا، كنا نرصد نحن الجالسين على رصيف قناة الجيش الترابي، أخبار ما يجري هناك من ثورة وغضب، انبعث الأمل من رماد اليأس، فالنظام الديكتاتوري الذي فشلت اميركا في إسقاطه ستكون نهايته هذه المرّة بيد الناس العزل، وحين اكتشفنا أن اميركا لم تفشل بل لم ترغب بإسقاط صدام لعنّا مدنيتها وعظمتها بكلّ صدق وبكلّ ما فينا من ألم، كانت النفعية والإنتهازية التي تحلّت بها قد حوّلتها بنظرنا الى نظام بشع ومستهتر، كانت بلا ضمير، أو روح، أو شرف وهي تنهي الحرب وتدير وجهها لتتفرج على صدام وهو يحرق المدن ويقتل المدنيين بالقنابل والصواريخ.

بيت الأسرى

وقال القلب: ما فعلت بك الأيام يا دارُ؟
وأين القاطنون هنا؟
وهل جاءتك بعد النأي، هل
جاءتك أخبارُ؟
هنا كانوا
هنا حلموا
هنا رسموا
مشاريع الغد الآتي
فأين الحلم والآتي وأين همو؟
ولم ينطق حطام الدار
ولم ينطق هناك سوى غيابهمو
فدوى طوقان

أيقظنـــي مــن نومي صوت بكاء قريب مني، كان الوقت فجرا، فتحت عيوني، رأيت أبي جالســا على فراشــه، يلف رأســه بيديــه، ويبكي بحرارة وصمت، وحين تســقط الدمعة يتلقفها بيشــماغه، يمســحها، ويعود مرة أخرى الى شــهقته ليمنعها بقسوة،

كان يعتصر ما بقي له من روح، ثلاثة من أبنائه فقدوا، أحدهم يمضي ســنته الثالثة أســيرا في ســجون إيران تاركا له أربعة اطفال، والأكبر اختفى ولا يعرف مصيره، إن كان حيّــا أو ميّتا، أســيرا أو حرّا، تاركا وراءه طفلين، أمــا الأصغر، الجندي «الفقير» كما يصفه أبي والذي يقاتل في حفر الباطن، فالمخاطر التي تحيط به أكثر من البقيّة، فالوحدات العســكرية ومنها وحدته تعرضت لقصف كثيف من قبل القوات الأميركية أو ما يســمى بالقوات الدولية، ولا يعرف مصيره، ربما احترق في موضعه، أو تمزقت أشلاؤه، أو تاه في الصحراء وهو يهرب من نيران الصواريخ وصوتها المخيف.

مصائــر أبناء هذا الشــيخ هدّت ما بقي له من حول وقــوّة، هل فعلا تلاشى ثلاثة من أبنائه بلمح البصر؟ هل يعقل ما يمرّ به؟ أي مصير ينتظر عائلته؟

ساعتها لم أكن أقوى على الحديث معه، كيف يمكن أن أمنعه من الحزن؟ هل سأدعوه الى وليمة صبر وتحمّل وأنا أشاهده وهو يحسب بمسبحته ما فقد من أولاده وما بقي من أحفاده، وأحزانه، ولوعته؟ أغمضت عيوني ومضيت خلف دموعه.

وهي تنظر لمأســاة الأسرى في إيران وكيف طالت فترة أسرهم وأصبحوا نســيا منسيّا، كانت الناس تعتقد أن مصائر الأسرى في حرب تحرير الكويت ســتكون مشــابهة لما جرى مع الأسرى لدى إيران، فيحسبون أنهم سيبقون سنوات تحت رحمة المفاوضات، والمماطلــة، والأخــذ والرّدّ، لذلك كانت أحزان أبي أوســع من أن تجــد لها نهاية، ومع الأسرى الثلاثة اســتحق بيتنا التّســمية التي أطلقها الجيران عليه حين ســمّوه «بيت الأسرى»، ورغــم ذلــك كان أبي في أعماقه راضيا بمصير أبنائــه، فهم على الأقلّ أحياء وربّما سيعودون له بعد سنة، أو اثنتين، أو ثلاث، كان يقول«بالعربان ولا بالتربان»، المهــم أن الأمــل بعودتهم لن يتلاشى، وفعلا لم تمض ســوى أســابيع قليلة حتى عاد الأصغر من الأسر، في حين لزم الأمر ســنة كاملة حتى عاد الأكبر، لم يبق سوى الأسير في أقفاص المسلمين وفعلا لم يعد هذا الأسير إلا عقب سقوط نظام صدام.

وقــع شــقيقي الأصغر صباح في أسر القوات الدولية قبل أيــام من وقف إطلاق النار، كان جنديا في وحدة مشــاة، هي من أكثر فرق الجيش بؤســا وضعفا، تســمى بفرقة

المشـاة 21، كان موضعها في حفر الباطن، قـال إنهم لم يأكلوا قبل وقوعهم في الأسر مـدة يومين، وإنهم اكتفوا قبل ذلك بأسـابيع بوجبة بائسـة واحـدة في اليوم، وحين اقتربـت منهم وحدة عسـكرية اميركية كانوا لا يقوون عـلى الحركة، روى لنا وبروح سـاخرة كيف أن ضابطهـم أمرهم بالخروج من المواضع لتسـليم أنفسـهم للقوات الأجنبيـة، قالـوا له: أنت الآمر وعليك الخروج أولا، رفع المسـكين الراية البيضاء وهي لباسـه الداخلي، وحين اقتيدوا الى السـيارات لنقلهم الى مكان آمن، كان ذلك الضابط أول القافزين الى حوض السيارة.

أمـضى شـقيقي في الأسر ما يقرب الشـهرين، تحـدّث عنها وكأنّهـا وليمة مفتوحة، أفقدهـم الجوع الطويل ثقتهم بالحصول على اللقمـة، فحولوا لحظات الأسر الى أكل فقـط، يطلبون المزيد منه، وحين اكتشـفوا أن «مضيفيهم» تعبوا مـن تهيئة الطعام اقترحوا أن يجهزوههم بالمواد الأولية! وهم يتولون أمر طبخ الطعام وتهيئته، سـحق الجوع والبطش والهزيمة أي بقايا لكرامتهم فلم يعبأوا بالحرية التي سـلبت منهم، كانوا فرحين بالأسر، ولا أدري ربما حزنوا على نهايته.

صدرت لشقيقي الأكبر، الرائد في قيادة قوات عدنان، إحدى فرق الحرس الجمهوري، أوامـر بعد يوم واحد فقط من بدء الإنتفاضة بضرب مدينة التنومة في البصرة وقمع الثوار فيها، كان ابن عمي سـائقه الخاص، قـال له بعد نهاية اجتماع ضمّه مع قادة الحرس الجمهوري الذين كلّفوه بقتل الثوار، إنه سيسلّم نفسه للقوات الأميركية، كي يتخلص من عبء هذا الواجب الدموي، شـدّ سائقه من أزره، وفعلا كانا بعد ساعات أسرى لـدى القوات الأميركية، تلقّى معاملة حسـنة، وألقي به في قفص خاص بكبار ضباط الجيش، عرض عليه اللجوء الى دول أوروبية عديدة لكنّه رفض ذلك، بقي سنة كاملـة في الأسر وحين عاد الى العراق في الثاني من آذار عام 1992، أحيل على التقاعد لينهي حياة عسكرية استمرت عقد واحدا من الزمن وسط الحرب والقتال.

قاسم

لو كان العقل قادرا على التأثير في المعتقدات لأصبح كل ماهــو مخالف للصواب في خبر كان، فنرى ـ والحالة هذه ـ أن تلك المستحيلات العقلية لا تزال ثابتة في النفوس، ولذا ترانا مكرهين على التســليم بأنه لا مســتحيل عند المؤمن، وبأن المرء ليس حرا في الاعتقاد من عدمه.
غوستاف لوبون
كتابه «الآراء والمعتقدات»

في 24 تشرين الأول عام 1992، لم تكن سوى أيام قليلة قد مضت على بدء دراستي في المرحلة الثالثة في كلية الإدارة والاقتصاد بالجامعة المســتنصرية، خرجت مع صديقي وزميلي «قاســم»، عائدين الى البيت، ركبنا ســيارة الــ«كوستر» جلست خلف السائق بينما ذهب هو وزميلة لنا التحقت بنا قبل صعودنا للسيارة ليجلسا في المقاعد الأخيرة.

انطلقت السيارة من حي أور حيث بناية الكلية باتجاه بغداد الجديدة عبر طريق قناة الجيش، توقفت قرب بناية وزارة النقل ونزل أحد الركاب. شعرت بيد تلمس ظهري برفق، مددت رأسي فشاهدت زميلتنا تمدّ برأسها قربي لتقول:

ـ صعدوا اثنين قبل ما تحرك السيارة وگالوا له أنت قاسم ؟ جاوبهم ونزلوه وياهم.

لم يكن عمر علاقتي به يزيد على عام، إلا إننا أصبحنا قريبين من بعضنا، تجمعنا الكثير من الأشياء، مقاعد الدراسة، المنطقة، الأفكار السياسية، المنحدر الاجتماعي، الخوف من السلطة وكرهها، جوامعنا الكثيرة طبعت علاقتنا بالألفة والحبّ، لم نكن نفترق، وبرغم صدمتي بالخبر وخوفي، إلا أن اعتقاله لم يكن مفاجئا بالنسبة لي، فأنا أعرف أن «مجموعتهم» وقعت بيد أجهزة الأمن قبل أيام قليلة من اعتقاله، وعلى إثرها ترك المنزل وذهب الى بيت خالته في مدينة الثورة، ولم يكن مجيئه للكلية في اليوم الذي اعتقل فيه لحضور الدروس، فقد قرّر تركها منذ أن اعتقل أصدقاؤه وأقاربه، جاء الى الكلية ليعرف ما حلّ ببقية أصدقائه عن طريقي.

في عصر اليوم السابق كنت قد حذّرته من الذهاب للكلية، إلا أني فوجئت به وهو يدخل باحتها، قال إنه سيتركها بعد قليل، ولكن ما إن وصل حتى بدأ عناصر الأمن بمراقبتنا، كنا نعرفهم، البعض منهم طلاب معنا، كانوا «وكلاء» للأمن، أحدهم طالب يسكن منطقتنا وآخرون هم عناصر أمن رسميون، المراقبة بدأت حين مدّ أحدهم برأسه لقاعة الدرس حيث نجلس أنا وقاسم، وصلت رسالتهم بكل وضوح، اليوم ستنتهي المراقبة والشكوك والحذر، وسيكون اعتقاله نهاية لكل محاولات الاختفاء، لم يتركوا لنا أي منفذ للهرب، لقد أطبقوا علينا، وحين صعدنا السيارة كنّا نعتقد أننا فلتنا من قبضتهم، كان الجو يوم الاعتقال مغبرًا، يغطي التراب السماء والوجوه معا، ترك هذا المناخ الكئيب حزنا وكآبة على خوفنا وانكسارنا.

وصلت البيت، جلست لدقائق فقط، خرجت شارد الذهن تخنقني المخاوف والأسئلة والحيرة من القادم، ذهبت لإخبار أهله بما حصل، كان الخوف من قمع النظام يكتسح

حياتنا ويسمح لنا أن نطلق لخيالنا حريّة تصوّر المصير المؤلم لمعارضي النظام وطرق مراقبتهم، التي تصل الى حدود الاعتقاد أن متهما واحدا فقط يمكن أن تكلّف مراقبته كل طاقات، ووقت، وجهد أجهزة الأمن، فهل يمكن مع هذه التصورات، أن اتوقع مثلا، أن الذين أعتقلوا قاسم سيتركوني دون مراقبة ومتابعة؟ أبدا، لم يكن خيالي يسمح لي أن اتصور أنني سأسلم من الاعتقال، كان الإفلات من قبضة الأمن أمرا شبه مستحيل في تصوري، خصوصا أني أعرف مسبّقا شيئا من «تحركات» مجموعته، كان قاسم قد تكلّم معي بإيجاز وتلميح قبل اعتقاله بوقت قصير عن «معرفته» بنشاط عدد من أصدقائه السياسي المعارض للنظام، تحدّث بشيء من الحذر عن مجموعة قال إنه يعرفها، وهم شباب أبطال وشجعان ولديهم استعداد للعمل ضد النظام، خفت من الخوض في تفاصيل ذلك النشاط، لأن استرسال قاسم في حديثه يحملني تبعات سماعي له، فقد سبق لي مع صديق طفولتي رزاق أن خضت في هذا الحديث وأعرف مسبّقا ما يعنيه معرفة نشاط سياسي معارض للسلطة.

كنت مهموما حتى بكيفية نطقي لكلمة واحدة فقط عن قاسم وأنا اتحدّث لأهله، اعتقدت أن قولي لهم إنه اعتقل، يكفي لمعرفة المصير الذي ينتظره وينتظرنا أيضا، لكني وجدت نفسي أعيد لمرات عديدة حديثي أمام أهله، صعودنا الى السيارة، المكان والزمان الذي سمعت أو شاهدت فيه اعتقاله، الطريقة التي اعتقل فيها، ثم لومه على زيارته للكلية وهو يعلم أنه «مطلوب للحكومة». خرجت من منزلهم، كان شعوري بما يجري في الشارع ضعيفا، فلست معنيا بالناس، إلا أني أحسدهم على الأمان الذي يعيشونه، فقط لأنهم ليسوا متهمين بمعارضة الحكومة، كنت غائبا عن الوعي، لا أعرف ما أفعل وأنا انتظر اعتقالي في أي لحظة، في المساء جاءني والد قاسم ومعه بعض أقربائه، ومن جديد سردت الرواية على الوجوه الجديدة، الذهول والخوف تركهم شبه أموات، أبناء عمه «موسى» و«صباح» اعتقلوا قبله، العائلة نكبت شرّ نكبة، وفي كلّ لحظة يداهمني الخوف من تصوّر ما سيجري لي، كانت افتراضات لمشهد سيتحقق.

يداي مكبّلة، وعيوني معصوبة، والعصي وأسلاك الكهرباء ستترك أثرا لا يمحى على جسدي وروحي، المشهد يمضي بي حتى حبل المشنقة، وكلّما حاولت إيقاف الخيال عن إخافتي كان يعيد رسم صورة أكثر بشاعة من الأولى.

مضت بضعة أشهر و تفاقمت قرحة الإثني عشري التي أعاني منها منذ وقت ليس بالقصير، شخص الطبيب، وهو أستاذ في كلية الطب وطبيب لصدام، عبر جهاز الناظور إصابتي بثلاث قرح كبيرة وفاعلة، وحين انتهى من الفحص قلت له إني أصبحت صديق الله، فهم الطبيب مغزى كلمتي، فقد شبّهت صداقتي بالربّ بصداقة فرضها صدام حسين على من يحمل ثلاثة أنواط شجاعة، فقد اعتبرهم أصدقاء له، ومنحهم أشياء من فتافيت مائدته، راتب هزيل وهوية، هي مزايا أن يكون الإنسان صديقا لصدام حسين في عصر الجوع، أسكتني الدكتور فهو يعرف تماما ثمن السخرية من «مكارم» صدام، كان تفكيري وأنا أخرج منه منصبّا على مصيري على يد أجهزة الأمن، وليس على مرضي بثلاث قرح في الإثني عشري، كم تمنيت أن يسرع رجال الأمن الى اعتقالي، كان هذا الأمر أكثر رحمة بي من ما يجري لي، فهو ينهي خوفي وقلقي، لم أكن أفهم جلَد المناضلين والمجاهدين وتصبرهم، ولا أعرف شجاعة تحمّل الإهانة والتعذيب، كان الطريق قصيرا ومختصرا بالنسبة لي، اعتراف بكل التفاصيل وهي لا تتعدّى «تلميح» قاسم لي بأنه يعرف مجموعة تعمل مع جهات معارضة للنظام، أنهي به خطأي في هذا الوجود أو خطأي في سماع حديث معارض لحاكم لا يعرف سوى لغة الموت والتنكيل، كنت أريد قيادة سفينة مصيري باختصار وسرعة، ولا داعي لإحتمال العواصف، أما أن أظل أرقب العيون واتشكك حتى بالمجانين فهو أمر أشدّ قسوة من أبشع طريقة يمكن تخيّلها للموت، كيف يمكن أن تنتهي حياتي؟ طاردني هذا السؤال حتى قضى على أي أمل بحياة تحفظ كرامتي وتبقي شيئا من المودة تجاهها .

هل علي أن استمر بالدراسة بعد اعتقال قاسم أم أتركها للأبد ؟ أين أذهب ؟ هل أبقى في البلد لأجرع كؤوس الاحتقار والشقاء؟ كان علي أن اختار بين الموت جوعا أو الموت

شنقا أو تعذيبا، لم يشاركني أحد حيرة الإجابة. أين أمضي؟ بقائي في مقاعد الدراسة يكلّفني مزيدا من الألم والرعب، وتركي لها يضيف لي مزيدا من الندم والحسرات، التّشبّث بالحياة يمنح الإنسان المزيد من القوّة، لكني لم أجد أي قوّة رغم تشبثي بالحياة وحرصي عليها.

المهم انتصرت الرغبة بالحياة على الاستعداد للموت، عدّت للدراسة، لا رغبة بالعلم والشهادة، أبدا، لم أكن شغوفا بدراسة الاقتصاد ومنحنياته وجداوله، هو ترف أنا في غنى عنه، جلست لمقعد الدرس البارد وجفافه الموحش، واستمر زميلي في الكلية وابن منطقتي وربيب أجهزة الأمن وذراعهم في الكلية، في مراقبتي مثلما كان يفعل أيام مراقبته لقاسم، كان يمدّ بوجهه الشمعي عليّ في كلّ محاضرة، يفتح الباب أثناء الدرس ويترك عيونه متسمرة عليّ بضع ثوان ثم يذهب فرحا ومنتشيا، يعرف اني أرقب الباب أكثر من انتباهي للدرس، وحين يمضي كان يتركني حبيس أسئلتي، وخوفي. هذا المسكين يهوى تعذيبي ويستلذّ بإرهابي، إنه يبحث عن أي مجال يتمدّد فيه شعوره بالقوّة والسلطة والأهمية، عيونه الباردة، وجسده المنتصب كتمثال، كانا يحملاني الى زنازين الأمن وسياط شرطتها وبرودة قضاتها التي اقتطعت من رطوبة ليل السجون وعذابها، ومن وحشية السلطة التي تتلذّذ بالتنكيل بمخالفيها، طالما حاورت الزميل ووكيل الأمن هذا في داخلي، استنكرت شذوذ لذته بتعذيبي، كنت أعرف أنه يفعل ذلك بناء على رغبته لا على رغبة رجال الأمن، وكثيرا ما تصوّرته فاقدا لقوته ومسكينا، كانت أمانينا بسقوط نظام صدام حسين تترك لنا حرية تصور مآل بطانته ووكلاء أمنه وضباطه وجلاديه، يضعني خيالي بسقوط صدام أمام صورة بشعة له، فهو سيجد نفسه يوما ما بلا صدام حسين وبلا سلطة تحميه من قسوتي وبطشي، يا إلهي، ما الذي سيحلّ به؟ هل اكتفي بمراقبته من ثقب الباب ام أثقب رأسه؟ هل أعذبه مثل ما فعل؟ هل أسمح له بأن يكذب عليّ ويقول إنه كان مضطرا لأن يفعل ما فعل بي؟ وهو ما قاله بعد سقوط النظام، أعوانه ووحوشه وكلّ من جعل نفسه أداة قمع ورعب، وبرغم شدة غضبي عليه، لست مهتما بالثأر مما فعل بي، ولا

مهتما بمصيره، ولا أعرف أي شيء عنه حتى اليوم.
تعاطف أهلي وأصدقائي معي على محنة علاقتي بقاسم، كان يضيف لي حزنا وخوفا من لون آخر، فما ذنبهم حتى يحتملوا معي عواقب صداقتي، ومع مضي الأيام كان أصدقائي وزملائي يكثرون من سؤالي عن أخباره، وأقول لهم، ما الجديد في أخبار معتقل بتهمة سياسية في زمن صدام حسين ؟ هل يمكن، مثلا، أن يعفى عنه ويعود مرّة أخرى للحياة ؟ كنت أتوسل بهم في داخلي بأن لا يعيدوا علي سؤالا هم يعرفون مسبّقا إجابته، لكني كنت أكتم غيظي من السؤال بالصمت أو بإخراج بضع كلمات تخلو من الروح، أعيد عليهم كلمة، لا جديد، أهله يبحثون عن واسطة تصلهم بأخباره.
الأيام الساكنة والجّافة ترمى في سلّة النسيان، أما حين تشتعل بنيران الخوف من السجن أو الاعدام فنسيانها ليس سهلا، ولأنها لا تتكرّر فهي تؤرخ لما قبلها وما بعدها، تلك كانت قصة الأيام التي مضت بعد اعتقال قاسم، يصعب عليّ نسيانها، كانت كلّ لحظة فيها تعيد عليّ شريط حياتي، مرّات عديدة كنت أقفز من فراشي بسبب كابوس جثم على صدري، فأقول مع نفسي، يوما ما سيغدو الكابوس حقيقة، وبرغم رغبتي بان «تحسم» قضية اعتقالي من قبل السلطة بأسرع وقت وبأي طريقة وإن كانت بإعدامي، إلا أن الحقيقة كانت خلاف هذا الغضب المتأجج، والعاطفة المحدودة، فبرغم خلوّها من البهجة إلا أني لا زلت محبّا للحياة ومتشبثا بها بكلّ كياني، لا أريد أن تنتهي بالتعذيب والمشنقة.
كانت لحظات التّرقّب وهي أشدّ قسوةً من التحقّق، ترسم نوعا من العلاقة المريبة بمحيطي، ربما كان جاري يراقبني، هكذا كنت أتوهم، وقد تكفي نظرات عابر سبيل لدفعي نحو الاختباء بين طيات روحي، بدا العالم بالنسبة لي أصغر من خرم الأبرة، كيف لي أن أنجو من ضيق الروح والمكان والمصير؟ ذلك هو المسار الذي مضت فيه أيامي، لكني لم أندم على صحبة حيّة، ومليئة بالمحبة، جمعتني لوقت قصير بقاسم، لم استنكر خياره وقراره، كنت أعرف أي دافع يقف وراء مضيّه بمعارضة السلطة

لحدود العمل على الأرض وليس الاكتفاء باللســان والكلام، واليوم بت أعرف تماما أن روح الشـباب الممتلئة لحدودها القصوى برغبات المشاركة في صنع الحياة وتغييرها، هو الذي حوّلهم في نظر السلطة الى مجرمين يستحقون الموت، كان حلم إسقاط صدام حسين هو المحرقة التي قدمت لنيرانها أرواح أناس صادقين، أو ربّما متورطين، ومن يا ترى يمكن أن يتورّط سوى الصادق في نواياه ؟

وحتى اليوم شـغلني سـؤال ظلت الإجابة عنه متردّدة: ترى لماذا اسـتمر الشـباب في معارضة نظام صدام حسين حتى وهم يشاهدون تعرّض آلاف سبقوهم الى التعذيب والقتل؟ لماذا يقدم قاسـم بعد مذابح اسـتمرت عشر سـنوات ارتكبهـا النظام بحق معارضيـه على الدخـول في طريق المحرقة نفسـه؟ لماذا لم يمنع إعدام السـابقين في إيقاف اللاحقين ؟ هل كانت الرغبة باسـتمرار معارضة النظام هي محاولة للحفاظ على الهويّة الشـيعيّة؟ هل يخـاف الجيل الثاني على هويته الدينية لذلك أعاد مسـار الجيل الأول ومصيره أيضا؟

وانا اتخيّل قاسـم وهـو يعذّب على يد الجلادين، كانت مشـاعري تدور بين صورتين أرسـمها لـه، الأولى هي خوفي وحزنـي عليه، وهي الأكثر إلحاحا، أمـا الأخرى فكانت صـورة البطل، المؤمن بفعله والمتقبّل لمصيره، وهي المسـتعارة من حماسـة الإسـلام السـياسي وطاقته التي اشـتعلت إبـان فترة الثمانينيـات والتسـعينيات، فقد اختار مواجهة الاستبداد دون الاكتراث بالثمن.

بعد مضي بضعة أشهر على اعتقاله استطاع أهله اختراق حاجز دوائر الأمن وأقبيتها المعتمة، فقد اهتدوا الى حارس في السـجن، وأعطوه بضعة أشياء ليوصلها له، نجحت المهمة وهدأت سـورة الحـزن والخوف عليه، عرفوا أشـياء من قبيل مـكان اعتقاله، وضعــه الصحــي، لكن تهمته لم تتضـح بالكامل، فحارس السـجن يعرف تماما أن الحديـث عنها يعني نهايته، فامتنع عن توضيح التهمة، والعقوبة، هذا فيما لو عرف ذلك أساسا.

لم اتحدّث لمن يسـألني عن قاسـم، كان أهله أنفسـهم لا يتحدّثـون، فمصيره متعلق

باكتشاف عناصر الأمن لقصة وصولهم اليه، كانت هذه خطا أحمر لا يمكن التغاضي عنه بالنسبة لمؤسسة الأمن ودوائرها، وقد يجر وراءه ضحايا، ليس آخرهم حارس السجن نفسه، كانت خبرة الناس في معرفة طريقة عمل أجهزة الأمن قد وصلت مع تقدم السنوات الى درجات عالية، فطالما أن أهله عرفوا عنه معلومة موثوقا بها، واستطاعوا إيصال بضعة أشياء له، فهذا يعني بصورة قطعية أن «جريمته» لا يعاقب عليها بالإعدام، بل بالعكس فالإفراج عنه في هذه الحالة هو الأقرب، وفعلا، بعد يوم واحد فقط على إكماله للعام الأول خرج قاسم من السجن. ذهبت له بعد ساعات من وصوله، كان قد خسر نصف وزنه ونصف روحه، لونه تغير نحو الأصفر، ونزلت عيونه في حفرة تحيط بها هالة سوداء، كان الجوع قد أخذ منه الكثير من اللحم، والنشاط، يتحدّث بصعوبة واضحة، ولأنه قد ودع ضحكاته مدّة عام من الزمن لم يقو على استعادتها بسرعة، كان يبتسم بشيء من التردّد، أو ربما كان يقول لنا، إننا نضحك، لأننا «بطرانين» لا نعرف أي شيء عن مآسي صدام حسين ومعنى الوقوع بين فكيّه المتوحشين، لوعة السجن ومصائب أيامه وقصصه أطعمته مرارة فريدة، لكنه سرعان ما عاد لحياته «شبه» الطبيعية، وأكمل دراسته الجامعية.

لماذا يختار الشباب طريق مواجهة صدام برغم حجم العنف الذي يواجهون به؟ قد نجد لهذا السؤال إجابة، ولكن ، كيف ينقلون الرّغبة من نيّة الى فعل؟ وكيف يترجمون الفكرة الى قرار؟ كان صدام قد سدّ منافذ الأمل بالغد، صادر البلد وحوّله الى سجن كبير، لم يترك في الكثير من الأوقات أي فرصة «للهرب» من بطشه وعنفه، كان يعمل بالضدّ من قانون الطبيعة، فهو ليس جادّا فقط في خلق أعدائه، بل بدا هذا «الخلق» وكأنّه هو هدفه، هكذا كنا نراه، فمنذ وصوله للسلطة لم يصنع صدام لنفسه سوى صورة إنسان خلا قلبه من الرحمة تماما، وأفرغه من أي محتوى بشري، أهدر كرامة الناس بشكل سافر، واختار العنف طريقا وحيدا لإدارة وترويض المجتمع ، لذلك كانت معارضة حاكم من هذا النوع، متوقعة ومقبولة.

كنا نفهم لماذا يعارض صدام، ولكننا لم نفهم، كيف يجري تنظيم الشباب وزجّهم

في إتــون المواجهــة الدموية، وكيف نجحــت أجهزة الأمن في كشــف الخلايا المعارضة وضربها ؟

في قصــة قاســم مع الدخــول في صفّ المعارضة السياســية لم يكن هنــاك أي جديد، الطرق نفســها، السرية والخوف نفســه، وضآلة الأمل، بل وتوقّــع النتيجة أيضا هو نفســه منذ عشر ســنين أو أكثــر، ضحايا الثمانينيــات يكرّرون نســخ مصيرهم مع ضحايا التسعينيات، أبناء ضحايا سابقين، كانوا ضحايا لاحقين، وفي النهاية لا جديد تحت شــمس المعارضة. في شتاء العام 1989 تحدّث أحد أصدقاء قاسم معه، عارضا عليه الانتماء الى جهة سياســية معارضة، هي حزب الدعوة، وهو الذي يقول إنه قدم «قوافل من الشــهداء» عندمــا يتحدّث عن تاريخ مواجهته لصــدام، لا أدري لماذا هذا الافتخــار بهــذه القوافل؟ هل هي صــورة نادرة من صور البطولة أم هي شــكل من أشكال انعدام الخبرة والتجربة؟ ومتى يمكن أن يوقفوا مسير هذه القوافل؟ استمرت القوافــل ومرّت بكل المحطات التي مرّت بها، لكن الأمل وهو يتلاشى أمام الجميع، لم يمنعها من المضي في طريقها، جديدها قديم، لكنها عازمة على الاستمرار.

ذهب الصديقان الى ســاحة التحرير وسط بغداد، وخلف نصب الحرية التي يبحثون عنها، تحدّثوا عن خيارهم ومســتقبلهم، قال له صديقه الذي دعاه الى وليمة الخوف، إنهم ســيلتقون بالشــخص المســؤول عن قرار قبولــه في التنظيم من عدمه، جلســوا ساعات طوالا، لكن أحدا لم يأت، وحين سأله قاسم عن تأخر صاحب القرار، ردّ عليه صاحب الدعوة:

ــ خلاص انتهى الموضوع، شاهدك المسؤول وسيقرّر.

لــم يتحدّث قاســم عن طريقة القبــول المريبة، فهل تكفي المشــاهدة من بعيد لتمييز مؤهلات القبول أو تحديد أسباب الرفض؟ لماذا تشبه طريقة الدخول في تنظيم يواجه واحدا من أعتى طغاة التاريخ طريقة زواج أهلنا قبل عشرات السنين؟ لم يسأل قاسم أي سؤال، بقي مثل فتى مراهق يريد من الزواج أن يشبع نهمه الجنسي، روح شاب في الثامنة عشرة من عمره لا تبحث عن إجابات وتحليلات، هي تريد «الدخول» في معمعة

العمـل، تريـد أن يفتح لها الطريـق دون تأخير، تكره التأني والحوار والاستفسـار، يدخلون العمل المعارض ليس لأنه واضح بل لأنه مرغوب، لذلك لم يعترض قاسم على اكتفاء مسؤوله بمشاهدته من بعيد، ليقرّر بعدها صلاحيته في العمل مع التنظيم.

بعـد أيـام قليلة جاءه الجواب، لقـد قبلت عضوا في المجموعة، تسـلّم النظام الداخلي للتنظيـم، كان ثلاث صفحات فقط تشرح عمل التنظيـم وبرنامجه، الثلاث صفحات تكفـي بنظرهـم حتى تكـون مقنعة تمامـا في أن يقبـل العضو الانتمـاء لصفوفها، أخفاها قاسـم تحت جلد حافظة الـورق التي يكتب فيها دروسـه الجامعية، كان في المرحلـة الأولى في كلية الإدارة والاقتصاد، ومع هـذه الأوراق الثلاث دخل عالم السريّة والخوف والترّقّب، طلب منه مفاتحة أشـخاص يثق بهـم، اختار أربعة من أصدقائه المقربـين، ليدخلوا أعضاء في المجموعة، كانوا زملاءه في المدرسـة الإعدادية وأصدقاءه في نفـس الوقت، بـدأوا أولا بالـ«التثقيف» عـلى أفكار التنظيم، أعطيـت لهم مقدمة كتاب «فلسـفتنا» لمحمد باقر الصدر، المرجع الديني الذي أعدم على يد صدام حسين، ومؤسـس حزب الدعوة الإسلامية، كانت مقدمة الكتاب قد اختصرت في منشور حمل عنوان «أي نظام اجتماعي يصلح لقيادة العالم؟».

مساكين هؤلاء الشـبان تتعدّى أحلامهم واقعهم، يريدون تغيير العالم بل وقيادته، لا يتحدّثون عن اللحظة التي يعيشـونها هم، بل عن العالم بتعدّده واتسـاعه وتعقيده، إنهم يمسكون بروح الحقيقة وبرقبة الحقّ، تمنحهم بضع صفحات في الفلسفة القوّة لكـي يغيّروا العالم، مثلما تكتفـي قياداتهم بنظرة واحدة من بعيد كي يقرّروا قبول الشـاب من عدمه وتكفي أيضـا في تحديد صفات وقدرات الشـخص المنضوي تحت لوائهـم وبرنامجهم، الفلسـفة التي يريدون أن يعيدوا إنتـاج العالم وفقها، هي التي أحرقت آلاف الشـباب، وهي التي رمّلت آلاف النسـاء ويتّمـت آلاف الأطفال، الأوراق الفلسفية هذه كتبت على سبيل الجّدل ولكنّها وجدت نفسها مشروع ثورة أو موت لا جدل فقط، ومشروع دولة لا حديث نخب في أبراج عالية، الفلسفة التي أوصلت قاسم الى شـفير الموت كانت قد وضعت نفسها أو وضعتها مسارات التقديس ومحرماته في

مصاف التنزيل الرّباني والفيض الرحماني. فمن يملك إزاءها من العقول الفتيّة شيئا آخر سوى أن يقدم روحه فداء لها؟

لم يطلب منهم أي نشاط في العام الأول، مكتفين بالتثقيف والتهيئة الفكرية، والأوراق الثلاث التي درسوا فيها طرق قيادة العالم، لم تفعل شيئا سوى أنها أعادت عليهم ما يعرفونه مسبّقا، كرّرت محفوظاتهم ومروياتهم، وثلاث أوراق تكفي لتأكيد ما آمنوا به مسبّقا. أحد عناصر التنظيم، كان محتدما، ويستعجل«المواجهة» مع النظام، أعدم صدام حسين أحد أشقائه مطلع الثمانينيات بتهمة معارضة النظام، وكان ذلك كافيا لأن يجعله أشبه بالجالس على الجّمر، كلّ لحظة تمرّ به وهو العضو في تنظيم معارض لصدام دون أن يفعل شيء بمثابة طلعان روح، كان يكثر من لومهم وتقريعهم، ويردّون عليه، بأن ما باليد حيلة، نحن ننتظر التنظيم ليقرّر ما نفعل، لكن «المحتدم» ارتكب في يوم ما حماقته المتوقعة، فحمل لبيت قاسم كيسا يحوي قنابل يدويّة، ربما حدّد هو ساعة موت النظام ونهايته بهذه «الرمانات». لم يكن قاسم في البيت حين وصله صديقه حاملا كيسه، فسلّمه للعائلة، ومضى. فانكشف لأهل قاسم الطريق الذي يمضي فيه، استنفر والده أقرباءه، طالبا منهم الحديث مع ولده بأن يكفّ عن هذا العمل، لم يكن قاسم مهيئا لاستقبال حماقة صاحبه، فوجئ بالقنابل وهي تملأ منزله بالرعب، كان ذلك عقب انتفاضة عام 1991، ويومها كان النظام قد أذهل ليس العراقيين وحدهم بل العالم أيضا بحجم عنفه ووحشيته، لقد قتل في أيام قليلة أكثر مما قتل طوال سنوات حكمه، كانت إبادة جماعية لم يسلم منها حتى الأطفال والنساء والشيوخ، لذلك كانت قنابل صاحبنا قد فجّرت الرّعب في عائله قاسم، وفضحت نشاطه فاضطر الى حمل كيس الرمانات راميا إياه في مياه قناة الجيش، عاد الى المنزل واستعدّ لحرب جديدة مع أهله هذه المرّة، فبعد«يوم القنابل» هذا لا بد من أن تراقبه عيون أمه وأبيه بكلّ حزم وشدّة .

لكن كيف نجا من الموت؟ حين وصل الى الأمن كان أول سؤال تلقّاه من المحقّق هو عن علاقته بمجموعة ينتمي لها ابن عمه وبعض معارفه وهي ليست مجموعته،

كانت أسـئلة المحقّق تدور حول شخص ملاحق من قبل أجهزة الأمن المعنية لا تتوفر لديها معلومات دقيقة عنه، كان قاسم يعرف المجموعة التي سأله عنها المحقّق، وهي عملت مع نفس الجهة أو التنظيم الذي يعمل معه هو، ولكنها تركته بعد أن توسعت علاقاتها بجهات معارضة أخرى، وانكشـف نشـاطها للأمن بعد هـذا الانتقال، كان المحقّق يعرف أنّ قاسم لم يكن منتظما مع المجموعة الملقى القبض عليها ولم يتطرّق الى مجموعتـه هـو، كان مطمئنـا أن القبض عليـه هو للوصـول الى معلومات تتعلّق بشـخص مطارد، ولم يصلوا مع قاسم الى شيء، فتركوه في السجن مدة عام وأفرجوا عنه « لعدم كفاية الأدلة» .

«الأمن» على الأبواب

السلام الذي يطرحه الحكام الدكتاتوريون لا يعني أكثر من سلام السجون أو القبور.

جين شارب

كتابه «من الدكتاتورية الى الديمقراطية»

رفض شقيقي الأسير في ايران العودة الى العراق واختار الانتماء الى أحد الأحزاب الشّيعيّة المعارضة هناك، هذا ما عرفناه بعد سنة أو أكثر من نهاية حرب تحرير الكويت، فلاح انتمى الى المعارضة ولن يعود للبلد، هكذا ببساطة شديدة ترك وراءه أربعة «أوادم» ليقارع نظاما ليس في الأفق أدنى أمل بنهايته.

في نيسان 1994عدنا لمنزلنا في الكمالية الذي تركناه لمستأجر عقب نهاية الحرب مع إيران، وانتقلنا الى بيت شقيقي الأكبر في حي الأمين، وجدنا عقب عودتنا أن دائرة الأمن التي تشغل الطابق الثاني في بناية مركز شرطة الكمالية فتحت لنا ملفا أمنيا،

باعتبارنا عائلة معارضة للنظام، وبعد عودتنا لمنزلنا بقليل أرسل لنا شقيقي أصدقاء له من إيران لينقلوا لنا رغبته بنقل عائلته اليه، بدأت الخطوات ولكن العملية لم تكن سهلة فقد استغرقت ما يقارب العام، انتقل خلالها ملف إرسال العائلة الى أكثر من طرف، منهم أكراد وعرب منتمون لأحزاب في إيران. وفي مطلع العام 1995 تقرّر تهريب العائلة الى إيران، كان ذلك العام هو أقسى ما مرّ بنا أيام الحصار الاقتصادي، الجوع كان مذلّا، باعت الناس أثاثها، وفراشها، وشبابيك بيوتها، لتأمين رغيف الخبز الأسود، ضرب الجوع أعماقهم، انتشرت السرقات وأعمال النصب والاحتيال. كان كلّ شيء مختلفا في عالم الحصار، القيم الاجتماعية المتلبّدة والمنتكسة، الانسجام تحوّل الى تعارض، التّعاضد الى تضارب، التعاطف الى تكاره. لقد أحرقت المجاعة أفئدة الأطفال والكبار وكانت الحصة التموينية التي تمنحها الحكومة بأسعار مخفّضة جدا، لا تكفي سوى لبضعة أيام وعلينا أن نتدبر قوتنا بأي طريقة وبأي نوع من أنواع الطعام .

وصل الشخص المسؤول عن تهريب العائلة، وحدّد يوم 24 كانون الثاني عام 1995 موعدا للعملية، ذهبنا مع العائلة الى البصرة أنا وصديقي حسين، وخال الأطفال ومعنا المُهرّب، وهو يقيم في إيران كلاجئ ومعارض للنظام، وصلنا الى محطة قطار البصرة صباحا، كان الموعد مع أشخاص آخرين يتولّون المهمة قد حدّد عصرا، ذهبنا الى بيت أصدقاء لخال الأطفال، مررنا بالسوق لنشتري طعاما نمنع به حرج مستضيفينا، فشح الطعام لا يسمح بأن يقتحم ثمانية أشخاص مائدة عائلة فقيرة بحجة الضيافة، لم تقدم لنا العائلة أي شيء يزيد عن الذي اشتريناه نحن، كان شباب العائلة وهم ثلاثة، هاربون من الجيش ومطاردون، انتقلنا بعد الظهر الى محطة القطار وهو المكان الذي اتفقنا على تسليم العائلة فيه، جاء عدد من الأشخاص ليأخذوا الأطفال وأمهم، كانت الإشارة بيننا هي نصف صورة أحملها معي ويظهر فيها شقيقي والنصف الآخر يظهر فيه أحد أعضاء المجموعة.

نقلوا الحقائب الى سيارة بيك آب في دقائق قليلة، وقادوا الأطفال الى السيارة، رفض

محمد وهو الأصغر، الذهاب من دوني، أمسكني من يدي بقوّة، بكى بحرقة، خاف الأشخاص المسؤولين عن نقلهم، فالأماكن العامة لا تخلو أبدا من مراقبة عناصر الأمن وخاصة في مدينة مثل البصرة التي لم تزل تلعق جراح انتفاضتها على صدام، استسلم محمد في النهاية تاركا يدي وهي تمتد لتخفي الدمع الذي انهمر من عيوني. ودعتهم وتركت لنفسي حرية الإبحار في مدى هذا الخوف والألم الذي نعيشه، ترى كيف يمكن الخلاص؟ ما شكله ؟ من يقف معنا ليسمع أصوات انسحاق أرواحنا وأملنا بحياة كريمة وآمنة؟ طاردتنا اللعنة في كلّ تفاصيل حياتنا، رغيف الخبز، الأمان، بقايا الكرامة، لم يكن لنا حيلة في مواجهة هذا البطش والتنكيل، الاستسلام وحده لم يكن كافيا، كان هناك مدى آخر علينا الوصول له، ما هو ؟ ماذا بعد الفقر والذلّ وفوقهما سلطة غاشمة؟

مضت بضعة أسابيع بهدوء وسلام، وفي نهاية نيسان وتحديدا في 28 منه، وهو اليوم الذي تحتفل فيه السلطة بعيد ميلاد صدام حسين، طرق ضابط الأمن الباب علينا، خرج له والدي، سأله الضابط باستخفاف: أين أرسلت عائلتك؟ تلعثم والدي، فانهمر لسان الضابط بكلّ ما يملك من ألفاظ الإحتقار والإهانة. طلب منه ان يأتي شقيقي صلاح الى مكتب الأمن غدا صباحا، خرجنا نلوذ بإنسان يمنع عنا سياط رجال الأمن ولعنات سجونهم وتعذيبهم، كان الرعب غمامة تغطي البيت والأرواح والعقول، لم نكن نقوى على الكلام، الصمت كان بليغا.

هل نملك خيارا آخر سوى أن نترك شقيقي يواجه مصيره المؤلم؟ كيف يمكن النجاة من بطش رجال الأمن، وبيدهم الموت والحياة؟ اتصلنا بأحد الأشخاص وهو يرتبط بصداقة مع الضابط المسؤول عن المكتب، قال لنا احضروا بعض المواد الغذائية، كيس رز، كيس طحين، علبة زيت، بعض الحبوب، وأشياء أخرى، الطعام في أيام الجوع هديّة لا تقدر بثمن، حملها له صاحبنا وطلب من شقيقي الذهاب دون تردّد، وفي الصباح كان في دائرة الأمن يتلقّى سيلاً من السباب والضرب والتخويف رغم الهدية، فقد منعنا الوسيط من أي حديث مع أي شخص حول الواسطة، قال إن عليه

أن يذهب وكأنه لم يقدم أي رشوة، قال لهم شقيقي بأن زوجة أخي تركت البيت ولا نعرف وجهتها، لا تثبت هذه الكلمات براءتنا، وربما ضحكوا منه لقد نجح الرز والطحين في «سد أفواههم» عن لحمنا وليس «كذبة» أخي المضحكة.

كان الحصار الاقتصادي قد فتّت شيئا من قوّة وبأس دوائر الأمن، كانت رواتب المنتسبين للأجهزة الأمنية شحيحة مثل بقية موظفي الدولة، فحطّم جوعهم سدود الإجراءات التي يتبعونها والقضايا التي يلاحقونها، وإصبح الإبتزاز مهنتهم التي يعيشون منها، كانوا يتركون الكثير من القضايا معلقة وغير مبتوت بها، فهي الطريقة المناسبة «لحلب» الناس، وهذا من حسن حظنا بالتأكيد، فلو كانت قضيتنا قد وقعت في الثمانينات لكنّا اليوم عظاما في مقبرة جماعية، فتح لنا هذا الاستدعاء بابا لم يتوقف حتى إنهيار النظام، فكان كلّ ضابط جديد يستلم مهمة مكتب الأمن يعيد فتح ملفات العوائل المدانة بمعارضة السلطة، ورغم فقرنا الشديد لجأنا الى حيلة المضطر والدواء القديم والناجع، الرشوة.. نشتري حياتنا.

ما أثار انتباهنا في تحقيق الأمن مع شقيقي، هو دقّة المعلومة التي لديهم، باستثناء خطأ وحيد، هو اتهام أخي صلاح بإرسالهم، أما بقية الرحلة فكانت منقولة لهم بشكل صحيح تماما، ظلّت ملاحقتنا بين مدّ وجزر، مثلما ظلّ الواشي مستترا عنا، وبعد أكثر من ثلاثة أعوام، حمل لي صديق له علاقة قرابة بضابط أمن وصل قريبا للدائرة، خبر معرفته بمن وشى بنا، كانت امرأة كبيرة، لي صحبة طويلة وعميقة مع قريب لها يعرف قصة ارسال العائلة، أوصلت هذه العجوز قصتنا للأمن، لإبعاد الأذى الذي تعتقد أنه سيصيبها من جراء تهريب عائلتنا، كان لنا فعلا نوع من الارتباط «شبه الحكومي» بها — يصعب علي كشف نوع الارتباط بشكل واضح، حفظا لأشياء لا أرغب بكشفها — إلا أن الأكيد هو أن احتمال تعرضها للمساءلة من قبل السلطة بعيد جدا، وعرفت حينها لماذا أبعدتني عن الموضوع برغم أنها تعرف بأنني من ذهب مع الأطفال الى البصرة وليس شقيقي، لم أخبر أهلي بالأمر وظلّ حبيس صدري، خوفا من مشاكل قد تحصل وتعقّد وضعنا مع رجال الأمن، ومنها على الأقل أن يصل الى

ضابط الأمن «عتاب» أهلي لها، وخبر معرفتهم «بجريمتها» وحينها سأضع صديقي موضع اللوم وربما المساءلة من قبل الضابط نفسه، وأضع أهلي مرّة ثانية بمواجهة أشدّ مع الأمن، فمعرفة «مصادر» الأمن ووكلائه حدث يرقى لمستوى الجريمة في نظر السلطة، لذلك اخترت الصمت دون تردد، وما ضاعف محنتي مع «سري» هو أني كنت التقي بهذه المرأة بشكل يومي تقريبا، إلا أني لم أشر لها بأي شيء يوحي بمعرفتي بفعلتها الخسيسة، خوفي حملني على الصمت، لكني كنت اتحدث لنفسي حين أراها، ترى هل توقفت ولو للحظة واحدة وأنت العجوز التي تنتظر الموت حين تحثين الخطى صوب دائرة الأمن لتشي بنا؟ هل التفت الى ما سندفع من ثمن؟ وهل التفت الى عمرك الذاهب الى اللحد؟ كنت أرى فيها شهادة كبرى لنجاح صدام في تحويل الناس الى دمى، مغيبي الوعي والضمير، والى أدوات تجسّس لا تتردّد في إيصال الناس الى المشانق والسجون.

فتح فلاح لنا بابا جديدا من أبواب جهنم، ليس بتهريبه لعائلته الى إيران بل كان هذه المرّة من خلال التلفزيون نفسه، وهل هناك فضيحة تعدل فضيحة الشاشة؟ كان حظنا العاثر قد حملنا فوق ما نحتمل حين التقطت الناس بث التلفزيون الإيراني في بغداد، يومها كان يبثّ أسبوعيا برنامجا تلفزيونيا، يستعرض نشاط الفصيل المعارض لصدام الذي ينتمي له شقيقي، وهو المجلس الأعلى للثورة الاسلامية في العراق، وفي هذا البرنامج كان يظهر فلاح في التايتل وهو يقف على ظهر آلة عسكرية تستعرض أمام منصّة، ويظهر وجهه في اللقطة الى الحدّ الذي تتبيّن فيه ملامحه بوضوح، ولا أحصي عدد المرّات التي أخبرني فيها أحد من الجيران أو الأصدقاء أو المعارف بما شاهد في البرنامج، إلا إن أحدهم تمادى في السؤال، الى الحدّ الذي يمكنني أن أقول عنه إنه كان أحمق من شاهدت في حياتي، كان يعيد عليّ كلما شاهدني السؤال نفسه:

ــ شفت فلاح بالبرنامج مال الجماعة؟

نعم، أعيد عليه الجواب وأمضي، ولكنه يعيد الموضوع بأكثر من طريقة كلّما اتيحت له الفرصة، كانت رؤيته تصيبني بالضيّق الى الحدّ الذي أشعر معه برغبة عارمة

تدفعنـــي الى الإطبــاق عــلى فمه، أعيد له كلمــة «نعم» وأنا أكظم غيظــي كي لا يطفو فتــزداد حينها حماقتي معه أو حماقته معي، ويحصــل ما لا يحمد عقباه، في يوم ما قررت أن أنهي هذا الإسفاف والحمق، لم اتردّد، قلت له:

ـــ كافي، دمرت أعصابي، ألعن ابو فلاح، لا بــو المعارضة، ولك خبلتني يومية نفس السؤال، ما مليّت؟

كان المســكين يفتخر بشــقيقي ويعدّه بطلا حين اختار هذا الطريق، وكنت ألعنه على ما جنى علينا بسبب بطولة لا تعني لنا سوى موتا بـ«التقسيط».

حــين أوصلت عائلة شــقيقي الى الأشــخاص الذين نقلوهم الى إيـران كنت هاربا من الجيــش، ومع الهــروب كان الوضع المعــاشي والصحي والأمني الذي أعيشــه لا يسرّ صديقــا، كنت خاوي الجيب والأمــل والصحة، وأعيش خلف جدران بلد نخره حصار اقتصادي أممي خانق، كانت هذه المســارات المؤلمة تشــكّل في الحقيقة أقصى منحدر يمكن لإنسان أن يعيشه في ظلّ سلطة تقمع وتنكل بمواطنيها بتلذّذ وإصرار غريبين، بين الداء والأعداء ابتدأت القصة أو ســتنتهي لا فرق هكذا كنت أقول مع نفسي، وكأنّ كلّ ذلك لا يكفيني كي أشــعر بالتهديــد والرعب، فأضفت لقصتي نوعا آخر من الهمّ كان هذه المرّة بطعم تبدو معه الأشــياء المريرة التي كنت أعيشــها نوعا من التســلية، طلب مني الشخص الذي كلّفه شقيقي بنقل الأطفال اليه والذي ظلّ يتردّد على بغداد باستمرار أن أعمل أو انتمي الى تنظيمه الإسلامي المعارض والمستقر في إيران.

كنــا نجلس في حدائــق ابو نؤاس وتحديدا في الجهة المقابلة للشــارع المؤدي لســينما بابل، كان الوقت عصر يوم صيفي، ودار الحديث حول السياســة ومستقبل البلد، ما شــدني اليه هو حيويته المفرطة وشعوره بالنشوة وهو يمارس دورا خطيرا ومهلكا، قلت له:

ـــ ما المطلوب من المنتمي لتنظيمكم؟

فقال: نريد فقط أن ترسل لنا من الأخبار ما تعتقد أنه مهم لعملنا، مثل إعدام شخص، اعتقــال آخر، تحرّك حزبي واســع، أو أي شيء تعتقد أنــه ينفع المعارضة العراقية في

توصيل «مظلومية» العراقيين الى العالم.

بـدت لي المهمة سـهلة بل ربّما رائعة أيضا، وهي بحـدّ ذاتها لا تخلو من نبل المقصد والمطلـب، أعطاني بضـع عناوين في أوروبا وتحديـدا في هولندا والدانمـارك وأرقام تليفونات فيهما وفي الأردن أيضا، دخلنا الى سينما بابل لنشاهد فيلما لم أعد اتذكر اي شيء حولـه بل لا اتذكر حتى إن كان فيلما عربيا أو هنديا أو اميركيا، اذهلتني رغبته بدخول السـينما، فحسـب تصوري يعد دخول السـينما مخالفا لما اعتقده من تشدّد ديني يمارسـه أعضاء التنظيمات الإسـلامية، ودعني صديقي عقـب ذلك اللقاء، ولم تمض سـوى أشـهر قليلة حتى عاد الى العراق، وكنت حينها قد أرسلت الى العناوين الخاصـة التي أعطاني إياها، رسـالة أوصل لهم فيها بعض الأخبـار، منها ما يعتقد أنـه سـجن سرّي، في مكان قريب مـن منطقتنا، كنت أكتب فيهـا عنوانا مغلوطا لي، وأرسـلها، إبعادا للشرّ من مركز بريد بعيد عن بيتنا، وتحديدا من مركز بريد شـارع حيفا كون هذا الحي يسكنه أشخاص قريبون من النظام أو مرضي عنهم .

حين إلتقيته في المرّة الثانية طلب مني أن نذهب لنشـاهد مقر منظمة مجاهدي خلق في سـاحة الأندلـس، أخافني طلبه الغريب هـذا، لم يتردّد صاحبي حين سـألني عن إمكانيـة الدخول الى بنياتهم، ارتبكت بشـدّة من صراحته وزاد مـن ارتباكي حديثه المبـاشر عن الثمن الذي يمكن أن يعطيني إياه فيما لـو نجحت في إدخاله الى البناية، وشـاءت الصدف أني كنت قد فاتحت صديقا مقرّبا مني بعملي مع الجهة السياسـية وعرضـت عليه فكرة الانتمـاء فقبل دون تردّد بل بتهور يزيد عـلى تهوري برغم أنه متـزوج وربّ عائلة كبيرة، وكان صاحبي هذا قد رسـت عليه مقاولة لبعض الأعمال الإنشائية داخل بناية مجاهدي خلق، قلت لصاحبي المعارض إني استطيع إدخاله الى البناية، كانت فرحته شديدة بالخبر، لكني إمتنعت عن ذلك، عرض علي مبلغا من المال كان في نظري أكثر من جيد، وزاد تمنعي بسـبب خوفي الشـديد من العواقب، تركني طالبـا منـي أن افكر بالموضوع على أن نلتقي غدا، ومـن جانبي ازددت عنادا، وكنت كلمـا تصورت نفسي وأنا بين قضبان السـجن أو على مشـنقة الموت أجد نفسي وهي

تلوث برغبتها الحقيقة بالابتعاد عن الشرّ والعذاب، يكفي ما أنا فيه، فلماذا أزيد على نفسي حملا جديدا، فضلا عن ذلك كان خوفي من تبعات أرسال الأطفال الى والدهم يغطيني بهموم وآلام جمة، قلت لصاحبي إني ارتعب كلّما تصوّرت نفسي بين جدران السجن، سخر مني فعلا، قال أنت الآن محكوم بالإعدام للكثير من الأسباب، هارب من الجيش، أرسلت أطفال أخيك الى إيران، تعاونت مع جهة سياسية محظورة، وعملت معها فعلا، فلماذا تخاف من نشاط آخر يؤدي الى الإعدام مثل بقية ما فعلت؟ رفضت عرضه ورجوته أن لا يزيدني عبئا ويكفيني ما أمرّ به، وفعلا لم أره بعد ذلك.

لم قبلت بعرض «المعارضة» ؟ سؤال يتردّد في ذهني حتى اليوم، ما الذي طمأنني؟ لماذا كنت أدسّ رأسي بالتراب مثل النعامة الخائفة؟ كيف قبلت بفكرة العمل السياسي المعارض وأنا الذي تجرّعت الكثير من الألم بسببها في الماضي برغم أني كنت مستمعا فقط ؟ لماذا كنت هشّا وسريع القبول لعمل أعرف مسبّقا انه لا يجرّ سوى الندامة والخسران؟ هل يمكن لي أن أبرّر قبولي بالعمل مع جهة سياسية معارضة لصدام؟ كنت اعتقد أن نوع العمل المطلوب مني كان واقعيا بعض الشيء أو ربّما مثمرا، فلم يطلب مني الانضمام لتشكيل واسع، ولم يكن هناك مسعى حقيقي للعمل بطريقة حزبية تقليدية، ولم يدّعِ صاحبي أن تنظيمه يعمل بجد على إسقاط النظام، أو يرغب بالعمل المسلح الفعلي، من تدريب على السلاح وإخفائه وإدامته وما الى ذلك، ربّما كانت فكرة اقتصار العمل على إيصال المعلومة الى جهات خارج العراق تكفي لفضح النظام وتوثيق جرائمه وهذه تأكل في النهاية من جرف صدام وتقوي صفوف ضحاياه وتكسب لهم تعاطفا عالميا، لكن طلب صاحبي مني الدخول الى بناية مجاهدي خلق هدم وبطريقة فظّة أي بقايا لصورة جميلة للمعارضة العراقية.

رفضت طلب صاحبي المعارض بإدخاله الى مقر المعارضة الإيرانية، ليس بسبب قوّة الشعور الوطني لديّ ، أو أي معنى يدور حول هذه الصورة الوطنية. أبدا، لم أرفض إلا بسبب ندمي على ما جنيت على نفسي حين قبلت أن ألعب لعبة لست أهلا لها ، كانت رغبتي الملحّة والصادقة بمحاولة إيقاف الخوف الذي بدأ يأكلني كلّ يوم هي

التـــي دفعتني الى أن أرفض طلـب صاحبي، كنت قد ندمت فعلا على قبولي للعمل مع المعارضة رغم بســاطته، ندمت على استهتاري وتهوّري حين رضيت بدور لم أحسب لعواقبــه حســابا دقيقا، كنت ألعن نفسي وألعن إيران والعــراق كلّ يوم لأني تورّطت وبدون تردّد أو إكراه في لعبة لا تعود عليّ سوى بالخوف والرعب.

الهروب من الخاكي

أما أنا فقد عشت عقودا خرافية من الخوف، ومن الرعب، فــي ظلّ الفاشـية الصدامية، حتى أصبــح الخوف عندي ضربــا من المتعة، ولا أعرف فــي الواقع كيف نجوت من فكّ الماكنة القاتلة.

من رسالة للروائي جليل القيسي
الى صديقه مؤيد الراوي

في تشريــن الثاني عام 1992 كان الطبيب قد شـّخص إصابتي بثلاث قرح فاعلة في الإثني عشري، بعد عملية فحص بجهاز الناظور كانت مؤلمة أشدّ الألم، بلعت خلالها أنبوبا من البلاستك خدش أحشاء رقبتي الداخلية، فاختلط الدم بالسوائل.
زيارتي للطبيب جاءت بعد أن أخبرت صديقي، الدكتور حمودي، أن أحشائي ترمي ســوادا داكنا ومتحجرا، تحدّثت معه في الليل، فأبــدى تخوفه من هذه الأعراض، كان

يومها في المرحلة السادسة من الدراسة في كليّة طب بغداد، ويكمل دراسته العملية في مستشفى مدينة الطب، طلب أن نذهب صباح اليوم التالي للمستشفى ليعرضني على الأطباء الاختصاصيين، مرجحا دخول قرحتي مرحلة خطيرة من التدهور، قال إن أعراض مرضي تسمى في الطب «ملينة» - بفتح الميم وكسر اللام - ضحكنا على التسمية، فهي تشبه ما نحن فيه من ملل، وكان الملل يملأ حياتنا ويفيض.

فعلا أكد الناظور تشخيصه، كان الألم في أحشائي فظّا ولا يتوقف، وفي مرّات كثيرة كنت لا أفقد قواي على المشي والحركة حسب بل حتى على الكلام، فمع كلّ حرف يخرج مني، كانت أحشائي تهتز وتتقلّص، حتى يصعب عليّ التنفس، وبسبب الإصابة، منحت مطلع العام 1993 من المستوصف القريب منا «دفتر الأمراض المزمنة». كان الدفتر محاولة من الحكومة لتأمين الأدوية الضرورية على الأقل، وفعلا نجحت في مسعاها بشكل كبير، يومها كان الحصار الاقتصادي قد دخل سنته الثالثة، تاركا الناس في حيرة وخوف من تدبير أساسيات حياتهم من رغيف الخبز الى الدواء، ورأت الحكومة أن تسيطر على حركة الدواء وتقلّل ما أمكنها من استيراده.

كان دفتر الأمراض المزمنة عبارة عن كتيّب صغير يكتب فيه اسم المريض، ونوع المرض، وكمية الدواء التي يستلمها شهريا، وعلى ضوئه يعطى المريض الدواء بأسعار رمزية، منح هذا المشروع المرضى بعض السكينة، وضمن لهم علاجا رخيصا، يمنحني «دفتر المزمنة» شهريا ثلاثة أو أربعة أشرطة من حبوب «التاكميت» أقلّل فيها من غضب الأحشاء وألمها. كانت حبّاتها القليلة مثل يد أم حنون، تلمس الجرح برفق وحبّ، فتعيد لي سكوني ورغبتي بالتواصل مع الحياة دون ألم .

كان الشائع حول مرض القرحة بأنّه نتاج تدهور الوضع النفسي، والقرحة من جانبها تزيد من تدهور هذا الوضع، مرض تتعاقب الأدوار فيه بانتظام، وكنت من «أنصار» هذه النظرية والمدافعين عنها، قبل أن تثبت فشلها كما يقول الأطباء، ويومها كنت كمن لم يضف له هذا التفسير للمرض أي جديد، فوضعي النفسي والمعاشي كان في الهاوية، وترك أثره السيّئ على صحتي، ومع المرض بت مستلبا من هذا العالم،

وأشعر بهوّة اغترابي السحيقة ، كان طعمها المرّ يدفعني نحو تخوم الحياة ويعيدني تشبثي بها نحو المركز، ففي الوقت الذي كنت أكمل دراستي الجامعية، إلا أنني لا أقوى على التواصل معها بشكل اعتيادي. «مركزي» المالي البائس كان يرميني بعيدا عن أبوابها، ويقف فقري عائقا حتى عن وصولي الى بنايتها، أيام كثيرة لم أملك فيها ما لا يكفي لدفع أجرة سيارات النقل العام، وأبقى حبيس البيت، أشاهد في عيون أهلي لومهم على هروبي من الحياة عبر الدراسة الجامعية التي أهرب منها هي الأخرى الى حيث لا أدري، كان شعوري باليأس يبني في داخلي حاجزا من الرفض والكآبة، بضعة أصدقاء فقط هم الذين منعوا هروبي النهائي نحو داخلي مانحين إياي فرصة وفرحة البقاء على السطح .

أكملت دراستي الجامعية في سبع سنوات، رسبت في المرحلة الأولى، وكان ذلك عام 1988، لم أكن جادا في رسوبي ولا راغبا فيه، أما كيف يمكن لطالب جامعي أن يجتهد بالرسوب، فلهذه قصة يعرفها طلاب الجامعات إبان الحرب مع إيران، فقد منعت الحكومة الرسوب أكثر من سنة، بعد أن اكتشفت أن الطلبة يهربون من الحرب عن طريق الرسوب في الدراسة، فكلّ سنة يتأخر فيها الطالب عن إكمال دراسته تعني سنة أخرى من الحياة المدنيّة.

أما سنوات رسوبي الأخرى فلا زلت حائرا في تفسير سببها حتى اليوم، هل كنت أهرب من الحرب؟ أبدا، فقد رسبت في العام 1991 وهو الذي وقعت فيه الحرب مع المجتمع الدولي لكنّها لم تستمر سوى أربعين يوما، ألغت الحكومة رسوب الطلبة في ذلك العام وعدّته «عدم رسوب» ومنحتني فرصة رسوب مرة أخرى، وفعلا كرّرتها مرّة ثالثة. هل كنت كسولا وغير مجدّ الى هذا الحدّ؟ لماذا لم يدفعني تدهور وضعي المالي نحو الإسراع في إكمال الدراسة؟ غالبا ما فسّرت هذا الفشل الدراسي بأنه نتيجة ليس فقط لكسلي وعدم جدّيتي بل ربّما دفعني لذلك فقدان الأمل بالمستقبل، ليس مستقبل الدراسة فقط بل في مستقبل البلد. لم تكن الشهادة الجامعية يومها تحظى بأي تقدير، سواء من السلطة أو من المجتمع نفسه، كانت المقولة الساخرة: « خريج،

مريج، الكلّ يشرب من البريج» تتردّد على ألسـنة الناس وخاصة الفقراء كلّما سمعوا كلمة خريج، وهذه المقولة الشـنيعة في استهتارها بالعلم والدراسة كانت نتاج الحرب الطويلـة مع إيـران، وقيل إن مطلقهـا كان عريفا يـدرب خريجي جامعـة التحقوا بالجيش، فطلبوا منه احترام شهاداتهم الجامعية على الأقل، فردّ عليهم العريف بهذه المقولـة، فتداولها المجتمع تعبيرا عن تهكّمه بالدراسـة، مـا قاله العريف كان طريقة تفكير المجتمع، فالشـهادة الجامعية لا تدرّ نفعا ماديـا لحاملها، ولا تمنع عنه جوع الحصار وموت الحروب.

في العام 1994 أنهيت سنوات دراستي المتلكئة، وكان من المفترض أن التحق بالجيش مدة 18 شـهرا وهي أقلّ من فترة الخدمة العسـكرية الاعتياديـة، كان وضع الجيش يومها يبعث على الإشـفاق، بؤس الجنود والآليات والمعسكرات هو صورة لبؤس البلد بعـد الحصار، قلّة الرواتب أوصلت الجنود الى حدّ الاسـتجداء في الأسـواق وكراجات النقل، وكان منظر الجندي وهو يمدّ يده للناس مألوفا الى حدّ كبير، الراتب الشهري لا يكفي سـوى بضعة أيام، وعلى الجندي أن يبحث عن مصادر»تمويل« أخرى، ويتدبر أمره بالطريقة التي يريدها، منهم من لجأ الى الاسـتجداء، وبعضهم اعتمد على أهله، كان الجنود الذين يخدمون بعيدا عن مدنهم هم أكثر الذين تعرّضوا للجوع والاذلال، فراتبهم لا يكفي أجور نقلهم الى مدنهم .

في غروب يوم صيفي شـديد الحرارة، كنا مجموعة أصدقـاء، بيننا اثنان من الأطباء، هما دكتور حمودي ودكتور خضير نقف أمام بناية بريد بغداد الجديدة، شاهدنا على بعد أمتار قليلة منا جنديًا يسـقط على الرصيف، مشـينا نحوه. كان جسـده النحيل أكثـر ما أثار حزننا ودهشـتنا، كان ركاما وأطلالا، يحمل بيده كيسـا يحوي أوراقا، إقتربنا منه، مدّ دكتور خضير يده ليجسّ نبض قلبه، مضت بضع ثوان، لكنها طويلة حقـا، قال إن نبضات قلبه بطيئة، يبدو أنـه لم يأكل منذ وقت طويل، تحرّك الجندي مـن مكانـه، رفعناه بقوّة من الأرض، لـم يكن يقوى على الوقوف، وبعد أن اسـتراح عـلى الرصيـف، عرفنا منه أنه يسـكن محافظة جنوبية وسـيق الى الجيش في بغداد،

والأوراق التـــي يحملها معه هـــي تقارير طبية، يريد عرضها عــلى لجنة طبية تقضي بأمر استمراره في الجيش من عدمه، فتح الطبيب كيس الجندي وأخذ يقرأ، رفع عينيه الينا، كانتا نصف مفتوحتين، تغطيهما غمامة حزن، قال إنه مصاب بالسرطان، تعمّد عدم إســماعه، وحين عرف الجندي أن الذي فحصه طبيب، قال وهو يسحب الكلمات من جوفه كالجثث. أنا جندي في مركز تدريب النهروان، واكتشف الأطباء مرضي بعد إلتحاقــي بالجيش، وأنه بـدأ يراجع الأطباء، ويواصل طريــق اللجان الطبية الطويل ليثبت إصابته بالمرض، وأن الروتين أخر معاملته، كان يريد إنهاءها بسرعة كي يزيح عن نفســه تعب الجيش والفقـر، يريد أن يكمل أيامه القليلــة المتبقية في هذه الحياة بهدوء وســكينة، أعطيناه شـيئا قليلا من المال، مضى ومضينــا، لذنا بالصمت بعض الوقت، دخلنا الى أرواحنا، تلمّسنا قسمات حزنها ويأسها.

يشــبه مصيرنا مصير هذا الشــاب الــذي يصارع السرطــان وقمع الســلطة، وجوع الحصار، ومراقبة الأمن والحزب، وفقر الحال، وقسوة الحياة العسكرية، هو مثل كلّ المساكين، يخاف أن تضيف السلطة ذلّا فوق ذلّه، فتسجنه فيما لو بقي في بيته ينتظر ملك الموت، يعرف أنه ســيصبح «فرار» حين يــترك معاملة إثبات إصابته بالسرطان، ولــن يكمل بقية أيامه بســلام وهدوء، وســيلاحقه البطش الى الســجن، لا أحد يعينه على بلواه، وعليه أن يمضي بما بقي من حياته دون خســائر أخرى تضاف لسلســلة خسائره الجسيمة، كان يريد إبراء ذمته مع السلطة والأهل، مع صدام والمجتمع، يريد إكمــال رحلته القصيرة بالطريقة التي تنتهي بها حياة الأصحاء. من يعزيه في محنته ومصابه؟ لا أحد أبدا.

قبل اســتدعائي للخدمة بوقت ليس بالقصير، حســمت أمر هروبي من الجيش، كنت أعرف الثمن الباهظ لهذا القرار، فهو مدمّر بكلّ الأحوال، السجن والمطاردة والخوف، كلّها كانت نصب عيني، وباختصار، كان هروبي في حقيقته صورة من صور الإنتحار، لعبت بورقة إصابتي بقرحة الإثني عشري، كانت بالنســبة لي فرصة ليس للنجاة من الجيش بل على الأقلّ تأخير التحاقي به، فاحتمال إعفائي بشكل نهائي منه وحسب ما

تحدّده قوانين الخدمة والإعفاء منها ليس سهلا، لكن القرحة تؤخر سوقي الى الجيش مدّة ستة أشهر ويتكرّر لمرّة أو مرّتين، وفيما لو أثبت الفحص الأخير بقاء القرحة على حالها، يمكن أن أعفى من الخدمة .

قدمت أوراقي الى مستشفى الرشيد العسكري محالا من تجنيدي، وبعد مراجعات تدمي القلب، بدأت من أيلول 1994، حدّد لي تاريخ عرضي على لجنة طبية معنيّة بالموضوع التي أحالتني الى الفحص بالناظور، كان ذلك في نهاية تشرين الأول وقبل الفحص بأيام قلائل، نصحني أصدقائي من الأطباء بأن استخدم «الأسبرين»، لأنه يعمل على زيادة شدّة التقرح داخل الإثني عشري، مؤكدين أن العلاج بحبوب التاكميت ربما نجح في شفاء القرحة أو قلّل من أعراضها وبالتالي سيقلّل ذلك من إمكانية كشف القرحة بالناظور بشكل واضح ومميّز، وقد تكون النتيجة اعتباري معافى من القرحة وحينها سأساق الى الخدمة بلا ريب، وفعلا تناولت الأسبرين حتى يوم فحصي بالناظور، الذي منعني طبيب اللجنة التي أحالتني الى الفحص من تناول أي طعام أثناءه، أخذت في الصباح حبة اسبرين وتوجهت للمستشفى، قلت مع نفسي ستذوب هذه الحبّة الصغيرة بفعل خواء المعدة وامتلائها بالحوامض، دخلت ردهة العمليات، وضع الطبيب أنبوبة البلاستيك في حلقي، هي نفسها التي مررت بها قبل سنتين، وعاد الألم نفسه، لكنه ألم الفرج ربما، لذلك كنت هذه المرّة سعيدا به، فهو بوابتي نحو جنّة الخلاص من الجيش، كان الطبيب الذي فحصني كئيبا وشديد الانكسار، أنهى عمله بعد دقائق، نزلت من سرير الفحص، مضى الى منضدة في نهاية القاعة، نظر لي بحدّة وقال:

ـــ شارب اسبرين ؟

كنت أعرف أن أطباء اللجان العسكرية يورّطون المرضى في الكلام عن طريق اللعب على وتر جهلهم بوسائل الفحص الطبي وثقتهم الواسعة بالأطباء. كنت أعتقد أنه يريد توريطي عبر هذا السؤال، فهو يعرف أن المرضى من الجنود مستعدون لفعل أي شيء من أجل إثبات مرضهم أو زيادة أعراضه حتى وإن وصلت الى حدود الخطر،

فالمصاب بالسكري مثلا، يتناول حين يعرض على لجنة طبية كمية لا بأس بها من «الزلابية» أو «البقلاوة»، ليرتفع منسوب السكر ويثبت مرضه، استندت في جوابي الى هذه النظرية، فقلت له بثقة:

— كل شي ما ماخذ دكتور.

صرخ بوجهي قائلا: اطلع برة، تضحك عليّ ابن الكلب؟

خرجت مسرعا مثل سارق عفا عنه المسروق، لم أكن حزينا على نتيجة الفحص أو على سبابه المقذع، ولست معنيا بهذا الطبيب الذي يرتدي الزيتوني، وأيا كانت الكلمات التي سيدونها على صفحتي بعد الفحص فلن يتغيّر قرار هروبي، لم أعد الى أخذ نتيجة ما كتبت اللجنة عن مرضي، ولم أعد الى التجنيد، ولا الى المستشفى ومضيت الى زوايا رغبتي وعوالمها وآلامها.

كان نضوب وقود نزواته الحربية هو أكثر ما يخيف صدام حسين، لذلك مضى دون تردّد نحو عسكرة المجتمع والدولة والحزب، لم يجد من يعارضه، كان حرصه على بقاء رصيده عاليا من اللون الخاكي، والسلاح، يمنحه أمنا وطمأنينة على كرسي سلطته، هو عدو للسلام والطمأنينة، وسلاح هذا العدو هو المزيد من الاستعباد للناس.

كانت منظمات حزب البعث قد تحوّلت الى أوكار للتجسّس ومراقبة الناس، وهي في نفس الوقت مسؤولة عن مداهمة بيوت الفارّين من الجيش والمطاردين من السلطة، تلاشت هويّة البعث الحزبية، وتحوّل الى جهاز شرطة عسكرية، فكان عليّ أولا، أن أحذر هذا الجهاز المستنفر لخدمة أمن السلطة، وعليّ أيضا، أن أراقب دوريات الانضباط العسكري المكلّفة بمهام متابعة الجنود، سواء الهاربون منه أو المستمرون في خدمته. يعتمد هذا الجهاز على مبدأ المباغتة في عمله، يقطع جنوده بسياراتهم العسكرية الشوارع بشكل مفاجئ، للتدقيق في هويات الخدمة العسكرية، ومن يلقى القبض عليه يرمى في واحد من أكثر السجون قسوة ووحشية في العراق، كان سجن «التحريات» في معسكر الرشيد، أحد فصول الظلام العراقي التي لم يكتب عنها ولم تكشف حقائق ما جرى فيها من تعذيب وانتهاكات للإنسان، في ذلك السجن مات

مئات الناس بسبب ما تعرّضوا اليه من تعذيب وضرب، كان مرعبا وخاصة في سنوات الحصار، ويصعب على من لم يذق مرارته أن يجعل من كلماته مرّة مثل حقيقة ذلك السجن، وبرغم أنه «موقف» أو سجن مؤقت تنحصر مهمته بإلقاء القبض على الفارين، أو المتغيبين من الجيش، وإرسالهم الى وحداتهم، أو تجانيدهم، إلا أنّ الأيام القليلة التي يتوقف فيها من يلقى عليهم القبض، كانت كافية لأن تختصر كل ما يمكن أن يجري في أبشع دوائر الأمن.

لم أكن حتى لأفكر مجرد تفكير بأن «البطولة» هي الدافع وراء قرار رفضي للخدمة العسكرية، المخاوف من القمع الذي يمكن أن اتعرض له لم تكن عني وأنا أقرر الهروب من الجيش، لكني لست معنيًا بفكرة الشجاعة، ولا راغبا بها، وكان لتعرّضي ولو لمرّة واحدة للاعتقال والإهانة كافيا لمنعي من الاستمرار بهروبي، بل قد يشعرني بالندم عليه. قامرت بالكثير من الأشياء حين هربت من الجيش. السجن، البطالة، الخوف، الجلوس في البيت، الألم الذي أسببه لعائلتي، وهي أثمان باهظة دون شك، لكني لم اتوقف عندها، المقامرة بكل هذه الأشياء، كانت أقرب الى الحمق منها الى العقل، فلماذا فعلت فعلتي؟

كان الغضب من المصير الذي وصلنا اليه دفعني مثل الآلاف غيري نحو الخيار الأكثر خسرانا، وهو خيار المواجهة العنيف والباهظ الثمن، وحين أنظر اليوم الى ما كان يمكن أن يكون عليه مصيري، ألمس بيدي حجم اليأس والغضب الذي عشناه تحت ظلّ سلطة صدام حسين، كان يأسنا كبيرا من إمكانية أن تغيّر السلطة سلوكها ولو بأدنى حدود التغيير، لذلك خرج قراري من صخب الغضب لا من هدوء العقل.

في آب من عام 1994 أصدر صدام حسين قرارا هو أحد أكبر الجرائم التي ارتكبت بحقّ العراقيين، وذروة الاستهانة بكرامة الإنسان، فقد أمر بقطع صيوان أذان الهاربين من الجيش، بشاعة هذا القرار هي في الحقيقة انعكاس لبشاعة روح صدام نفسه، أصاب القرار الجميع بالصدمة، يومها كنت على وشك الدخول في عش «الفرارية». ضرب قرار قطع الأذن عنادي وإصراري على الهرب في أساسه وأحبط

عزيمتي على الاستمرار فيه، لكني سرعان ما عدّت الى نفسي مذكرا إياها بأنه لم يعد هناك ما تخسره، أما تشويه الأذن فيمكن تفاديه بتغطيتها بالشعر، أذن تقطع ما المشكلة في ذلك؟! أعرف تماما أن البشر الأسوياء لا يفهمون لغة العدميين، ويصعب على من عاشوا في أجواء الحرية والكرامة الإنسانية أن يلمسوا ما يتركه الجّوع والذلّ والخوف على أرواح أناس وجدوا أنفسهم عراة من الأمل والقوّة، كنا ضحايا صراع مرير ودموي مع سلطة تقطع الرقاب والأرزاق والأذان، تسجن، تكيد، تتهم، تُهجّر، تقتل، تتجسّس، فأي خسارة يمكن لضحاياها أن يعدوها أو يتوقفوا عندها، شعرت يومها أني مع هروبي من الجيش سأكون مستعدا تماما لأن أبصم على ورقة بيضاء أدفعها للسلطة لتكتب فيها شرورها وتدوّن عقوبتها.

في نهاية تشرين الثاني 1994 تحوّلت فكرة هروبي الى حقيقة، ومضيت خلف رغبتي وقراري بالهروب من الجيش، فكيف جرت الأمور؟ وكيف مضت سبع سنوات من الخوف؟ انتهى عامي الأول وأنا لا أحمل دفتر الخدمة العسكرية وهي الوثيقة الوحيدة التي تحدّد الموقف من الخدمة، وبقيت حبيس بيتي وبضعة شوارع أنتقل بينها مشيا على القدمين، أعمل كأجير يومي في محل لبيع المواد الغذائية قريب من البيت يملكه صديقي الحبيب والمقرب حسين، وأعمل أيضا وسيطا في بيع الأسلحة كالمسدس والبندقية، والسبب في اختياري هذا العمل هو وجود بضعة أصدقاء يتاجرون في هذا المجال، وبحكم علاقتي الوثيقة بهم، عملت وسيطا، إلا أن العمل كان شحيحا الى أقصى حدّ.

نشاط منظمة حزب البعث في المنطقة كان يثير رعبي أكثر مما يثيره الانضباط العسكري، وحتى اليوم لا أعرف لماذا لم تلق منظمة البعث القبض عليّ؟ خصوصا أن لديها ملفا حول عائلتي لا يسرّ بعثيا.

في الخامس عشر من تشرين الأول 1995، كان العام الأول على هروبي من الجيش قد أوشك على النهاية، وكان خوفي من السلطة قد بدأ يأكل بقاياي بهدوء، في ذلك اليوم أدخل صدام البلد في أجواء حدث هو المضحك المبكي فعلا، كانت القصة تدور

هذه المرّة حول صدام وقيادته، فقد حدّد ذلك اليوم كاختبار لشـعبيته ولحبّ الناس لـه واختبار لقناعتهم به «قائـدا ملهما»، الأمر كان مضحـكا وغريبا، فلم يكن هناك منافس له، أو بطرانا يريد أن يزاحمه على الكرسي، كان الأمر نزوة لا غير، أراد صدام فيها أن يذلّ الناس أكثر مما يعيشـونه من ذلّ، ففي أسـوأ أيام حكمه وأكثرها مرارة وفجيعة وهي أيام الحصار الاقتصادي، أجبر سـوط السـلطة الناس على أن تصوّت، وتضحك، وترقـص، وتحتفل، وتبايع لصدام بيعة أبديـة، رقص الجوعى والخائفين لذّة تنعش روح الطاغية وتمدّه بالفرح والشعور بالقوّة والزهو.

قبل أيام من بدء «يوم الزحف الكبير» وهي التسمية التي أطلقها حزب البعث على يوم المبايعة لصدام، فتحت باب البيت وشـاهدت الرفيق «أبو حسان» يطرق باب الجيران ليوزع عليهم اسـتمارة «جرد» لسـكان المنطقـة تثبت من خلالهـا المنظمة الحزبية سـجلّها «الانتخابي»! كان شقيقه صديقا مقربا لي، وبحكم العلاقة بيننا يعرف «أبو حسـان» قصة تهريب عائلة شـقيقي الى إيران وما تلاها من مشـاكل مع دائرة الأمن ويعـرف بانتماء شـقيقي فلاح لصفوف المعارضة في إيران، حين شـاهدته بلباسـه الزيتونـي عـدّت الى البيت ووقفت خلف الباب لاسـترّق النّظر اليـه، أردت أن أعرف هل سـيطرق علينا الباب أم لا، باعتبارنا عائلة «مشبوهة» سياسيا ومشكوكا بولائها للسـلطة، وفعلا اجتاز بابنا وطرق باب جيراننا، خرجت مبتسما له، وحين انتهى من تسليم الاستمارة للجيران قلت له ساخرا:

ــ ها أبو حسان ليش تحرمونا من فرحة التصويت؟

ردّ عليّ مبتسما:

ــ اچفونا «اكفونا» شرّكم وكلّ شي ما نريد منكم.

وسـط هذه المخاوف كيف أمضيت أيامي؟ قلت إنـي أنهيت العام الأول وهو 1995 وأنا لا أحمل وثيقة تثبت موقفي من الخدمة العسكرية، ولكن في العام الثاني، نجحت تجربة تزوير قمت بها وأنقذت وضعي بشكل سليم تماما، ومعها بدا طريق الهروب سـهلا، كان شقيقي الأصغر قد أكمل الخدمة العسكرية وثبت ذلك في بطاقة الخدمة،

راجعت التجنيد لاستخراج بدل ضائع، وضعت صورتي في معاملة الاستبدال وليس صورة شقيقي، أفادني الشبه الكبير والعمر المتقارب، وفعلا صدرت البطاقة باسم شقيقي وبصورتي، حملتها وتحرّرت من عقدة الخوف من القبض عليّ، ومعها لم يعد منظر الانضباط العسكري يثير خوفي، واستمرت حالي هذه مدّة أربع سنوات.

في العام 1999 حدث ما غير مجرى الحدث بشكل درامي، فقد استدعت السلطة مواليد شقيقي الى خدمة الاحتياط مدّة شهر واحد، أكمل شقيقي هذا الشهر، وكان عليّ أن أوثّق تسريحه في بطاقتي لأن بطاقته ملغاة في سجلات التجنيد باعتبارها بدلا ضائعا، كان ألمي على ما جنيته عليه يشعرني بالذنب، كنت قاسيا وأنانيا، فقد استحوذت للمرّة الثانية على جهوده وجعلته ضحيّة لخياري الشخصي، فبرغم تسريحه إلا أن وثيقته غير معترف بها، كان عليّ أن أبحث عن حلّ لمشكلته، استعنت بأحد الأشخاص ممن يعملون في تعقيب معاملات التجانيد العسكرية، وهي مهنة راجت يومها بشكل لافت، وكعادة هؤلاء في طريقتهم المريبة لإقناع الزبائن، صوّر لي الأمر بأنه سهلٌ مثل شرب ماء، كان يسخر من خوفي على صحّة الختم الذي قال إنه سيحصل عليه من التجنيد، كان شكّي كبيرا بأقوال هذا المزوّر، وخاصّة مع ضآلة المبلغ الذي طلبه ثمنا لهذا العمل، كان يستند الى مبدأ «بالفلوس كلّ شي ممكن»، وكنت اعتقد أن الثقة بمزوّر خرافة.

أعطيته بطاقة الخدمة والمال الذي طلبه، وبعد يومين أو ثلاثة جاءني بالبطاقة، كان الختم مشوّها تماما، وحتى بالنسبة لي، أنا غير الخبير بالوثائق والأختام المزوّرة، كان شكّي كبيرا بصحّة الختم، تسلّمت البطاقة، دون أن أملك حلّا أو معالجة، فأنا الذي طرقت بابه، طالبا منه مساعدتي في هذا الجانب، بلعت شكّي ولم أقو على بلع خوفي، حمل شقيقي الوثيقة ما يقرب من عام، ولم يحصل طوال هذا الوقت أن أوقفته أي سيطرة للانضباط العسكري، حتى كان اليوم الذي وقع فيه بيد جنود الانضباط العسكري، كان ذلك قرب الشورجة، اُعتقل وأودع في مركز شرطة «العبَة خانة»، واستنفرنا كل جهودنا من أجل إخراجه من ورطته الكبيرة، كان ينتظره السجن

لسبع سنوات، خوفي عليه سبق ندمي على توريطه بحماقتي، لقد فعلت به ما لا يستحق، يكفي أنه يعيل زوجة وطفلة صغيرة ويكدح بـ«العمالة» من الفجر حتى المساء في أيام الحصار والجوع، لماذا حوّلته الى ضحيّة ؟ لماذا أضفت لعذابه صفحة أخرى لا ذنب له فيها؟

قصة إخراجه من السجن لا تخلو من تهوّر، فقد ذهب شقيقي الأكبر الى التجنيد، عاملا بنصيحة صديق له يعمل قاضيا في إحدى المحاكم، كان شقيقي ضابطا متقاعدا برتبة رائد في الحرس الجمهوريّ، استنفر علاقاته وكلّ الأساليب التي يمكن أن تنفع في إخراجه، ولكنّ تشدّد ضابط التجنيد سدّ علينا كلّ منافذ الأمل، أخيرا، لم يجد شقيقي حلّا سوى العمل بنصيحة صديقه القاضي، دخل غرفة ضابط التجنيد للاستفسار حول ما وصلت اليه قصتنا مع المحكمة وحين جلس قال للضابط:

ـــ أشكّ أن الوثيقة التي وقعت بيدكم تعود لأخي فعلا، لأني أعرف أنه يمكن أن يدسّ أحدهم وثيقة مزوّرة في أوراقه.

طلب الضابط من سكرتيره أن يجلب السجل الذي يحوي صفحة الخدمة الخاصّة بشقيقي، وفي داخله كانت الوثيقة المزوّرة، وضع الضابط الوثيقة بيد شقيقي الأكبر فقام وبسرعة كبيرة بتمزيقها الى قطع صغيرة، ولم يكتف بذلك بل رمى من الشباك الذي يجلس بجانبه، الأوراق الممزّقة، وقال للضابط، ليس هناك وثيقة مزوّرة، وكلّ ما تقومون به هو محاولة لابتزازنا، كان فعلا في غاية الجرأة، انتقل بسببه القانون الى جانبنا وخرج شقيقي من السجن، وبعد أيام قليلة ذهب الى التجنيد لإصدار بطاقة بدل ضائع وفعلا صدرت وفيها ختم إنهاء خدمته صحيحا هذه المرّة، أصبحت وثيقتي غير قانونية لأنها سجّلت في التجنيد كبدل تالف.

لم أجد مفرّا من التذكير بالطبيب الذي ينصح باستخدام حبوب تضرّ بصحة المريض كما جرى معي، وبالقاضي الذي ينصح باستخدام طريقة غير قانونية لتفادي حكم القانون كما جرى مع شقيقي، هي أشياء قد لا تحدث في مجتمع تسوده العدالة وقوّة القانون وهي تدان من قبله، أما في بلد تسوده المظالم ويحكم على أهله بالذلّ

والهـوان فيمكن فهمها وتقبّلها، المهانون يحاربون بوســائل إهانتهم، الحكومة التي تهين مواطنيها بضرب القانون سيواجهونها بضرب القانون أيضا.

وأنـا في أجـواء الحديث عـن دوائر التجنيـد، عليّ أن أكتـب عن مفارقــة مؤلمة، كنت استحضرها مع نفسي كلّما شاهدت أو سمعت باسم دائرة تجنيد، هذه المفارقة تتعلّق بالسرعــة الملفتة للنظر في إجراءات تجنيد الشــباب الى الجيش، كان يوما واحدا فقط يكفي لأن يساق المكلف بالخدمة العسكرية أيا كانت المشاكل والخلل في أوراق معاملة ســوقه، وفوق ذلك تحدّد فترة زمنية لســوق كلّ المدعوّين الى الخدمة، وعادة لا تزيد على شــهر واحد فقط، واذا علمنا أنّ كلّ تجنيد يضم آلاف الشــباب، ولكلّ واحد منهم موقف من الخدمة، بين سوق، وتأجيل دراسي، ومرض، وإعفاء، سنعرف حجم العمل وتعقيده. أما إجراءات التسريح فلم يكن هناك وقت محدّد لإنجازها، وفي أحيان كثيرة تتوقّف تلك الإجراءات تماما، حتى اضطر البعض الى تركها نهائيا أو تقديم رشــاوى كبــيرة من أجل إنهائها. في العادة يكون عدد المسرحين من الخدمة أقلّ من المســاقين اليها. ماذا يعكس ذلك؟ ســؤال طالما طرحته على نفسي، لماذا لا تتعامل الحكومة مع إجراءات ســوق الشــباب الى الخدمة مثل تعاملها مع إجراءات تسريحهم منها؟ لماذا تتركهم «دايخين ســبع دوخات» حين تضطــر لتسريحهم؟ في حين تسرع وبلهفة الى سوقهم للجيش؟!

كانت سنوات الهروب بالنسبة لي هي أقسى ما مرّ بي، يومها أطبق الحصار الاقتصادي عــلى أرواح الناس مخلفا وراءه فقرا ينهش عظامهم، الجوع يعني الموت والجوع هو خوف من الغد، وكانت الناس في صراع مستحيل مع الموت والخوف معا، لم أكن أملك ما يدفعني لأن أشارك الجموع الجائعة في نشاطها أو بالأحرى في قتالها من أجل لقمة الخبز، لا مال يكفي لأن اتاجر ولو بالأسمال، ولا حرية تسمح لي أن أحصل على رغيف الخبز، ومن بين كل الأشــياء التي خلّفها هروبي كان حبسي في البيت هو الأشدّ وطأة. كنت اتمنى أن تتاح لي حريّة «التّنقّل». فقط أن أخرج من باب المنزل دون خوف. كان ذلك بالنسبة لي حلما.

حصار داخل حصار، وجوع وسط مجاعة، وخوف في حلبة موت، لا أقوى على حصر الأذى الـذي واجهني وأنا أصرّ عـلى خياري برفض الالتحاق بالجيش، مثلما لا أعرف كـم مرّة ندمت على قـراري، أو عدد مرّات رفضي لفكرة الندم، لا أملك يقينا أو حزما، ولا أملك شـجاعة لجم نفسي عن التّردّد أو عن الإقدام معا، ولكني اكتشفت أنني كلّما ازددت تورّطـا ازددت عنـادا، وكلّما بـدا لي الثمن باهظا كنـت أمنّي نفسي بأن آلاف الضحايا ماتوا على وسائد العناد. انتهت سبع سنوات وأنا على حال البين بين، لم أخطُ خطوة ولو واحدة باتجاه العمل والنشاط المالي وتحسين الحال.

رسول

وجدت نفســي منفصما الى شــخصين: الشخص الأول يحــاول أن يعثر علــى أثر للجرائــم التي يتهــم بها فلا يجــد، والشــخص الثانــي يختــرع الجرائم حيــن يعجز الشــخص الأول عــن اختراعهــا، وفي هــذا المجال كان ضابط التحقيق يقدم لي عونا لا يقدر بثمن حيث رحت، أنا وهــو، نخترع معا في عمل ثنائــي ناجح، وهكذا حين كانت مخيلتــي تعجز عن اختراع الجرائم كان المحققون يهرعون لنجدتي .

رسالة من المخرج المسرحي مايرهولد قبل اعدامه الى مولوتوف رئيس وزراء «الاتحاد السوفيتي» في عهد ستالين

من بين المئات من قصص المعتقلين بســبب هروبهم من الجيش، كانت قصة رســول، قريبي وصديقي، هي الأبعد أثرا والأكثر ألما والأقسى معنى. برغم قصر زمنها إلا أنها كشــفت عن الأثر الذي يمكن أن يتعرّض له الشباب حين يمسك بهم جنود الانضباط

العســكري. ألقي القبض على رســول، كان ذلـك في العــام 1994، يومها كان يؤدي خدمته العســكرية كنائب ضابط بمعســكر للقوّة الجوية يقع في معســكر الرشــيد. يذهــب الى عمله في الصباح الباكر، ويتناول فطوره في مســطر بغــداد الجديدة، وهو المــكان الــذي ألقي عليه القبض فيه، كان يحمل هوية تســمى بـــ «عدم التعرض أو هويــة النزول اليومي» وهي تمنح للذين يخدمون في معســكرات قريبة من ســكنهم كــي لا توقفهم وحدات الانضباط العســكري بتهمة الهرب أثنــاء ذهابهم أو إيابهم. أوقف الجندي الانضباط رســول فأبرز له هويته، يتكرّر هذا الأمر بشكل شبه يومي، يقرأ الجندي الهوية ويرجعها الى رســول، لكن في ذلك اليوم حصل معه شيء مخالف للمعتــاد، فقــد رفض الجندي إعادة الهوية وطلب منه الصعود الى ســيارة الانضباط ملقيا القبض عليه بتهمة الهرب.

لم يصدق رسول هذه التهمة، وأكد للجندي أنه يكشف عن هويته يوميا لفرق الانضباط ولــم يحصــل أن قيل له إنه هارب، وتســاءل عن الذي تغيّر اليوم، لم تنفع توســلاته وحججه، مضت الســاعات وهو جالس في الســيارة، وحين ســارت بهم صوب معتقل الحارثية، بدأ جندي من الانضباط بضرب من في الســيارة بعصاه، يمرّ وسطهم وهو يصرخ، ويشــتم ويلعن، ولكنه صبّ جام غضبه على رســول، أصيب بوجهه، ورأسه، وسال الدم منه، وحين تعب الجندي وتوقف عن الضرب، كانت السيارة قد وصلت الى ســجن الحارثية أو ما يســمّى بـ«الجملونات». أنزل منها رسول وأعيد عليه مسلسل الضرب حتى المساء، لم يتناول أي طعام ولم يعالج، وفي نفس الوقت لم يترك.

كانت حيرة رســول كبــيرة وهو يرى الاختــلاف في التعامل معه، فمــن بين الموقوفين كان هــو الوحيد الذي تعرّض لهذا الحجم من العنف، لم يعرف أي ســبب يميزه عن الآخرين، كانوا يقولون له وهم يضربونه أنه مزوّر ومحتال. يقول رســول إنه صدّق بالفعل بأنه هارب من الجيش، وأن الهوية التي يحملها كانت مزوّرة، وكان يتســاءل مع نفســه، لماذا هربت؟ ويعود ليصبّ غضبه على نفســه بسبب فعلته الشنيعة، وظلّ يتساءل، كيف يمكن لي أن أصدق أنهم يضربوني بكل هذه القسوة وهم غير متأكدين

مــن هروبي، ليس لي أي علاقة أو عداوة معهــم، ولا يعرفون عني أي شيء، فضربهم كان بسبب عدم إلتزامي بعملي وتجاوزي على الأوامر العسكرية، الضرب القاسي الذي تعرض له أفقده الثقة بنفســه، وهزّ بعنف كلّ ما يحمل من يقين، كان رســول يتيما، فقــد أباه حين كان طفلا صغيرا، وربّته أمّه ولم تتزوج، أحيط بحنانها وحبّها، وكان خوفهــا عليــه كبيرا، وحين تطوّع في الجيــش وهو لم يتعد الثامنــة عشرة من العمر، واجه قســوة حياة العسكرية أول الأمر بنوع من التصدي والثبات ولكن قواه خارت، ومــع تقدم الأيــام بدا حزينا ومَنطويا، فمن دلال الأم الى ســياط الخاكي، ومن وداعة كلمات الأهل والأقارب معه الى برودة وجفاف لغة الجيش وضباطه، الصورتان اللتان لا رابــط بينهما تركاه معلقا بين عالمين، العســكر، والأم. الحبّ، والوحشــية. الراحة، والإرهاق، بين ألم البقاء في الجيش والخوف من تركه مضت أيام رسول، وحين واجه الضرب الشديد على يد الانضباط العسكري لبس دور المجرم وعاش فيه فقد نجح في اختيــار نوع مصيره، فبعد أن ســلّمه الانضباط لوحدته هرب فعلا من الجيش وبقي مطاردا حتى النهاية.

حمودي

نحن الذين غادرنا البلاد، كلٌّ حمل معه أسبابه وأحلامه، كان وهم العودة يلاحقنا - سـنة و تمرّ - لكن السـنوات تعاقبـت ومعها صرنا مطمئنين لحياتنـا، تكرّرت الأيام كثيرا، جاءت الحروب وتوسـعت المقابر والسـجون على طول البلاد، حتى صرنا نوجد الأعذار أمام وهم العودة.

الفنان التشكيلي
ضياء العزاوي

كثيرون لا يحبون اسمهم، ويتمنون أجمل منه، منهم من حمَل أهله مسؤولية تسميته باسـم «متسرّع» يعبر عن حماسـتهم لشخصية عامة، أو مناسـبة خاصة، ومن بين هؤلاء من حسم أمر تردّده مع اسمه فاستبدله. وحمودي من هؤلاء الذين يتمنون لهم اسـما آخر، كان يقول إن اسـمه ليس «جادًا»، هو «تدليع» لا يجد له سـببا، فهو ولد

في قريـــة من قـــرى محافظة الكوت عام 1968، ولم يكن لوالده أي صلة ببغداد، فمن أين جيء بهذه الروح البغدادية لاســمي؟ بدأ حمودي رحلة حياته وهو في خلاف مع اسمه، وكأنّه لم يكن ينتظر خلافات أخرى أعمق وأكثر أهمية .

حين أكمل المرحلة الأولى من دراسته الابتدائية في العام 1975، انتقلت عائلته لبغداد، كانوا اثني عشر شــخصا، لم يجد والدهم طريقة لإعالتهم في العاصمة ســوى العمل بأكثر من مجال، تربية الأغنام، وبيع الشاي والبيض المقلي وسط حي في طور الإنشاء، وأخيرا حراســة دائرة حكومية، ومن أجل كفاف عائلته ظلّ والده حتى آخر ســنوات عمره يخوض حربا مع المدينة، وبالنســبة لفلاح فقير الكفاءة كانت بغداد صورة من صور جهنم.

أكمل حمودي مراحل الدراسة بتفوّق، ذكاؤه وحرصه على درسه، وضعاه في المقدمة، لــم يكــن والده معنيّا بمســار ولده في الدراســة، بــل ربّما كان ممتعضــا من تأخره عــن الدخول في ســوق العمل، ربما كان يريده «اســطة» في مجال البنــاء، أو تصليح السيارات، أو أي عمل يساعده في توفير قوت عائلته. دخل حمودي الدراسة المتوسطة حــين وقعــت الحرب مع إيران، يومهــا كانت تصورات الآباء وخاصــة أرباب العوائل الفقــيرة حول إكمال الدراســة متناقضة، فهي في نظرهم تعطّل الأبناء عن المســاعدة في معيشــة العائلة بعد أن أصبحت الشــهادة الجامعية لا تدرّ عائــدا مثل الذي يدرّه العمــل الحرّ ولا قيمة لها في نظر المجتمع. ولكن إكمال الدراســة كان في نفس الوقت نجــاة لأبنائهم مــن الحرب فهي تؤخر التحاقهم بها، حيرة الآباء بين رفض الدراســة وقبولهــا، كانت محصــورة بالعوائل الفقيرة فقط، لكن حمودي وتخلّصا من مشــاق تحميل والده مســؤوليات وأعباء مالية قرّر إكمال دراســته الجامعية على نفقة وزارة الدفاع، فالتحق بالكلية الطبية العســكرية عام 1986 على أن يعمل طبيبا في الجيش ويمنــح رتبة ملازم أول بعد التخــرج، وحين انتهت الحرب مع إيــران ألغيت الطبيّة العســكريّة وألحق طلبتها بكليات الطبّ حســب ســكنهم، فدخل حمــودي كليّة طبّ جامعــة بغــداد، وأكملها عام 1992، عيّن طبيبا في مستشــفى الناصرية العســكري،

برتبــة مــلازم أول، كان عامــا واحدا فقط قد مــضى على انتفاضــة الجنوب، وتعيش الناصريــة مخاوف وأحزان ما وقعت فيها من جرائم ارتكبتها قوات النظام وأجهزته الأمنية والحزبية، وكانت الجيوش قد استباحت المدينة، ودكّتها بكل صنوف الأسلحة تاركة إياها أنقاضا وخرائب .

كانــت آثار الحرب التي دارت في شــوارع الناصرية بين الأهــالي وبين النظام قد ألقت بظلالهــا على حياة الناس. آلاف الشــباب فقدوا ولم يعرف أثــر لهم ، وآخرون هربوا صوب القوات الأميركية على الحدود مع الســعودية وألقوا في مخيمات «رفحاء» وسط الصحراء. فضلا عن ذلك دخل جوع الحصار مراحله القاسية وضرب أحشاء الناس، الخوف من السلطة والخوف من الجوع يتقاسمان أيام المدينة وأرواح أبنائها، ووسط مدينــة الخوف هذه اشــتعلت في نفس حمــودي جذوة قراره بالهــرب، وكان عليه أن يبحث عن طرق لنجاته من هذه المحرقة، لم يرغب في الزواج تاركا حمله خفيفا، كأنّه يقول «هكذا ينجو المخفون»، ولكن رغم أحزان العيش وســط أهوال العراق والرغبة المتأججة بالهرب، لم يكن حمودي عبوسا أو منطويا، وتلك كانت أبرز مزاياه، صبره، وســعة صدره تبعــث في نفس القريبين منه الكثير من الــدفء والألفة، لم يكن معنيّا بالحديث للآخرين عن معاناته، بل كانت شــجونهم هي نقطة أمله وهي بحر أحزانه. لذلك نجح بسرعة في بناء علاقات اجتماعية لا تزال الى اليوم قائمة سواء في الناصرية، المدينة التي أحبّها، أو في بغداد المدينة التي لم يعرفها تماما .

كنت كلّما شاهدته ببدلته الزيتونيّة ورتبته العسكرية لا أصدق أن هذا الإنسان الرقيق، منســجم مع هيئته ولباسه، رقته وقلبه المتلئ بالنبل لا تنسجمان مع مهنة لا تحفظ عنها ذاكرتنا سوى صور الغلاظة والتّكبر، هل يمكن لحمودي أن يلبس روح الضباط ويســتخدم لغتهــم وهو الذي لم يهن أو يجرح أي إنســان طيلــة حياته؟ ومع قراره بالهــرب كنت أظنّ أنه ســيترك لروحه وهــي تعيش ليلتها الأخــيرة في العراق فرصة الخوف والشــكوى والبكاء من المآل الذي صرنا اليه، من شــتاتنا المفجع، من عذابتنا المهينة، من مستقبل صادرته سلطة متطرفة في وحشيتها، وأنه سيبكي طويلا ونحن

نجلــس وحدنا. لكنه كان صلبــا، فلم يرف له جفن، لم يكن الخوف من رحلة الهرب المحفوفة بالمخاطر ظاهرا في حديثه أو ســكونه، كان أشــبه بمسافر في رحلة قصيرة، ربما حجب ثقل آلامه عن عيونه البكاء والشــكوى، بدا لي فارسا رفض المهانة واختار الحرية وإن كان ثمنها روحه، لقد قرّر أن يترك وراءه جولة نجاحه في الوقوف بوجه الفقــر والذلّ في العراق ليبدأ رحلة جديدة مع فقر جديد محتمل، أراد البدء برحلة ما بعد الثلاثين من دون أب يشجعه أو صديق يساعده، كانت رحلته وحده.

كانــت إيران أوّل محطــات رحلته، وهذه وحدها قد تنهــي آماله وتضعف من فرص انتقالــه لبلد غربي وهو الهدف الأخير الذي يحلم به، بدت أولى الخطى مجازفة كبرى لكنه كان مضطرا لها بسبب منعه من السفر لأنه ضابط طبيب، وتمنع قوانين الدول المحيطــة بالعراق وخاصة الاردن العيش والاســتقرار فيها دون وثائق ســفر وإقامة رسمية. أما إيران فكان له فيها معارف يمكن أن يساعدوه في مسائل السكن والهرب منهــا. وفضلا عن ذلك فإن أجهزتها الأمنية لا تتشــدّد مــع الهاربين لها وخاصة من الشّيعة والأكراد ولا تدقّق في وثائقهم. والكثير من العراقيين عاش فيها سنوات طويلة دون أن يحمل وثيقة ســفر، مكتفين بما يسمى «بالكارت سبز» وهي وثيقة تصدرها السلطات تحدّد وضعا قانونيا للعراقيين الهاربين أو اللاجئين فيها .

لم يكن تفصلنا عن نهاية العام 1996 سوى أيام قليلة، حين وصل حمودي الى بغداد في إجازته الشهرية الاعتيادية، قال إنه اتفق مع أشخاص يوصلونه لإيران مع صديق له وهو طبيب وزميل دراســته، مؤكدا ثقته بالمهربين، لم أكن أعرف كيف تحقّق من هــذه الثقــة التي تكفل لــه الطمأنينة. كان أي خطأ في مثل هكــذا عمل يعني الموت لا محالة، وأعرف أن الدكتور قد يولي ثقته بناء على حســن نواياه بالناس لا على أســاس التّحقّق والتأني.

لم أكن قادرا على ثنيه عن قراره الذي اتخذه قبل سنوات، بتنا ليلتنا الأخيرة في بيتنا، لم يكن أحد يعرف بهروبه سواي، ألقى عليّ مسؤولية إيصال الخبر الى أهله، كان هو المسؤول الفعلي عن إعالة والديه وعدد من أشقائه، وليس له شريك في مهمته الجسيمة

هــذه أيام الحصــار، لذلك كان إبلاغ أهله بهروبه مهمّة صعبة بالنســبة لي، ومن بين عائلته كانت مشــاعره ومخاوفه منصبة على والده، قال إنه ســيضيف الى والده حزنا جديــدا فوق أحزانه. كان والده قد فقد اثنين من أبنائه في الحرب مع إيران، أحدهما، وهــو أكبر الأبنــاء، قتل تاركا لهم ثلاثــة أطفال، أما الثاني ففقد أواســط الحرب ولم يعرف مصيره. كان حمودي يعرف أي ألم سيسببه لوالده في رحيله، لقد ثلمت الحرب روح والده الصلبة ولم تعد تحتمل ضربة أخرى يسببها له رحيل ابن آخر.

طلب مني إيصال الخبر وتســليم مسدســه العســكري الى أهله، كانت مشاعري حول رحيله ملتبسة، ومتناقضة، أحزن له وأفرح، أسعد وأشقى، أرغب وأرفض، فتحت أي ظرف يصعب عليّ تقبّل فكرة هروب إنسان تربطني به وشائج وصلات ومشاعر حبّ وتقارب، لكن الأمل والكرامة اللتين ســحقتهما سياســة البطش والإرهاب جعلت من ملايين العراقيين أسرى لهذه المشاعر المتناقضة، بين الهرب من البلد وبين البقاء فيه، بين تحمّل مشــاق الحياة وسط أهوال الحروب والموت المجاني وبين الشعور بنضوب طاقة التحمّــل وأعباء البقاء، ظلّت أفكار العراقيين ورغباتهم أســيرة لهما، لكن ثمن النجــاة من أهوال العراق ليس ســهلا وهو بالتأكيد يمرّ بكلّ هذه المشــاعر الملتبســة والمتناقضــة، الخوف من القبض عليه، والأمل بنجاته، حزني على رحيله، وقبولي بهذا الرحيل، أســئلة وشــكوك تركت روحــي بين أنقاض الخوف والألــم ، لم نكن نعرف درجة نجاح أي خطوة تلي الهروب، كانت قفزة في المجهول.

في صباح الســادس مــن كانون الأول 1996 ودّعته، وهو يذهــب الى حيث يعتقد أنه النجــاة مــن هول الحياة في العراق. لم أكن أعرف في أي يوم ســينهي مهمته، كان كلّ شيء مرتبطا بظروف المهرّبين أنفســهم، قد يســتغرق ذلك يومين، أو ربّما أكثر، ليس هناك حســم حول توقيت عبوره الحدود. طلب منــي أن اتريّث لبعض الوقت قبل أن أخبر أهله، فقد تتعرقل المهمة أو تفشل، قال إنه سيتصل بي حين يتأكد أن هروبه قد تأجّل وفيما عدا ذلك فانها ماضية بطريقها.

أمضيــت اليومين اللذين أعقبــا ذهابه في البيت، وفي اليوم الثالث تحدّثت مع شــقيقه

«فاضل» حول ما جرى، أتاح لي قربي من فاضل وارتباطي العقلي والروحي به وقربه الشديد من حمودي ومعرفته بنواياه وقرار هروبه، أن اتحدّث له باختصار شديد عن الخبر، كنت أشبه بمراسل حربي، أنقل ما وقع أمامي من مشهد قاس، بطريقة واضحة وصريحة. لم يكن فاضل متهيئا للموضوع، كنا نمشي في الشارع حين وقفت لأسرد الخبر دون مقدمات، عجزت عن لملمة اللغة والمفردات، فقلتها باختصار وفجاجة، كانت مشاعر فاضل مزيجا من الارتباك، والحزن، والخوف، كان مشتت الأفكار فلاذ بالصمت لبعض الوقت، وحين أيقن أن رؤية حمودي مرّة ثانية غدت حلما بعيدا، أعاد مع نفسه شريط حياته معه، كانا أقرب الى الصداقة منهما الى الأخوّة، أو هي أخوة بلباس الصداقة وروحها وعفويتها، لم يتمالك نفسه فبكى.

مضت ثلاثة أيام أو أكثر، حين توقف قبل انتصاف الليل بث تلفزيون الشباب المملوك لعدي صدام حسين، ليقرأ المذيع بصوت يفتعل الحزن نبأ تعرّض عدي صدام لعملية اغتيال في شارع 14 تموز وسط حي المنصور، ذهبت روحي باتجاه حمودي، وذهب خيالي الى إيران، فقتلة عدي أتوا منها بكلّ تأكيد، تصوّرت حمودي وهو يقف على الحدود في اللحظة التي تملأها جيوش صدام لتغلق بوجه قتلة عدي طريق العودة من خلالها. كنا نعرف أن صدام حسين لن يدع البلد يعرف طعم السكينة والهدوء عقب هذا الحادث وأنه سيخوض «حربا» مصغّرة أخرى مع الناس، وأن أوّل ما سيفعله هو إغلاق الحدود ورصدها ومراقبتها. أيام قلائل فقط كانت تفصل بين موت حمودي وبين حياته، بين أمله بحياة كريمة وبين حبل المشنقة، اشتعلت الظنون، هل نجا ؟ هل أمسكوه ؟ هل مرّ به قتلة عدي وهم ذاهبون الى إيران أم وهم عابرون صوب بغداد؟ مضت الأيام بين تلك الظنون. لكن نجاة حمودي بدت هي الحقيقة، أما كيف عبر الحدود ؟ أي ألم وأي خوف وأي أمل كانوا رفاق رحلته ؟ هذه أسئلة لم تعد مهمة بالنسبة لي أو لأهله، فالمهم أنه لا زال حيّا يرزق .

مضت ستة شهور قبل أن يتصل حمودي في نهار حزيراني عبر الهاتف، من اليمن هذه المرّة، كان يتحدّث من مطار صنعاء، بدا سعيدا بهذه المحطّة، كان حائرا بين

الحديث الطويل عن رحلته الشّاقة والمميتة الى إيران وبين رغبته بأن يختصر الاتصال علــى طمأنتنــا فقط، لقد نجا من هــول محرقة العراق ومن ظنك وعــسر إيران، التي عاش فيها شــهورا قليلة فقط لكنها مؤلمة ومحبطة، رحلة الشــهور الســتة الإيرانية والسنتين اليمنيتين انتهت الى حيث يحلم هو، على أرض استراليا هذه المرّة التي عبرها في قارب متهالك قد يرمي راكبيه في أي لحظة وسط مياه المحيط، لكنه نجا أيضا من أهوال المحيط، واستقرّ طبيبا ناجحا في بلد غربي، حفظ كرامته وإنسانيته وحقّق فيه أحلامه التي ظلّ يبحث عنها دون جدوى في بلده .

اعترف أن ســؤالا قد لا يخلو من الســذاجة ظلّ يؤرقني منذ ســنوات طويلة وتحديدا منذ أن أصبح الهروب من العراق هو النجاة، والحلم، والأمل. هل عليّ أن أفرح بهروب أناس أحببتهم وسعدت بمعرفتهم أم عليّ أن أحزن؟ أعرف أن الهروب ليس طارئا أو مؤقتا أو محدودا بسنوات وأيام ، فماذا لو هرب كلّ الأحبة؟

لا شــكّ أنهم نجوا بأرواحهم، وكرامتهم، ومواهبهم، لكنّي حتى اليوم أسأل نفسي، ما الذي خسره الهاربون من العراق؟ هل وجدوا في شــتاتهم ما يمحو كلّ أثر لبلد ولدوا وعاشوا وحلموا وكبروا فيه؟

الحصار الاقتصادي

يقرّر أن تمنع جميع الدول ما يلي:
أ- استيراد أي من السلع والمنتجات التي يكون مصدرها العراق أو الكويت.
ب - أية أنشــطة يقوم بها رعاياهــا أو تتم في أقاليمها ويكون من شانها تعزيز أو يقصد بها تعزيز التصدير أو الشحن العابر لأية سلع أو منتجات من العراق أو الكويت وأيــة تعاملات يقوم بهــا رعاياها أو الســفن التي ترفع علمهــا أو تتم في أقاليمها بشــأن أية ســلع أو منتجات يكون مصدرها العراق أوالكويت.
فقــرات من قرار مجلس الأمن الدولي 661 في جلســته 2933 في 6 آب 1990

ليلة 20 آب 1990، كانت أمي تنتظر نهاية شريط حياتها بين يدي حفيدها «محمد»، ومــع دموعه رمت في تنور أحزانها آخر عيدان حطبهــا، باتا معا ليلتهما الأخيرة، كنا شهودا على وداعهم الصامت، والشديد الألم، على بساط الموت تحتضن الجدة حفيدها،

تكتفي به من دون كلّ ما مرّ بها من أناس وأحبة، وعلى ميراث الحزن هذا، كنا ننتظر أفولها بعيون حائرة وخائفة من الغد.

معاناتها الشديدة من السرطان ولحظاتها الأخيرة في حياة طويلة الألم، كانت تنقضي بين يدينا في تلك الليلة. ليس هناك أحد يمسد رأسها سواي. أبناؤها الآخرون كانوا يعيشون مثلها لحظات موت بطريقة أخرى، اثنان منهم يختبئون في الصحراء ويستعدون لمواجهة نيران حرب على الأبواب، وثالثهم يقضي بين جدران الأسر في سجون إيران سنوات شبابه، يمحو كلّ ليلة شيئا من عمره ويضيف لكتاب أحزانه على فراق أطفاله ورقة أخرى. أنا وأبي وبناتها الثلاث نحيط بفراش موتها، طحنها المرض وجعلها عيونا فقط بين كومة عظام.

في الفجر ضاق نفسها، وتوقّف قلبها، وأغمضت عينيها، لم تمض سوى لحظات قليلة على وداعها الأخير حتى وصل ابنها البكر من الكويت، جاء مسرعا لعلّه يلحق بآخر أنفاسها أو بآخر أمانيها. رحلت «ام اسماعيل» وبدأنا طقوس العزاء، نصب الجادر، وتهيئة الطعام، والجلوس لاستقبال قبلات العزاء وعبارات المواساة. كانت أربعة عشر يوما فقط قد مضت على صدور قرار الأمم المتحدة بمحاصرة العراق، لذلك كان سلوكنا الاجتماعي وخاصة في المناسبات على حاله، في الصباح ذهبت لشراء مستلزمات العزاء، أكياس الرّز والسكر والشاي، واللحم، كانت في متناول اليد، ولم يطرأ على ثمنها أي تغيير، ولم نكن مضطرين الى تقليل النفقات، «الخير وفير» وأخبار الحصار لم تشكل بالنسبة لنا مبعث خوف وقلق.

أيام قليلة فقط وينسحب صدام من الكويت بعد أن يحلب دول الخليج، ويعطونه المال وهم صاغرون، لينتهي كلّ شيء، التهديد بالحرب، والحصار، وغيرها من مقدمات الحرب، هكذا بدت لنا الصورة، وإلا فكيف يمكن خوض حرب مع العالم بجيش لا زال يلعق جراح حرب لم تنته تبعاتها بعد؟ كيف يقوى اقتصاد خرج للتوّ من حرب مدمرة على الدخول في أخرى دون أن يعيد ترتيب نفسه؟ كيف يمكن لمجتمع خضّته الحرب بشكل عنيف أن يواجه حربا أخرى؟ كلّ هذه الكيفيات كانت تبعث الاطمئنان

بأن حربا أخرى لن تقع، وأن الحصار سيكون ورقة تهديد لا غير.
لا أحد يعرف ما بعقل الطاغية، أو يقوى على الاقتراب من مراده، لكن هكذا كنا نحلم أو نحسب أو نتوقع. ولكن مع مضي الأيام بدا الحصار يفعل فعله، تجلس الناس في الصباح لتجد نفسها عاجزة عن دفع ثمن ما اشترته في المساء، الأسعار ترتفع بالدقائق وليس بالأيام، وقائمة المواد الغذائية التي تستهلكها الأسرة تتناقص كلّ يوم، ألغيت فقرة اللحم من برنامج العائلة، وكيلوات الرّز الذي تمنحه الدولة عبر البطاقة التموينية لا تسدّ حاجة الأسرة ورغم ذلك تكتفي بها، البقوليات بدت ترفا لا داعي له. كان «وحش الطاوة»، وهي التسمية التي أطلقتها الناس على الباذنجان، هو المادة الأساسية في المائدة، تحوّل الباذنجان الى نكتة ومن دون الكوميديا لا يمكن تحمل المأساة، الفقر المرّ يخفف عن نفسه بالسخرية.
الأسعار التي تغيّرت غيّرت معها شكل العملة وقوتها الشرائية ودرجة الثقة بها، بدأت الدولة بإصدار النقود في مطابع محلية كانت تستخدم لطبع الوثائق الرسمية، كان عمر الورقة النقدية لا يتعدى الأسابيع، وكأنّ الحكومة تعرف أن حاجة الناس الملحّة وفقهرهم الشديد يمنعهم من الإحتفاظ بها، يصعب تمييز ورقها عن الورق العادي. وحسب القاعدة الاقتصادية «العملة السيئة تطرد العملة الجيدة من التداول» انسحبت العملة القديمة التي تسمى بالسويسرية من السوق. في أيام معدودات انهارت ثقة الناس بالعملة، كانت تتآكل شيئا فشيئا، وفي نفس الوقت بدأ الحصار يأكل الناس، انتشر تزوير العملة، فكان دخولها للسوق سهلا مثل دخولنا الى الكويت، وسرعان ما تتحوّل النقود المزوّرة الى بضاعة، وتنافس العملة الورقية الرسمية الرديئة الصنع أساسا. كنّا نلمس جنون الأسعار لمس اليد، بدأت العوائل الحرب على المدخرات، باعت ما لديها من ذهب، واستنفدت ما في مخزونها من نقود، ثم التفتت نحو الأساسيات، واتبعت ستراتيجية الاستبدال، التلفزيون الملوّن استبدل بالأسود والأبيض، والثلاجة السليمة بيعت بأخرى «نص عمر»، صحون «الفرفوري» حلّ محلها «الفافون»، وانسحبت السيكارة أمام « التتن اللّف»، ومع مضي الوقت فرغت البيوت من أي ملمح

مــن ملامح الحيــاة الكريمة. وفي الليــل تجتمع الناس لتتحدث عن أســاتذة الجامعة الذين يفترشون الأرض ليبيعوا السكائر، أو السكر، أو الفاصوليا، أو عن المدرس الذي ترك مهنته ليتشغل حمّالا في السوق، أو عن الضابط الذي اشتغل عامل بناء.

مــرّ الحصار بمرحلتين، الأولى بدأت من يوم الســادس من آب عام 1990 حين صدر قرار الأمم المتحدة 661 القاضي بمحاصرة العراق حتى الثاني عشر من كانون الثاني 1996، حــين قبــل العراق بتطبيق قرار مجلس الأمن الدولي رقم 986 الصادر في 14 نيسان 1995 (النفط مقابل الغذاء). وفيها يكون قد مرّ الفا يوم على الحصار، كانت سوداء حالكة، «انتربت» الناس فيها، لقمة الخبز، قطع الملابس، الدواء، أثاث البيوت، الوجوه، استحالت رمادا، كنا نلوذ بالأشياء التي تقينا من الموت فقط، نكتفي بالقليل الذي يســمح للدم بأن يجري في العروق، أيام الجوع هــذه تركت وراءها ذلّا ليس له حدود. يا آلهي مالذي مات فينا حتى تجرعنا ما جرى لنا؟

في كانون الثاني 1996 قبل صدام حســين بما ســمّي ببرنامــج النفط مقابل الغذاء والــدواء، أطلق الشــارع على ذلك القبول تســمية «النزول»، فبعــد لحظات من قبول العراق بالقرار انخفض ســعر صرف الدولار من 3000 دينار للدولار الواحد الى أقل مــن 700 دينار، وانخفضت تبعا لذلك الأســعار لحدود تصل الى 80 بالمئة، وتحدّثت النــاس عن انتحار تجار ومضاربين في ســوق العملة، أو وفاتهم بســبب الصدمة من الخسارة التي منوا بها، وبالمقابل وقف الحظّ أمام الكثير من الفقراء، فقد باع أحدهم تلفزيونــا ملونا بـــ 400 الف دينار قبل يوم من موافقة صــدام وفي اليوم التالي كان يركب ســيارة تاكسي اشــتراها بثمن التلفزيون، اســتطاعت الناس أن ترمم عظامها ببعض اللحم والحبوب.

أما المرحلة الثانية فهي التي اســتمرت من كانون الثاني 1996 حتى سقوط النظام، لم تكن أقل تدميرا لاقتصاد البلد، لكنها شــهدت اســتقرارا نسبيا للأسعار قياسا بما كان يحصل في المرحلة الأولى. كانت رواتب موظفي الدولة تثير ســخرية وعجبا، فهي لا تتعدى 5 دولارات شــهريا، وعلى الموظف أن يتدبر معيشــته بأي طريقة، لم يكن

الراتب الشهري يكفي لسد أجور النقل لأيام قليلة أو شراء كيلو لحم، ولذلك انتشرت الرشى في دوائر الدولة بشكل ملفت، ثم تحولت الى نشاط علني ومصرح به ومقبول. لم يكن أي من الناس ليمتعض من موظف أوقف معاملته من أجل علبة سكائر أو سندويج فلافل، وفي أحيان كثيرة كان الراشي متعاطفا مع المرتشي. لقد ساد التعاطف مع الجلاد أو ما يسمّى بـ «متلازمة ستوكهولم» حيث يفرح الضحيّة برضا جلاده عنه و يدافع عنه ويتقبل فظاظته وأنانيته. لم يعد هناك أي حاجز في اللغة أو في طريقة مفاتحة الموظف بالرشوة، كان يكفي أن يشاهد المواطن درج الموظف مفتوحا ليرمي به شيئا من المال لتنجز معاملته.

من أغرب الرشاوى التي دفعتها كان كتاب (جامع السعادات) وهو كتاب أخلاقي يتحدث عن العقاب والثواب الأخروي، ويوضح عبر الأحاديث النبوية طرق نيل رضا الرب بترك الرذائل وعن الدين كاخلاق وحسن تعامل مع الناس لا كفقه وصلاة وصيام فقط. طلبه مني (هديةً) الجندي أركان الذي يعمل كاتبا في التجنيد أيام مراجعتي له بعد إكمال دراستي الجامعية. كان أثر السجود باديا على محياه، وتبدو عليه شدّة تمسكه بالدين والصلاة. وقبل أن يطلب مني الكتاب تعمّد تأخير معاملتي لبضعة أيام حين عرف عن طريق المصادفة أني أهوى القراءة، كنت سعيدا حقا حين طلب هديته فهذا هو السبيل الأسلم للإسراع بإنجاز المعاملة، وحين وضع يده على الكتاب كان «جامعا للسعادة» من أوسع أبوابها. فتح الكتاب بيننا نوعا من الصداقة المؤقتة فطلب مني أن انتظره لحين انتهاء الدوام لنتمشى الى الشارع العام، حدثني عن تمسكه بالعبادة وعن إيمانه وتقواه، كنت أضحك في أعماقي من هذه المفارقة بين اللسان والفعل. بين حديثه عن حسنات الصلاة ونسيانه سيئات العمل، لا يشعر بأي غرابة وهو يحدثني عن روحانيته وهو يمسك برشوة حصل عليها اغتصابا و إكراها مني بل بالعكس كان يرى فعلته لا تمسّ جوهر إيمانه.

كان الحصار الاقتصادي هو أعنف ما مرّ به العراق، كان أقسى من الحرب والخوف، ضرب إعصاره كلّ مؤسسات البلد الاقتصادية والمالية، وأعادنا الى عصور قديمة،

فطوال سنواته ابتعدنا عن ما يجري من تطوّر وتقدم، وفي الوقت الذي يعيش العالم كلّــه واقع القرية الكونيــة من حيث التواصل والاتصال، كنا أبعد ما نكون عن مجرى التاريخ وروح العصر.

بين يدي العجم

يقول لي منزلي: لا تهجرني، فها هنا يقيم ماضيك.
ويقـول لـي الطريق: هلـم وأمض في إثـري، فإني لك المستقبل .
وأقـول لهمـا معا، منزلي والطريق: أنـا لا ماض لي ولا مسـتقبل، وإذا ما أقمت هنا ففي إقامتـي رحيل، وإذا ما رحلت ففي رحيلي إقامة، الحب والموت وحدهما يبدلان الأشياء كلها.

جبران

كنـت قد اتفقت مـع الدكتور حمودي الذي وصل الى استراليا، أن أهـرب الى إيران، ثـم منها الى اندونيسـيا، ومنها عبر البحر الى اسـتراليا، بلاد الكنغـر والكرامة، هذه كانت خطط هروبي، فالدكتور «سـوف» يدخل اختبار الطب، و«سـوف» ينجح فيه، ثم «سـوف» تتحسّن أحواله المالية، وأكون أنا مع وصوله الى العمل كطبيب متهيئا في

إيران لبدء الرحلة الى استراليا، هكذا كان حديث الورق.

سبقت رحلتي الى إيران اتصالات كثيرة جرت مع حمودي ومع شقيقي في إيران الذي تكفّل بمهمة إرسال من يهرّبني من العراق، تحدّثنا حول أكثر من سيناريو وتوقيت، وكلّها مرتبط بمدى ثقة شقيقي بالشخص المكلّف بنقلي، وللثقة في مثل هكذا أحوال أكثر من شرط أو زاوية، فعليه أن يتأكد من أن «القچقچي» ليس «وكيلا» أو متعاونا مع نظام صدام، «والقچقچية» في كلّ عصر ومكان هم أضعف الناس قدرة على كسب ثقة الآخرين، هم أشبه بمنقذ الغرقى، يسحب يده مع أول شعور بخطر الغرق، وربّما «يبيع» سلعته الى أي زميل آخر، هروبا من التعب أو الخوف أو أي سبب يراه وجيها للبيع.

أما الشرط الآخر في القچقچي فهو معرفته بكل تفاصيل الطريق ومخاطره، كان هذا التشدّد غير مبرّر في نظري، فقد كنت أعرف أن الآلاف بل الملايين من العراقيين هربوا وحدهم، أو ربما مع أشخاص لا يعرفون عنهم أي شيء، ولم يتعرّضوا لأذى، لكن يبدو أن المسؤولين عن رحلتي كانوا «حنابلة» لا يشقّ لهم غبار، ومع مرور الأيام كان شقيقي قد اختبر أكثر من شخص قبل أن يرسل لي من يأخذني، ولأن البحث عن شخص بهذه المواصفات ليس سهلا، لذلك تأخّر هربي بعض الوقت.

في آذار عام 2001 طلب مني حمودي الاستعداد لبدء الرحيل، بعت «أملاكي» وهي عبارة عن محل من «الچينكو» أبيع به البهار والنكهات الغذائية في سوق الكمالية، كنت قد اشتريته بـ 200 دولار استدنتها من أخي الأصغر، ومكتبة هي حمل خمس «گواني» جنفاص، بعت أملاكي بـ « 400» دولار! وجلست في البيت، بانتظار لحظة الهرب. وللمزيد من الحذر اتفقنا أن يتمّ التواصل مع المهرّب عبر هاتف منزل شقيقتي الكبرى في حي الأمين. مضى شهرا نيسان وأيار ولم يتصل بي أحد. وفي أواسط حزيران اتصل بي الشخص المعني، وحدّد اللقاء في بغداد الجديدة، كان شابا وسيما، لا يبدو عليه أي أثر لجهد، أو تعب، أو فقر. قال إن اسمه «جميل» ولعلّه اسم حركي كما حسبت حينها، وهو كردي، ولد وعاش في بغداد، واستقر في السليمانية

عقب انتفاضة 1991، واستقلال كردستان.

اتفقنا أن تكون الرحلة بعد أسـبوع عبر السـليمانية، حدّد يوم 24 حزيران 2001 موعد «العملية» التالية لرحلة خوف اسـتمرت عشرين عاما، اتفق صاحبي مع سائق قال إنه يثق به ويتعامل معه منذ وقت طويل، بتنا ليلتنا في بيت شقيقتي، غطّ هو في نوم عميق، تاركا إياي نهبا للقلق، لم أنم ولو للحظة واحدة، يشدّ توتري كلّ جسدي، ويمنـع عني لذّة النوم، فإغمـاض العينين يحتاج الى شيء من الهـدوء والأمن، وكنت أحوج ما أكون لكليهما. هل فعلا سأترك أحبتي الى الأبد؟ كيف سأزرع روحي في أرض أخرى؟ هل سـأقول وداعا لكلّ ما مرّ بي ؟ وفي الوقـت الذي كان عليّ أن أفكر بالغد، الذي يلفه الضباب والغموض، كانت الغرابة أن فكري انشـغل بالماضي، وبالذكريات وحزن فراق الأحبة، كان المستقبل متروكا للحظ، للصدفة، لعطف الغرباء؛ أما الماضي فلـم أجد مكانا ألقيه فيه وبقيـت حائرا معه، لم تكن مقامرتي عادلة، سـأراهن بما أحببـت من أجل نجاة يصعب الإمسـاك بهـا أو الرهان عليها، فقد أعـود مرّة أخرى للأحبة وأنا سجين، أو مقتول، أو ربما مجنون.

وصل السائق فجرا، نظرت في عيون من أحاطوني، كنت أتصورهم يبحثون عن معنى لما يمرّ بنا، عن إجابة لأسئلة ليس لها نهاية، فأشعر بحيرتهم التي تشبه حيرتي، هل أنا سعيد بهذا الذي يجري؟ هل سأندم على ما فعلت؟ كنت في نظرهم أشبه بمن نجا من طاعون ضرب المدينة، فرحين بهربي، وتعسـاء أيضا، راغبين، ورافضين. وضعنا الحقائب في صندوق السيارة، كم تمنيت أن يقول لي أحدهم ترجّل، عد، ربما سأرمي حقائبي بوجه مخططات الهروب وأحلام النجاة، السـائق كان متعجلا، فهو يفترض أن عواطـف الوداع الأبدي قد انتهت في الليل، وأن لحظاتها قد مرّت منذ وقت، أغلقت صندوق السـيارة، وإسـتدرت كي أنطق آخر الكلمات، عن الحبّ، والوداع، والحزن، والموت، واليأس، والأمل، إحتضنتني شـقيقتي وبكت، لم أشـاهد بـكاء بهذا الهدوء، دمعهـا الغزيـر ينزل بصمت، كان خوفها من أن تسـمع الناس صـوت بكائها يلجم حنجرتها، شعرت أنها ترغب بان «تنعي» وداعي بما تحفظ من شعر، البكاء بصمت

يخنق أســاها ولوعتها، تريد أن تفعل ما فعلت أمها مع أولادها حين يحاصرهم الموت في جبهــات الحرب، من قال إن وداع الأحياء أقلّ أذى من دفن الأموات؟ أليس «دفني» هو ما كانت تفعله تلك المسكينة في تلك اللحظة؟

مضت بنا السيارة الى جلولاء، شددت عيوني صوب الناس الذين يمرقون من النافذة، أراقبهم، أودعهم، أتحدث لهم في داخلي، اتمنى لهم الســلامة بصدق، كان هواء الفجر يبعث الطمأنينة، وينســيني شــيئا مــن خوفي وقلقي، أعدت شريط حياتي، شــاهدت الأصفار التي تملأها، فهي تقفز من الصفر ثم تعود له، حتى اعتادت نظام التصفير، أحبتي، رغبتي في العيش بســلام، مدرســتي، شــوارعي، فراش نومي، بعض قصص الحبّ وبعض الكتب، كانت كلّها قد صفرت، وعلي البدء برحلة بحث عن كل الأشــياء التــي فقدتها، أين ســأجد حياتي التي تركتها؟ هل ســيكون هنــاك بديل للنجاة غير الهرب؟ في أي واد ستستقر الناس؟ أسئلة لاحقتني وأنا اتذكر من هربوا، لقد وجدت نفسي بينهم، عرفت خوفهم، وحزنهم، ويأســهم، عرفت أي طعم علق في لسانهم وهم يتركون سنواتهم وراءهم، تمنيت أن أكون آخر المودعين، كنت أرتعد خوفا وأنا اتصور أن آلافــا آخرين ســيحملون حقائبهم، بعد أن ســدّت بوجههم أبــواب الأمل، هاربين بكرامتهم، وأرواحهم من لعنة بلدهم، لا أدري لماذا أيقنت أن شــتاتنا لن ينتهي، وأن علينا أن نعيد رسم بلدنا في أماكن أخرى والعيش مع تلك الرسوم.

في أقــصى مدينة «جلولاء» وعند الخــط الفاصل بين حدود الحكومة العراقية وحكومة إقليم كردســتان، وقفت الســيارة، لا تبعد نقطة التفتيش ســوى أمتــار قليلة، كانت الساعة تقترب من السابعة صباحا، تركني جميل ذاهبا الى «كلر» وهي أولى المدن التي تقع تحت ســلطة الأكراد، قال إنه سيرســل لي شخصا لينقلني اليه، لم يكن هذا جزءا من الاتفاق، ولم نتحدث به، لكن ما باليد حيلة فأنا طوع إرادته. جلســنا في الســيارة أنا والســائق وهو كردي من ســكنة حي الشــعب ببغداد، بانتظار أن يصلنا مبعوث جميل، مضت الســاعات بطيئة، كان ســائقي هادئا، فهو معتاد على هذا الوضع كما يقول، خرجت من الســيارة ودخلت مطعما صغيرا وبائســا، يشرف على ساحة مطلّة

عــلى نقطة التفتيش ومليئة بالمهرّبين، البعــض يحمل قناني الغاز، وآخرون يحملون أكيــاس الحليب، ومنهــم من يضع فوق رقبته ســجادة، خلية النحل هــذه أذهلتني، واعتقدت لحظتها أن الخوف من الســلطة كان مبالغا فيه، وإلا لما كانت هذه الأعمال غير القانونية تجري بوضح النهار وعلى مرأى ومســمع الجميع، حركة التهريب هذه أثارت فضولي وأنستني قلقي على ما سيكون عليه الحال مع صاحبي « القجقجي».

في طاولة المطعم جلســت مســتريحا، اقترب مني صاحب المطعم، وبدأ الحديث بيننا، بعض أســئلة، وشيء مــن التذمر من الوضــع، وريبة متبادلة، وفجــأة طلب مني أن أتــرك المطعم، قــال إن الرفاق الحزبيين وعناصر الأمن يراقبــون الناس، ويبدو عليك أنك ذاهب الى الســليمانية. هل كنا مكشــوفين الى هذا الحدّ؟ تساءلت مع نفسي. عدنا أنا والســائق الى السيارة، لم تمض ســوى دقائق قليلة، حتى بدا وكأنّ شيطانا دخل لدماغ الســائق، قال إنه يريد زيارة أخته في خانقين التي تبعد ما يقرب من ساعة عن جلولاء، توسلت به:

ـــــ يمعود اترك اختك لخاطر الله هســة مو وكتهــة ... ابو الغيرة خلي يجي صاحبي وروح الله وياك..

توقفت أذانه عن سماع صوتي، حتى بدا لي كتمثال، قلت له:

- كردي وعاند ماكو چارة.

مــددت ببصري صوب الشــارع ولذت بالصمت، حرك ســيارته، ومشــينا، وبعد أقل من ســاعة وصلنا خانقين، ولم أتركه يهنأ برؤيته لشــقيقته، ألححت عليه، وعدنا الى جلــولاء، لكننا لم نشــاهد صاحبنــا، ومع كلّ دقيقة تمضي كان قلقي يأكل شــيئا من روحــي، وفي الرابعة عصرا، وكان ما يزيد على 10 ســاعات قــد انقضى منذ وصولنا، حلّ «جميل» وحلّت عليه لعنتي، كنت أرتعد وأنا اتكلم معه، وتزيدني برودة أعصابه مزيدا من الغضب، قال سنعود لبغداد ونأتي غدا.

لم أعد أطيق سماع صوته، عدنا الى بيت شقيقتي، دخلت البيت يغطيني التعب، وبعد حديث مختصر حول ما جرى، بتّ ليلتي مثل سابقتها، لكن فجر اليوم الثاني لم يشبه

سابقه، كان باهتا، ساذجا. وصلنا الى جلولاء، ومضينا مباشرة الى نقطة التفتيش، لم أتـرك لجميـل أي فرصة لأن يعرض عـلي أي اقتراح رغم محاولاتـه المتكرّرة، قلت له لن أذهب مع أي شـخص ترسـله لي، إما أنا وأنت وإما العودة، كنت أعرف أنه لا يريد أن يتعب حاله مع أسـئلة نقطة التفتيـش العراقية، كان معروفا لديهم بأنه قجقجي نشـيط، وهذا وحده كاف لأن يبتزه الجنود ويأخذوا منه رشـوة تتناسب مع حجم ما يهربه، ولو ذهب وحده فانه سـينجو من دفع الرشـوة، أما لو كان معي فسيتعرض لابتزاز كبير وربما يلقى القبض علينا.

نزلنـا من سـيارتنا وركبنا سـيارة أجرة ذاهبـة الى كلر، جلس جميل قرب السـائق وجلسـت أنا في الخلف وبجواري شـيخ كردي، مدّ شرطي شـديد السـمرة برأسه الى السيارة وحين شاهد جميل ضحك، وقال له:

ـــ وين مَنْ السما ؟

إعتذر منه جميل وقال له سـأعود بعد يومين وسـأحمل معي «مَنْ السما» هذه المرّة، دون أن ينسى القسم بالله على ما قال، ثم التفت لي وقال لجميل: مبين هذا وياك، قال له جميل، نعم، هو تاجر من بغداد ويطلب مبلغا من المال من أشخاص في السليمانية، وهو ذاهب لهم ليسترده، قال له:

ـــ حرّك ايدك.

طلـب جميل منـيّ أن أعطيـه 2500 دينار، وهـي لا تتعدّى ثلاثـة دولارات، أخذها الجندي بفرح، مضينا وأنا لا أكاد أصدق السهولة التي انقضى بها أمر ظلّ يشغل بالي وقتا طويلا، فكيف يمكن أن نعبر سـيطرة تشرف على مناطق خارج سيطرة صدام، هي أشـبه بنقاط تفتيش حدودية، ليس سـهلا اجتيازها من دون إجراءات تفتيش، وتدقيق وأسـئلة، ما جرى في نقطة التفتيش كان فألا حسنا، قال جميل، الأمور تسير بصـورة جيدة، وصلنـا مدينة «كلر» ومضينـا مباشرة الى مركز للأمن» الأسـايش». وحسـب الخطـة، كان جميل قد اتفق مسـبقا مع شـخص كردي، بـان يحضر معنا ليخبر الأسـايش بأنه يعرفني وبيننا علاقات تجارية وديون وعمل، مضت الإجراءات

بالصــورة المتفــق عليها ولم يحدث مــا يخلّ بخط المســير، انطلقت بنا الســيارة الى السليمانية، وصلنا الفندق ظهرا، وعليّ أن أذهب في الصباح الى «اسايش» السليمانية، وهي التي ستمنحني ورقة تمنع عني إجراءات التفتيش حتى الحدود، وهو المطلوب، وصلت صباحا الى دائرة الأســايش؛ تحدّثت مع موظفة وموظف في الاســتعلامات عن سبب مجيئي الى السليمانية قلت لهما، إني أريد الذهاب الى إيران، وطلبا مني الانتظار بعــض الوقت، وبعد وقــت قصير طلبا مني الدخول الى غرفة وحــدّدا مكانها، دخلت واســتقبلني أحــد الموظفين، فتح ورقة تضم أســئلة طويلة وشــائكة، وحين فرغ من ملئهــا بإجاباتي، وبعد دقائــق أدخلني غرفة أخرى، ويبدو أنهــا تعود لضابط كبير وليس موظفا عاديا، وأعاد عليّ الأســئلة التي ســألني إياهــا زميله، ولكنه كان محتدّا وعصبيّا، قال لي:

ــ دزوك مجاهدي خلق؟ احــچــي.

اســتغربت من سؤاله أشد الاســتغراب، قلت له لا دخل لمجاهدي خلق في هروبي، وأنا لا أعرف عن ماذا تتحدّث، نهض عن كرســيه، وأعاد عليّ ســؤاله بطريقة أكثر غضبا وانفعــالا، أعدت عليه الإجابة مرّة ثانية، رفع يده لضربي، لكني تفاديته بسرعة، ولم أقو على السيطرة على انفعالي، قلت له:

ــ مجاهدي خلق يعرفون شــلون يدخلون لبلدهم وما ينتظرون واحد مسكين مثلي يخدمهم بالدخول.

طلــب منــي الخروج، وبعد لحظات خرج من غرفته، ومــضى. بقيت حائرا، لا أعرف كيــف أخرج مــن هذه الورطة، مجاهــدي خلق هذه المرة دخلوا عــلى الخط والخطة، يعني آني عايز؟ قلت مع نفسي.

صــاح بــي الضابط المنفعل، طالبا مني مرافقته، ذهب بــي الى طابق آخر من طوابق البنايــة، أوقفني أمام غرفــة ودخل اليها، خرج بعد قليل وقال لي ادخل، كانت الغرفة واسعة جدا، وأنيقة، يجلس فيها رجل كثّ الشارب بشكل ملفت، طلب مني الجلوس، وتحــدّث معي بلطف شــديد، وقال لي كيــف عاملك الاخوة، ولم أصدق هذا الســؤال،

فقلت له يشبهون جماعة علي حسن المجيد، ضحك بصوت عال.
وقال: ليش هل حـچـي؟
وذكـرت له قصة مجاهدي خلق التي فاجأني بها الضابـط، والطريقة العنيفة التي قابلني بها، قال إن الضابط ليس جادّا في سـؤاله. قلّل هذا المسؤول من قلقي وخوفي، وخرجت منه، وأنا أحمل ورقة إذن بالتجوال لمدة 48 سـاعة فقط، وفي الفجر تلقفني «قچقچـي» آخر كان قـد أتى للفندق يـوم وصولي واتفق مع جميـل على إيصالي الى الحـدود، وفعـلا مضيت معه الى بنجوين، أوصلني الى سـائق سـيارة أجرة لينقلني الى«بـاش مـاخ» وهو مركز حدودي بين العراق وإيـران، وفي نفس الوقت كان مركزا كبيرا للتهريب، وقال له أوصله الى شخص سمّاه له، وهو ينتظرنا هناك.
في «باش ماخ» تلقّاني شاب إيراني نحيف البنية في نهاية العشرينيات من عمره، وهو الذي اتفق معه صاحبي المهرّب، كان المركز الحدودي الإيراني يقبع وسط منخفض، لا يبعد عن المكان الذي نحن فيه وهو عبارة عن مسـقّفات مبنيّة من الأخشاب، سوى مسافة قليلة، تلقّف الشاب الإيراني حقيبتي، مشى وكأنّه متّجه صوب المركز الحدودي، بدأت أول المخاوف، ولكنّه بعد خطوات قليلة استدار، فصعدنا الى طريق مرتفع جوار المركز الحدودي، وبعد خطوات اقتربت منا سيارة حمل، توقف السائق وركبنا، كانت تضمّ عددا من الناس بينهم عائلة، لم تسر سـوى مسافة قصيرة، نزلنا منها واتّجهنا صوب مزرعة كثيفة الأشجار داخل الأراضي الإيرانية، وجدنا بضعة أشخاص جالسين بين الأشجار وهم يرمقون الطريق، جلسنا لبعض الوقت ثم طلب مني صاحبي المشي معه، وبعد ما يقرب من النصف ساعة، وصلنا الى تلّ يطلّ على شارع عام، فهمت من صاحبي، والحديث بيننا كان يدور بلغة الإشارات، أنه سيذهب ليجلب سيارة، وأشار لي بان انتظر خلف التلّ، لكي لا يشاهدني أحدٌ.
اختفـى صاحبي بين التلال، مضى ما يقرب السـاعة وأنا جالس في مكاني، سـمعت صوت منبه السـيارة، مددت برأسي لأشاهد صاحبي خلف المقود، ركبت معه وانطلق مسرعـا، مررنا بأكثر من نقطة تفتيش لكنها لـم توقفنا، أو بالأحرى لم تدقق في أمر

السيارة ومن فيها، ووصلنا بعد ساعة أو أكثر الى قضاء مريوان أحد أقضية محافظة سنندج. وصلنا لحي يمتدّ على مرتفع ويطلّ على المدينة، ثم الى بيت ارتقينا سلّما اليه، وأدخلني الى عائلته، كانوا يتناولون طعام الغداء، وهم زوجته وثلاثة أطفال، أجلسني في غرفة واسعة للضيوف، ثم بعد دقائق، استقل السيارة ومضى، تركني وحدي، بعد ساعتين أو أقلّ بقليل، دخل رجل يقارب الخمسين من عمره، وبعد قليل سمعت صوته يرتفع، وكأنّه في شجار مع الزوجة، ثم مدّ رأسه عليّ ليرمقني بنظرة حادّة، قبل أن يخرج، ملأني الخوف وتيبّس دمي، قلت سيأتي بالشرطة، مضت الدقائق ثقيلة ومدماة، لم يحدث شيء، امتدت الدقائق لتصبح ساعات، وأنا حبيس خوفي وأسئلتي وحيرتي، ترى من يقوى على إخراجي من هذه الورطة وأنا بين يدي العجم، لا أفهم منهم شيئا، ولا أعرف كيف أبعد عن نفسي التفكير بالفصل الأخير بين يديهم، وقبل الغروب بما يقرب الساعة، دخل عليّ شاب قصير البنية وممتلئ الجسم، سلّم عليّ بلغة عربية فصيحة وسليمة، يا الهي، أي رحمة هذه التي أنزلتها من سمائك، رددت عليه السلام بحرارة طبعا، قلت له:

ـــ شنو القصة ، تره اني حاير وخايف.

طلب مني الحديث باللغة الفصحى؛ ضحكت وقلت له:

ـــ چنّك على فصحة يمعوّد.

قال إنه شقيق الشاب الذي نقلني من الحدود، وإن الرجل الكبير الذي دخل عليّ حين مكوثي مع العائلة وأثار بصوته خوفي، كان خال الزوجة وهو قد منع الزوج من العمل في تهريب الأشخاص، وغضبه هو بسبب عصيان نسيبه لما طلب منه، قال إن الحكومة الإيرانية لن ترحمهم اذا عرفت أنهم يهربون الأشخاص لا السلع، ولحسن الحظّ اكتفى الرجل بتهديده ولم يفعل شيئا. أخذني الشاب «الفصيح» الى السوق، تناولنا طعام العشاء، ثم قال إنه سيوصلني الى أخي، شكرته على كرمه وطيبته، سألته عن معرفته بالعربية فقال إنه تعلّمها من خلال دروس تلقّاها في الجامع القريب من بيتهم، وهم أكراد سنّة.

في الليل عدنا الى بيت شـقيقه لنجد عددا من أقاربهم رجالا ونساء يجلسون في غرفة الضيـوف، تحدّثنا حول مواضيع كثيرة، كان بينهم خال الزوجة الذي أثار رعبي قبل ساعات من جلستنا هذه، ضحك الحاضرون حين قلت لهم عبر مترجمنا:

ـــ حين رأيت صاحبنا يصرخ قلت مع نفسي. حظّي أسود فعلا فسيلقي القبض عليّ أول شخص إيراني أراه وفي أول متر في إيران..

عرفت أنهم يخافون من السـلطة كثيرا، بسبب ما تعرّضوا له من عنف عقب الثورة، وحينها عذرت خال الزوجة على صراخه، أخذني صاحبي الفصيح الى بيته، وفي الفجر خرجنـا متّجهـين الى قم التي تبعد ما يقرب من 800 كيلومتر عن محافظة سـنندج، وبعـد رحلة شـاقّة ومضنية لم تخل من مخاطـر نقاط التفتيـش، وصلنا عصرا الى مدينة قم. مع مضي الأيام حلّت إيران ألغازا كبيرة، وخاصّة بالنسبة لحياة العراقيين فيهـا وما يواجهونه من عنت وضيق طوال فترة وجودهم التي امتدت الى ما يزيد عن عقدين من الزمن.

عراق في إيران

لقد حكم علينا أن نشهد كيف يموت أهلنا وأجدادنا عبر رسائل البريد، وكيف يولد أبناء الأخوة والأخوات عبر المكالمات التليفونية.. ومع ذلك، يبقى الألم الأكبر هو أن نرى وطننا يبتعد كالمدّ والجزر البعيد والغريب عنا، وكيف أن أجسادنا تبدأ رحلة التأزم والإنهاك باحثة عن متكأ ما: أجسادنا تبدأ ـ رغما عنها وربما إلى الأبد ـ الاعتياد على بلد لم تختره بإرادة حرة ..

ليون غرينبرغ

كتابه «التحليل النفسي للمنفى والمهجر»

حين وصلت لإيران لم أكن أفهم طبيعة حياة العراقيين فيها؛ ماذا يعملون؟ كيف يعيشون؟ ما هو الممنوع وما المباح لهم؟ كيف يمارسون نشاطهم السياسي الذي كان سبب هجرة الغالبية منهم من العراق ؟

حملت معي الى قم فهمي وتصوّري عن العلاقة بين قوى المعارضة التي تستقر في إيران، كنت اعتقد أن المجازر التي ارتكبها صدام حسين بحقّ الناس، وخصوصا الشّيعة، وما لاقوه من عنف وإرهاب وخراب، ستفضي في النهاية الى نوع من التّعاضد والانسجام يجمع قوى المعارضة ويمدّها بالكثير من عوامل القوّة. إن مواجهة صدام حسين ووحدة الدين والمذهب والقومية ترسم صورة، ولو أوليّة، عن نوع العلاقة وطبيعة الاختلاف والجدل، فالذي يوحّد العراقيين أو على الأقل يمنع عنهم الشقاق والاختلاف العميق، هو أكبر بكثير مما يشتّتهم ويمزّقهم.

لكن لم تمض سوى أيام قليلة حتى انهدم البناء الرومانسي الذي كان يعيش فيه فكري مستريحا. كانت الصورة التي تشكّلت عن العراقيين في إيران قد نسجت من خيوط الأماني أو الأوهام، في حين كان الواقع أكثر تموّجا وأشدّ تعقيدا، فلا الدين ولا المذهب ولا الهدف الأسمى، ولا المعاناة الواحدة، قد وحّدت الشّتات العراقي في الصقيع الإيراني، وبدل ذلك كانت هناك حياة سياسية هي مزيج من التّخاصم الحادّ والعدوانية والاحتراب بين الفرقاء، فالثقة فقدت بالكامل والاتهامات بين الحزبيين وصلت الى حدود مخجلة.

إن منابر معارضة صدام التي كانت صورتها في العراق زاهية ونقيّة وتمنح شيئا من الأمل في النجاة من قبضته، أو على الأقل الأمل بأنّها ستنجح في بناء العراق بعد سقوطه، لم تكن ذات حيلة بالواقع. كانت صورة متخيّلة من قبيل التفكير بالتّمنّي. كان المعارضون ممزقين وأقرب الى الاحتراب منهم الى العمل السياسي المشترك. كم هم مساكين أولئك الذين يجلسون في بيوتهم، أو يقبعون في سجونهم، أو يختبئون في الأهوار والصحارى وهم ينتظرون أن يأتيهم الفرج من هؤلاء الذين يتقاتلون على فتات بائس ورخيص، ويشعلون حروبا، ويعيشون وسط بحر المكاسب والمنافع الشخصية. كم من الشباب من ينتظر حبل المشنقة ليلتفّ حول عنقه بسبب قبوله العمل مع معارضة لنفسها قبل أن تكون معارضة لصدام؟

أذهلني نجاح صدام في تحويل العراق الى سجن حقيقي، نقبع فيه ونحن نجهل

كيـف يعيش مئات الآلاف من العراقيين ولعشرات الســنين في بلــد مجاور. لقد تركنا سـجن الشمولية أسرى تصوراتنا وافتراضاتنا، وحين لمست بيدي الاختلاف بين واقع العراقيــين في إيران وبــين تصوّراتي عنهم، عرفت مدى البطـش الذي وقع علينا، كنا مخلوقات صيغت من ســواد ذلك الســجن الرهيــب، وكان كلّ ما نعرفــه خارج ذلك السجن خاطئا أو عاريا عن الصّحة، لم نكن نعرف بقدر ما كنّا نأمل، كانت معارضتنا بالخارج وليدة رجاء ليس إلا.

في يوم ما كنت أقف قرب حسينية حزب الدعوة الإسلامية التي تسمّى بحسينية الشهيد الصدر، ومرّ على الجانب الآخر من الشــارع رجل دين كان معارضا لصدام ونجا من قبضته هاربا الى إيران، أشار لي بيده ومضى كمن يريد العتاب واللوم، وبعد ساعة أو أكثر كنت أقف أمامه في سوق العراقيين القريب من الحسينية، قال لي برفق ولين:

ــ لماذا تقف أمام كنيسة الجماعة؟

والكنيســة في فكر ذلك الشــيخ تعني رمزا منبوذا ومحتقرا، قلت له ليس لديّ مشكلة معهم مثلما لديك أنت، أنا متفرج وأنت ضحيّة، أنت سياسي وأنا مستقل، قال لي إنهم ضالّــون مضلّون. ومن كثرة ســماعي لروايات الضّلالة، والانحــراف، وأوصاف الذمّ الأخــرى التي يتبادلها الخصوم عرفت أن الشــتات مــزّق أرواحهم، وطحن بعنف ما بقي لهم من بصيرة أو من أمل، فقرهم، وتيههم، حمّلهم فوق ما يحتمل البشر، ضاقوا بمصيرهم التّعيس، كانوا مخلوقات سياسيّة، متشكّكة، ومرتابة، يتبادلون الاتهامات حــول ما يلاقون من مصير ســيّئ، وأيقنــت أنّ الناس حين تقذف بهــم الظروف الى أقصى تخوم اليأس والألم سيكونون عرضة للدخول في مزادات الكذب والأنانية، هناك حيث يبيعون ما بقي لهم من متاع العقل والضمير.

وصلت الى إيران في مرحلة كانت جثث الأحزاب الشيعية قد تفسّخت، كانت بلا ملامح حيّة، ماتت في ســجن ولاية الفقيه وتحت نير مخابراتها ومؤسّساتها، هرب أعضاؤها أو ضحاياها، من ســجون البعث ليجدوا أنفسهم في سجون «السباه» و«الإطلاعات»، ســجنهم الإيراني أمات نفوســهم، فخرجت الأنانية كاشــفة عــن الكثير من الأمراض

والسموم، كان أكثر ما يثير في موضوع العلاقة بين الأحزاب الشّيعية التي تعيش اليوم صداقة السلطة ومصالحها، اقتسامها كعكة الكراهية والشكوك والأكاذيب والتشهير.

لم يكن مضمار المنافسة بينهم متعلّقا بهدفهم الأسمى المفترض وهو إسقاط نظام صدام حسين، فذلك الهدف قُبر الى الأبد وأصبح نسيا منسيّا، كانوا يتنافسون على أشياء أخرى ذاتيّة ورخيصة. تحوّل مبدأ معارضة صدام الى «دكاكين» يعتاش عليها القادة وحاشياتهم، المتاجرة بمأساة العراقيين، في إيران أو في العراق، أصبح شغلهم الشاغل، خطبهم، مؤتمراتهم، صحفهم، سخّرت لبيع أوصال المساكين وعرض حاجاتهم في سوق التمويل.

اذا حمّلنا مسؤولية التدهور المريع الذي أصاب المعارضة العراقية في إيران لقادة المعارضة أنفسهم، أو الى الظروف الحياتيّة القاسية التي عاشوها في المهجر، فان ذلك لا يعفي الحكومة الإيرانية التي حوّلتهم ومنذ الأيام الأولى لوجودهم على أراضيها الى مؤسّسة حكومية أو منظمة أجنبية تخضع في عملها للسلطات الإيرانية.

شاهدته يجلس على كرسيه متدفّئا بشمس الشتاء، كان شيخا كبيرا، سألني شقيقي هل تعرف هذا المعمّم؟ تمعّنت فيه لكنّي فشلت في تشخيصه، فردّ عليّ أنه الشيخ صادق خلخالي، يا إلهي، هذا الذي ملأ الدنيا وشغل الناس في سنتين فقط من سنوات سلطة رجال الدين، هل فعلا لا يفصل بيني وبينه سوى الرصيف، كان حظّي حسنا، فمحل تصليح التلفزيون الذي حملنا له جهازنا، يقع أمامه تماما، وقفت اتأمل وجهه، قلت، هل فعلا هذا هو القاضي الذي حاكم آلاف الناس ملقيا بهم في السجون أو الى المشانق؟ روبسبير الثورة الإيرانية يعيش أيامه الأخيرة، منبوذا ومهانا، أي صورة هذه التي ترتسم أمامي؟

فتحت عيوني على سعتها، لأشبعها منه، شعرت بتعاطف كبير مع لحظته، لا أدري لماذا تصوّرت أني استطيع أن أقرأ كلّ صفحات الندم التي تسكن روحه في تلك اللحظة، وهو الذي لم يكتب في مذكراته أيّ كلمة توحي بندم أو استغفار، كنت اتصوّره مكابرا

حين رفض الندم على الدماء التي ســفكها، رفعت يديّ للســلام عليه من بعيد، قابلني بالتحيــة، كان خائر القــوى، ومنهكا، كم تمنّيت أن أجلــس أمامه ليحدّثني ليس عن مــا قام به، بل عن لحظتــه هذه، هل يؤمن بأن الدم الذي ســفكه مهد الطريق لدولة العدل والحقّ كما كان يقول هو ورجال الثورة الآخرون؟ كان خلخالي صاحب المقولة الشــهيرة التي يبرّر بها ما كان يجري في محكمتــه التي أعدمت آلاف الناس «المظلوم الى الجنة، والظالم الى النار». كان مجرد سماع اسمه يثير رعب الناس، وها هو اليوم بلا كرسي محكمة، أو منصب، أو جاه، أو ســلطة، ينتظر لقاءه بعزرائيل ليقف أمام محكمة الربّ، عشت ما بقي لي من اليوم وأنا اتأمل صورته.

بعــد أيام وجدته أمامي، كان يتكئ على عصاه ويجرّ نفســه ببطء، خارجا من مرقد معصومــة ومتّجها الى الشــارع المؤدي الى منطقته. كان معي شــخص لا يتوانى عن ارتكاب الفظاظة، حين شــاهده بصق على الأرض وكأنّه يسبّه، لم تكن حواس الشيخ الكبير تســمح له بفهم ما فعل هذا الأحمق، أو ربما لم يره، التفتّ له ولمته على فعلته الخسيسة، شعرت أن الكراهية أفقدته شيئا ليس بالقليل من إنسانيته.

ما لاقاه خلخالي من رفاقه يشــبه ما لاقاه ضحايا معارضة صدام حسين في إيران مع فــارق جوهــري هو أنّ ضحايا المعارضة لم يكونوا ســفّاكي دماء بل كانوا ســافحي دموع، كانوا ضحايا شرفاء ومساكين.

معمل التِرب

كان ســريري في الثكنة ثلاثة ألواح من خشب وذلك هو المكان الوحيد الذي كنت استطيع التصرف فيه والتمتع به.

دستويفسكي

« ذكريات منزل الاموات»

فرص العمل في إيران بالنســبة لغريب اليد والقلب واللســان مثــلي صعبة، إن لم أقل إنّها منعدمة، أعيش على المعونات التي يبعثها لي الدكتور حمودي من اســتراليا، وهي تكفيني وتزيد، وبرغم ذلك ســعى أخي وأصدقاؤه الى البحث لي عن عمل، وبعد جهد وصبر حصلت على فرصة العمل «حمّالاً» في مصنع للورق في أطراف قم، وصلته فجرا، استبدلت ملابسي، وبعد لحظات بدأت بنقل رزم أغلفة كارتونية تحملها شاحنة واقفة أمام المصنع. العمال كانوا خليطا من عراقيين وإيرانيين وأفغان، في اســتراحة الغداء دخل ربّ العمل غرفة الاســتراحة ومعه والده وهو رجل كبير في الســنّ، تبدو عليهما

إمارات الثراء والنعمة، تسـكن عائلتهم في منطقـة راقية في طهران، بدأ الرجل الكبير الحديث معي، عرفت أنّهما جاءا الى غرفة الاسـتراحة خصّيصا للحديث معي، كانا قد عرفـا من أصدقاء عراقيـين في المعمل، أني أحمل شـهادة البكالوريوس في الاقتصاد، تكفّـل أحد العراقيين بمهمة الترجمة، كانوا مندهشـين من عمـلي كحمّال وأنا أحمل شهادة جامعية.

مـا الفرق؟ قلت مع نفـسي فانا أحمل «ورقة» لا قيمة لها في العراق ولا تعني شـيئا، واليـوم أنا أنقل أوراقا لا تعني لي شـيئا أيضا، الاسـتغراب كان سـيد الحديث، كنت أنظر لدهشـتهم مـن المفارقة بين عملي وشـهادتي وأقول مع نفسي لمـاذا تغافلوا أو نسـوا أن حكما دكتاتوريا يقبض على السـلطة ثلاثين عاما لن يقود سـوى الى خراب وفاقـة. لكنـي اعترف أني لم أذق طعم مشـاعر تلك اللحظة مـن قبل. هي مزيج من حزن، وضيق، ولعن للحظّ والسلطة والمصير. وحين انتهى يوم العمل المرّ هذا كنت قد حسـمت أمري على ألا أعود لهذا المكان أبدا، مكتفيّا بما حدث في اليوم الأول، ومكتفيّا أيضا بمشاعره.

وبعد أسابيع قليلة حصلت على فرصة عمل أخرى، كانت هذه المرّة في «معمل» لإنتاج «تربة» الصلاة، هو عبارة عن فرن وماكنة فرش وتقطيع وحوض تخمير، تشغل بيتا مستأجرا في حيّ سكني وسط قم، يملكه «سيد مهدي» وهو عراقي في الأربعينات من العمر، يرسـم مصير عائلته صورة مؤلمة عن ما جرى في عراق صدام، تسـكن العائلة في منطقة العطيفيـة ببغداد. يملك والده محلّا لبيع جلود وأدوات الحقائب والأحزمة في سـوق السراي، عاد من المدرسـة وهو لم يزل طالبا في المرحلة الاعدادية وكان ذلك عام 1980، ورغم مرور السـنين يتذكر مهدي أن والدتـه كانت تهيّئ لهم الـ«التمن والباميـة» للغداء، حين سـمع طرقا على الباب. خرج مهدي ليجد حشـدا من الرجال يقفـون أمام المنزل، عـاد مسرعا الى أمه، خرجا معا ليكتشـفا أنهم «رفاق حزبيون» جـاؤوا لترحيلهم من العراق، وشـاء القدر أن يصل والده في اللحظة نفسـها، تحدّث «الرفـاق» مع الوالد بغلظـة وتهديد، قالوا لهـم إنّكم من أصول إيرانيـة وإن الوقت

قد حان لترك البلد، لم يملك الرجل حيلة فهو أمام سـلطة غاشـمة ومسـتهترة، دخل الجميع الى البيت، وقف «الرفاق» وسـط غرفة الاسـتقبال وهـم ينتظرون أن تنتهي العائلـة من حديثها وهي تبحث عن مخرج لمأزقهـا المؤلم، أخذهم الرفاق الى المنظمة الحزبيـة ومنهـا الى الأمن العامة، يقول سـيد مهدي إن قدور الطبـخ ظلّت على النار حين حملتهم سـيارة «الرفاق». تركوا وراءهم كلّ شيء، أثاث البيت، السيارة، الدكان، الأموال، الذكريات، المسـتقبل الذي صنعوه من عرقهم وكدّهم سـنوات طويلة، وبعد أيام كانت العائلة تسكن في خيمة على الحدود.

في إيـران كان الخيـار الذي مضى فيه ربّ العائلة هو الأكثر مدعاة للاسـتغراب، فقد عمل الرجل ببيع الفواكه والخضراوات في عربة وسـط سوق بدأ العراقيون المهجّرون يؤسّسونه في قم، رفض الرجل أن يشتري بيتا أو أثاثا، متعذّرا بان عودتهم الى العراق ستكون قريبة وقريبة جدّا، لذلك كان والده يرفض حتى شراء الخبز بكميّة تزيد عن استهلاك اليوم، وحين تطلب منه زوجته أن يشتري كميّة أكبر، كان يضحك من طلبها متعللا بأنّهم لن يلبثوا سوى يوم أو يومين فقط وسيعودون بعدها الى بلدهم وبيتهم، مضت الأيام لتصحو العائلة على خساراتها الفادحة، فهم لن يروا العراق مرّة أخرى، لن يعودوا الى بيتهم، هم الآن في عالم آخر تقطعت السبل بهم مع أحلام العودة.

عملي مع سـيد مهـدي كان مبهجا رغم التعـب والارهاق وآثار الطـين، بهجة العمل متأتيـة مـن طبيعة صاحبه الهادئـة والرقيقة، فهو وبرغم ما مرّ بـه لم يكن حقودا أو كارهـا، روحه صافية ونقيّة. كان زميلنا في العمل «أغاي أكبري رشـتي» الشـاب الإيرانـي «الحوزوي»، المرح، والحيوي، يضفي على يومنا نوعا من الفرح يحبط تعبنا الجسـدي، رشـتي يدرس الفقه والعقائد في مدرسـة دينية في الصباح الباكر ويكمل يومه في العمل معنا لكون المعمل يشتغل بنظام القطعة.

كان مرحا بشكل ملفت، مرن الجسم وخفيف الروح، يحبّ النكتة، سريع التعلم، وفي يوم ما طلب مني أن أحفظه شعرا عربيا يقرأه أمام أستاذه في الحوزة، حفظته التالي «آية الله خوش آية .. شـيلة وذبة وية المطايا». لم يكن يجيد اللغة العربية لكنّه ردّده

بسرعة وبدقّة، كان يمشي وســط الغرف وهــو يلقي البيت بصوت عال، لكن صديقنا عقيــل النجفي منعنا من فرصــة الضحك حتى النهاية التي يمكن أن يبلغها رشــتي حين يقرأ أمام مرجعه بيت الشعر هذا.

كريم

دائما في عصور التعصب يبقى الإنسان المحتفظ بإنسانيته، عاجزا ومنعزلا تماما وسط الفقهاء المتحمسين المتشاجرين فيما بينهم.

ستيفان زفايج

«عنف الدكتاتورية»

تجاوز الستين من العمر، اختفى سواد شعره ليحلّ بدله بياض ناصع مثل روحه، يحمل مسبحته التي يؤمن بقدرتها على تخطّي حجب الغيب، يستخير بها حتى في اختيار «الدربونة» التي يسلكها، أو في شراء قميص أبيض اللون أو أزرق، أو في ركوب سيارة بدل المشي على الأقدام. المحطات التي مرّ بها حمَّلته مآسي وانتكاسات، فبدا وكأنَّه مطارد يستبد به الخوف، المسبحة وحدها تخفّف عنه رهبة المجهول.

هرب كريم الى إيران نهاية العام 1980، حاملا اندفاع الثائر، وتاركا وراءه زوجة وطفلين، اعتقلت أجهزة النظام الأمنية الزوجة ومعها صغيرها الذي لم يتعدّ الثالثة من عمره، ونجت ابنته التي كانت تبيت في منزل أحد أقاربهم ليلة إلقاء القبض على

أمها وشقيقها، اختفت الزوجة والطفل الى الأبد، غيّبوا في السجون وأزهقت أرواحهم بين جدارنه، لا أحد يدري كيف أعدمت الأم وكيف قتل طفلها هل بحبل المشنقة، أم بالسم، أم بالجوع، أم بابرة سريعة العطب رفعت روحه البريئة بصمت ودون دموع أهله؟

أكمل كريم دراسته في جامعة بغداد، كلية الآداب قسم اللغة العربية عام 1971، كان أحد مسؤولي حزب الدعوة في محافظة كركوك منذ عام 1975 حتى 1980، وصل الى إيران بلباسه فقط، وحين عرفته بعد عشرين سنة على هروبه، كان يسكن غرفة لا تتعدّى خمسة أمتار في بناية مدرسة دينية في أقصى حي «دور شهر» وفي الجزء القديم من الحي.

يومها تحوّلت حياته الحزبية الى ماض فقط، فضّ عن نفسه أعباء الالتزام وبرودة الجهاد، ألقى من على روحه كل الأوزار، وبكلمة تختصر ما آل اليه مصيره، قال لي أحد أصدقائه: من يدخل غرفته ولا يبكي ليس بإنسان.

حين وصل الى إيران كان يعتقد أن أيادي كثيرة ستمتدّ له، لن يجوع أو يعرى أو يعطش، حزبه، والدولة الإسلامية التي هرب لها، سيطعمانه ويؤمّناه.

مضت الأيام ولم يلتفت له أحدٌ، جاع وتعرّى، بكى وتألّم، ولم يسمع صوتا يحنو على حاله، عاش وحيدا، لكنّه مثل كلّ المحاربين الشجعان لم يكن يعبأ بالكثرة، فواجه بصبر غريب الأحاديث التي تلوك بعقله وتشكّ بصفاء تفكيره التي أشاعها عنه أصدقاء الأمس، وهم يحاولون الانقضاض مسبّقا على أي كلمة يقولها يمكن أن تعرّي فقر أرواحهم ونزواتهم وأنانيتهم.

برغم أنه نادرا ما تحدّث عنهم بسوء، إلا أن صمته كان مؤلما وكاشفا وفاضحا، كان منزويا لكنّ غرفته أصبحت كتابا يفضح ما يجري معه، قد أكون مبالغا في وصفه بأنّه كان حكيما في صمته أو في حديثه، ولست معنيّا بتقييم قواه العقلية والفكرية، أو برسم صورة عنه أرمي من ورائها الى تهويل مشهد نكران الجميل الذي قوبل به، لكني أجد نفسي هنا معنيّا بالمصير الذي يلقاه من يسدل الستار على ماضيه السياسي،

أو يتركه زاهدا به، أو رافضا له، أو مقلّلا من قيمته.

يكـره منطق الغاب والغلبة، ويرفض أن يشـتري لقمة خبزه بالسـؤال أو المنّة، كان صدقه هو أشدّ ما يقرّبني منه، كان صادقا سواء في العراق وهو يجاهد نظاما باطشا ووحشـيا، مقدّما روح أحبتـه ثمنا لمعتقده، أو وهو في إيـران يجاهد من أجل فراش يـأوي اليـه أو لقمة خبز أو لبـاس نظيف، كان صادقا حدّ أنّه لـم يختر لقبا أو كنية مثلما فعل أصحابه في إيران لكي يستتروا على شخصياتهم الحقيقيّة خوفا من متابعة أجهزة الأمن البعثية لعوائلهم وأقاربهم، بقي اسمه الثلاثي وكنيته على حالهما، كريم جبر الحسـن، أبو آمنة، لم يكن صدقه موضع شكّ أو متاجرة أو مناورة، مضى خلف معتقده السياسي وتحمّل من أجله ألوان البلاء، لكنه لم يطلب من قيادته الحزبية ثمنا حتى بالدرجة التي يحفظ بها كرامته، كان زاهدا بكلّ ما يرى في معيشة نخبته، لذلك لم يطلب منهم ما يسدّ به رمقه.

أصيب بالجزع مما يجري، فقرر الانتقال الى سورية نهاية العام 1988، كان يبحث عن كرامته التي أهدرت في المهجر الإيراني، وفي سورية كان لديه صديق قديم، احتضنه كريم أيام عملهم السـياسي في العراق وقرّبه منه، وحين وصل الى سـورية ذهب اليه، أسـمعه صديقه أول نصيحة أو طلب أو أمر: لست مستعدّا لاستقبالك أكثر من ثلاثة أيـام، أجابه كريـم بأنّه لن يبقى في بيتـه حتى يوما واحدا. قال له، مـا قلته أنت هو نفسـه قراري قبل أن أطرق عليك الباب، وجئتك طالبا مساعدتك في البحث عن غرفة للإيجـار، وحـين تلمّس جفاف روح صديقه وخشـونتها، خرج منه ليسـتأجر غرفة في فندق رخيص، وعاد لصديقه ليطلب منه فراش نوم بعد أن شـاهد قذارة أفرشـة الفندق، فأخرج صديقه بضع ليرات سورية ليشتري بها بطانيّة، تركه، وخرج، روى لي حكايته هذه دون أن يذكر اسـم ذلك الصديـق، كان تركيزي منصبّا على المفردات التي يسـتخدمها في تصوير المشـهد، والطريقة التي يطرح بها ما جرى، كان هدوؤه مذهلا، تلمّس من دون رياء العذر لصديقه، وعاد ليلوم نفسه على ذهابه له، لؤم ذلك الصديق قابله كريم بتسامح ومغفرة.

محنته طويلة وشتات منافيه لا يقاس بالأسابيع والأشهر، وهل يقاس الألم بالسنوات وحدهـا؟ عـاد الى إيران بعـد أن أمضى في سـورية بضعة أعوام. في هـذه «البضعة» الطويلـة لم يجد طينـا ينحت منه أصنام أمله، نفض تراب منفـاه العربيّ وعاد مثل طير جريح الى منفاه الأعجميّ، عاد الى غرفته، ووحدته.

مـا بين الخوف من بطش السـلطة والعمل على إسـقاطها، وبين الخوف من ضخامة التضحية والاسـتعداد لها، مضت عشر سنوات من حياة كريم في عراق صدام حسين، لكن، وسـط جزع من المهانة والجوع، وضياع الحلم والعمر والعائلة، مضت عشرون عاما من حياته في إيران، وحين عاد الى العراق الذي يقوده رفاق دربه وأصحابه، كان متعبا، ومنهكا، أصاب جسـده وهن السـنين الطوال، لم يسـتعد بيته الذي فقده أيام جهاده، اسـتعاد وظيفته في التدريس في كركوك، وتوسّـل بالذين يعرفهم في السلطة، فقط، لكي ينقل الى بغداد، وكنت شـاهدا على طلب نقله الخجول الذي قدمه لمسؤول كبير كان رفيق جهاده، كان يحمل ورقة فيها اسـمه واسـم مدرسته والمحافظة التي يعمـل فيهـا، وحين أدخلهـا أحدهم الى مكتب ذلـك الكبير، كان كريـم قد تلاشى عن الأنظار، لم يسـمع الإجابة، شاهدته من الشـباك يمشي ببطء كعادته، ويمسح العرق الـذي يتصبّب من جبينه، أو ربّما يمسـح ذلّ الطلب من وجهـه ليبقى نقيّا وناصعا، نقـل الى بغـداد، وخصص له أحد القياديين الإسـلاميين ما يكفي للزواج واسـتئجار بيت لكنّه رفض أن يأخذ المبلغ، يكفي راتبه الذي يتقاضاه في سـدّ حاجاته البسيطة، لم يعد يحلم بشيء، خبت جوارحه، وسـكنت عاصفة الرغبات في نفسـه، يقضي أيامه متنقّلا بين بيوت الأصدقاء، متفرّجا على مصيره ومصير بلده بروح تلوذ بخالقها دون زيف أو رياء، كان الثمن باهظا بالفعل هذا الذي دفعه الصادقون في معارضة صدام، لقد نهشـت شيئا فشيئا أرواحهم، وأعمارهم، ولحمهم، ومصيرهم، دفعوا مرتين ثمن اختلافهم مع السلطة، وفي كلّ منهما كانت الفاتورة باهظة.

صالح

لقد عرفت أن الحرب لن تنتهي أبدا، طالما ظلّ ينزف في مكان ما، جرح سببته الحرب .

هاينرش بول

زارني بعد أشهر من وصولي لإيران، جلسنا حتى وقت متأخر من الليل، بدأنا الجلسة بفكاهة سـيظلّ صالـح يتذكرها طويلا، فقبل وصوله عرفت أنـه يرغب بالزواج من امـرأة عراقية، بعد فشـل زيجتين سـابقتين له من إيرانيتين، وأنـه يملك روح دعابة ونكتة، وحين طرق الباب طلبت من عائلة شـقيقي ان يهيئوا لي ملابس نسـائية وأن يخـبروه أنهم وجـدوا له امرأة عراقيـة بالمواصفات التي يريدها وأنهـا خجولة جدا، وقليلـة الكلام. ارتديت الملابس ووضعت نقابا على وجهي وجلسـت في غرفة مجاورة للصالة، دخل صالح على العائلة وبعد السلام والتحية أخبروه أن امرأة عراقية ترغب برؤيتـه لتتحدثـا عن الزواج، أدخلوا صالحا وجلس قرب بـاب الغرفة، كان يتصبّب

عرقا وبدأ الحديث مادحا نفسه وعارضا مؤهلاته المالية، وروحه الرقيقة ورغبته بزوجة تشاركه حياته، مصوّرا نفسه كرب عائلة ليس له مثيل، يحترم المرأة ويحبّها شريكة وصديقة وانه سيؤثث لها بيتا بكل التفاصيل.

من جانبي كنت اكتفي بهزّ رأسي معبرا عن رضاي بما يهذي به، تحرّكت من مكاني واقتربت منه، بدا خجله وارتباكه واضحا، جلست قربه، فتلعثم، ولملم جسده، تركته يسحب أنفاسه ليوقف تدهور وضعه، كان يتحدث حينها عن راتبه وعن المليون تومان التي إدّخرها للزواج، مددت يدي التي أغطي شعرها الكثيف بقفاز أسود، نحو رجله، وحين لامستها شعرت بنبضات قلبه المتسارعة، قرصته بقوة من فخذه، فاهتز جسده وضاقت أنفاسه وزاد ارتباكه، نظر صوب الباب كمن يريد النجاة من موقف محرج، كانت ورطته كبيرة، التفت اليّ وسألني لينهي اللقاء، هل ترضين أن نبدأ حياتنا من الصفر؟ أزحت النقاب عن وجهي وصرخت به:

ليش من الصفر؟

قفز كارنب مذعور، ضحك الجميع بصوت عال، عاتبه شقيقي على كذبه عليه، حين طلب منه قبل أيام أن يقرضه مبلغا من المال ليستأجر به بيتا جديدا، وإعتذر صالح حينها بسبب عدم امتلاكه للمبلغ، قال له شقيقي:

ــ چذاب تكول ما عندي فلوس اشو طلعت مليون تومان عندك؟

كان ردّ صالح مضحكا أكثر من المقلب نفسه فقد قال له وهو يشير اليّ بصيغة المؤنث:

ــ ضميت عليها مليون ثاني .

انتهت ضحكاتنا وجلسنا، عرفت أن روح الدعابة التي يحملها صالح تخفي وراءها حزنا لا حدود له، نخرت الحرب روحه وخلّفته حطاما.

حين ودعني على السلم الخارجي للمنزل الذي يشغل طابقا ثانيا في أطراف مدينة قم، كنت منشغلا بمصيره ومسار حياته المريرة، مضى وسط الظلام وهو يطرق برأسه على الأرض واضعا يديه بجيوب سترته. عدت للغرفة وجلست حيث كان يجلس، علبة

سكائره الفارغة، وأعقابها التي كان يحرقها بلهفة يشبهان ما تلاشى من أيامه، كنت أتبعه بأسئلتي وذكرياتي القليلة عنه.

كان آخر عهدي به منذ 18 عاما، في الرابعة من عمره فقد أمه، وتكفلته هو وشقيقته زوجة أبيه، وهي شقيقة والدي الكبرى، وكان ذلك مطلع سبعينيات القرن الماضي، عاملته بالحسنى وخففت من وطأة يتمه، لم ينقطع عن الدراسة رغم عمله منذ الصغر في مقهى يمتلكه أخوه الأكبر، وفي العام 1983، وكان يومها طالبا في الخامس الإعدادي، أجبره حزب البعث على الالتحاق بقاطع للجيش الشعبي أثناء العطلة الصيفية، أرسل الى جبهات الحرب ولم يلبث أن وقع في الأسر، كتبت الحرب للصبي اليتيم مصيرا آخر لا يقل قسوة وأذى عن يتمه المبكر، في تلك الأمسية استحضر صالح تجربة الأسر المريرة، تحدّث عن الجوع وهو يفتت كبده ويسلبه قدرته على الحركة والنشاط، وعن العقوبات الشديدة التي تعرّض لها في برد تصل درجته الى ما دون الصفر بكثير، وعن حيرته من الخلافات الحادّة بين الأسرى حول حبّهم أو كرههم لصدام والخميني، والحرب وحزب البعث، وفي أحيان كثيرة وصلت الخلافات بينهم الى حدود الاعتداء الجسدي والمعارك الطاحنة، وبالنسبة لفتى في السابعة عشرة من عمره كان قفص الأسر أشدّ من كلّ ما مرّ به من يتم وجوع، وأقسى من أن يحتمله ويتفادى مخاطره وآثاره على نفسه وصحته.

خرج بعد أربع سنوات من قفص الأسر لينخرط في صفوف المجلس الأعلى للثورة الإسلامية، وهو أكبر فصيل سياسي معارض لنظام صدام حسين. لبس صالح ثوب الجندي المجاهد ليعيش في غربته المضنية على راتب لا يكفي سوى أقلّ الأساسيات من مفردات الحياة، في حديثه معي استعجل الكلام عن حياته بين أقفاص الأسر، وانشغل بالحديث عن تجربتي زواج فاشلتين، استمرت الاولى ثلاث سنوات أخذت منه طليقته اللحظة الأولى «المأساة»، كانتفكانت أسرع وأقلّ خسارة، لم أعرف أسباب فشله في الزواج إلا بعد أيام، فقد ترك الاكتئاب الحادّ روحه حطاما، وهشم الكثير من قوّة شبابه وشهواته، وفي حديثه عن الزيجات الفاشلة كان يقف عند علّة يزعم أنها هي

التي سلبته روحه وقوّته، قال إنه ومنذ سنوات يصارع «الجن»، وأنهم حطموا حياته، وهدموا صحته، وهم يلاحقونه في كلّ زاوية ولحظة، كان يتحدّث عنهم وكأنّه يراهم ويلمس أجسادهم الاثيرية، يردّد عبارات من قبيل، يقولون لي، أقول لهم، استحلفهم بالله، اتوسل بهم، أعاتبهم، اردّد بحضورهم سورا من القرآن، لم يتهاون أبدا في عرض نفسه على كلّ من يعتقد أنه قادر على طرد الجن من جسده، يدخر شيئا من راتبه لحربه مع «الجن»، التي دخلها قسرا بعد أن انتهى من حرب الأنس، تشبّث بكلّ الأوهام لعلّها تضعه في مسار آخر غير ما يمضي فيه، لكنه ظلّ في قفص المرض أو في قفص «الجن».

لا يتمسّك صالح بأي يقين، ولا يعرف لغة الجزم والحماسة، تركته الحرب في «الأرض الحرام»، ولم تسلمه الى أي فرقة أو جهة يركن اليها، كان العراق بالنسبة له ماضيا فقط، ليس له فيه سوى ذكريات عمر لا يتعدّى السابعة عشرة، وإيران ليست سوى منفى قاس، لا يستطيع تصوّر نهايته فيه. يحمل سجنه معه ويعيش على هامش البلدان والعقائد والآمال، يؤدي التزاماته الحزبية بروح مليئة بالشّك واليأس، يصلي ويتعبّد ليمنع أذى مطارديه من الشياطين، يمضي يومه وسط عشرات الناس لكنه بلا صديق، ليس في حياته سرّ حتى تلك الأشدّ خصوصية، لكنه يعيش مثل أي ثوري متوارٍ عن الأنظار، يأتي مسرعا ويذهب دون ضوضاء، يطارد المستقبل وهو يلمس حاضره المحاصر بمرض لا يفضي معه العلاج الى نهاية.

حياة صالح الرمادية، مأخوذة من رماد الحرب التي تجرّعها وهو صبي، كلّ ما مرّ بصالح بعد الأسر بني من طابوق أقفاصه، وبرد ساحاته وفراشه، في تلك الأقفاص تلمّست يداه الغضتان مصيره، لم تتوقف معه دقائق الأسر حتى وهو يعيش بين الناس، صوت الجنّ الذي يطارده ويقضّ مضجعه، هو بالأحرى صوت المدافع التي ألقي وسط أتونها بسرعة وخشونة، ولهفته في البحث عن حلّ لمأساته ومرضه هي محاولة بحث عن حياة أخرى فقدها منذ الصبا، أو هو مسعى لردم ماضيه وأمسه، يعيش يتمه في كبره مثلما عاش الرجولة في طفولته.

حين شاهدت صالح عرفت معنى أن ينتحر الجنود العائدون من الحرب، أن من يمتلك حساسية تجاه مآسي الحرب، يصعب عليه تماما أن يزيح عن أنفه رائحة الدماء التي أريقت عـلى أرضها وخنادقها، أو ينسى صوت تحطّم عظـام بشر كانوا قبل لحظات يتقاسـمون معه يومه، وطعامه، ويشـاركهم أحلامهم ومخاوفهم وحكاياتهم. من لا يقوى على نسيان الحرب لن يجد ما يجده البشر العاديّون من لذّة ومطامح، فالحرب تحطّـم منطق البشر والطبيعة، ليس فيها معنى للموت أو للحياة أو للأمل، أو لمغزى البناء والنماء، وحين تتسـاوى المعاني والمصائر سيجد أولئك المعذّبون أنفسهم أسرى لفكـرة نبـذ الحياة والهروب منها. متـى يرى ضحايا الحرب نهايتها وهم يلمسـون جراحهم كلّ صباح؟

الصدريون

لا تستميل الحركة الجماهيرية الصاعدة الأتباع وتحتفظ بولائهم اعتمادا على عقيدتهــا أو وعودها، ولكن لأنها تتحول الى ملجأ يأوي اليه الأفراد الهاربون من مشــاعر القلق والخواء والضياع.

إيريك هوفر
كتابه (المؤمن الصادق)

بعد وصولي لقم بأيام قليلة بدأت البحث عن صديقي الشــيخ عباس الزيدي، صاحب كتاب (الســفير الخامس) المشــهور بين أتباع الســيد محمد صادق الصدر في العراق، الذي صدر قبل أشــهر قليلة من وصولي لإيران. ســاعدني شــقيقي فلاح في مهمتي، فأخذني الى «براني» الســيد كاظم الحائري المرجع الديني وأحد تلاميذ الســيد محمد باقر الصدر، الذي من المفترض أنه تولّى مهمة رعاية أتباع السيد محمد صادق الصدر

بعـد هروبهم لإيران. وصلنا الـ «براني» قبل صلاة المغرب بوقت قصير، سـألنا أحد الموظفين في المكتب عن عنوان الشيخ ، فطلب منا انتظار إقامة الصلاة مفترضا وصول أشخاص يمكن أن يرشدونا الى منزل الشيخ .

جلسـنا في باحـة المكتب الصغيرة، وبعـد لحظات دخل الحائـري تحيط به مجموعة من الرجال، تلك كانت أوّل وآخر مشـاهداتي له، أسمر اللون، قصير القامة، وممتلئ الجسد، يرتدي نظارات كبيرة الحجم، ويلبس دشداشة بيضاء تحت عباءته، تقدّم له عدد من الأشخاص للسلام والتحية. سمعت بعضا من حديثه، أثارت لكنته الفارسية اسـتغرابي، فالرجل ولد في العراق وتركه وهو كبير في السـّن فلماذا شابت الفارسية لسـانه؟ أو بالأحرى لماذا لم يسـتطع تجاوزها وهو المرجع العراقي الذي ظلّ لفترات طويلـة فقيه حزب الدعوة الإسـلامية قبل أن ينفصل عنـه ويتعرّض لقادته في كتابه «قرار الحذف»؟

جلـس على سـجادة الصلاة وصلّى وحده قبل أن يـؤم الحاضرين في صلاة الجماعة. وحين انتهت عدنا لموظف المكتب لتذكيره بطلبنا، خرج للباحة وتحدّث مع أحد الشباب بعيـدا عنا، وطلـب منا أن نذهب معه، مشـينا في أزقة أحياء قم القديمـة والمتهالكة، دخلنـا حيّا سـكنيّا في طور الهدم بعد أن ابتاعت الحكومـة الإيرانية بيوت من يرغب بالبيع وهدمتها لإنشـاء طريق عام يخترق قم من مركزها حيث مرقد معصومة بنت الإمام الكاظم، حتى جنوبها ليصل الى مسـجد جمكران الذي يبعد خمسة كيلومترات عـن مركز قم، والذي أصبح مزارا كبيرا بسـبب حلم تـراءى لرجل، يأمره فيه المهدي المنتظر ببناء المسـجد، فتحوّل مع مرور الأيام وخاصة عقب الثورة الإيرانية الى مَعلم ديني من معالم قم.

كان البيت في منطقة «معلم» قريب من بيت الخميني الذي تركه عام 1963 ولجأ الى تركيا ومنها الى العراق، طرقنا الباب وفتح لنا شـاب نحيف البنية، وقادنا الى الشـيخ عباس وهو جالس في سرداب. تحدّثنا لوقت طويل. كان كلام الشيخ مفتاحا مهما بل أساسـيا لمعرفة مجريات حياة العراقيين في إيران وتحديدا لوضع الأحزاب الإسـلامية

عمومـا ووضع الصدريين خصوصا، كانت كلّ كلمة وفكرة ورواية أسـمعها تفتح لي أبواب معرفة لا تقدّر بثمن. قبل الاستطراد في وضع الصدريين في إيران سأترك لنفسي حريّة الحديث عنهم في العراق.

شكّل الصدريون في وضع المعارضة العراقية في إيران إضاءة بالغة الأهمية، فهم آخر المجموعات المعارضة الهاربة الى إيران، وآخر قوى الإسـلام السـياسي التي تشكّلت في عهـد صدام. كانوا أبناء مواجهة خاطفة ودمويّـة مع النظام، فقد اختلفوا عن جميع فصائل المعارضة بأنهم تشـكّلوا بطريقة وظروف تختلف عما جرى قبلهم، فأغلبهم شبابٌ، صغار السنّ، لا يحتفظون بأي علاقة أو تواصل مع القوى الشّيعيّة المعارضة، وليـس لديهم مؤسسـات حزبية، أو مكاتـب متخصّصة، أو نظام داخـلي، أو تنظيم يوضـح طريقـة صنع القرار أو العمـل. أكثرهم كان جنوبيا أو مـن أصول جنوبية، خرجـوا للتوّ من مذابح انتفاضـة آذار 1991 التي أحرقت مدنهـم وبيوتهم ليجدوا أنفسهم أمام مرجعهم الصدر ليدفع بهم نحو حراك سياسي عاصف النهايات، لكنّه ماكر النشـأة، فقد مهّد الصدر لحركته بهدوء فلم يكشف عن نواياه بمواجهة النظام بل بالعكس ربما اتبع طريقة المداهنة.

ولـدت حركتهم بعد أن لمسـوا اليأس من سـقوط نظـام صدام. فحمّلـوا المعارضة الشّـيعيّة مسـؤولية الفشل بل الانهيار الشـيعي أمام النظام. لم يعرفوا راحة بال أو عيشـة هانئة، كان الحصـار الاقتصادي وما خلّفه من جـوع وفقر قد غطّى روحهم بلونـه القاتم وطعمه المرّ، كانـوا أبناء فجائع، لا أصحاب جدل سـياسي هادئ، أبناء قمـع مروع لا ذوي مشـاريع تطبخ على نار هادئة. صحا الكثـير منهم على أن كلمة (شروكي) التـي تطلق عليهم تحتقر صدقهم وطيبتهـم ورغبتهم الأصيلة في العيش بسـلام، شـاهدوا صورتهم وهي تقترن، لا، بل تلتصق بصورة الضحية السـاذج، أو الجندي الأبله، أو الوسـخ المنعدم الكرامة، «الشروكي» لم تفقره السـلطات المتعاقبة وتهينه وتجرح كبريائه عن قصد وسابق إصرار حسب، بل حلّت عليه لعنات أهل دينه، ومذهبه، ومدينته. «الشروكي» ذبيح السـلطة والأهل. والصدريون (الشراكوة) كانوا

يعتقدون أن احتيالا واحتقارا تاريخيين مورسا بحقهم من قبل رجال الدين، وخاصة أولئك «المتنعمين» في النجف وكربلاء، ومن قبل أبناء مدن تعتقد أنها متحضّرة، ومتمدّنة، ومتقدّمة. ومثلما فقد «الشراكوة» الثقة بـ (المَدَنْ)، فقد الصدريون الثقة بالدّين المتعالي الذي يمنحه لهم رجاله المتعالون، فأسّسوا لهم مدرسة سياسية خاصّة تختلف عن مدارس الإسلام السياسي الشيعي، مدرسة متفرّدة في صراحتها، وعنفها، وصخبها. مدرسة تستحضر ماضيهم المليء بجراح الأقربين والأبعدين.

كانوا مسحورين بلسان محمد الصدر غير الملحون بلكنة فارسية الذي يستخدم الـ«چـا» في كلامه ولا يرطن بقاموس الفقه المعقّد، المرجع الذي يوظف أبناء الجنوب في مكتبه ويجعل منهم أصدقاء مقربين. كانوا مشدودين لتواضعه حيث يمشي في الشوارع، ويتسوّق من باعة الخضار، ولا يحبس نفسه بين جدران غرفته، ويرفض أن تقبّل يده بل يضرب بعصاه من يفعل ذلك، يصلي بهم جماعة وجمعة ويخطب بهم من دون تعالٍ. منبهرين بشجاعته وهو يتحدّث بجرأة شديدة عن النظام وعن المراجع الآخرين، أخذوا قداسة كلّ المراجع وألقوها على سيدهم، وأخذوا شجاعة كل المعارضة وألبسوها إياه، «الشّجاع المقدّس» فتح لأنصاره الأبواب الموصدة أمام نقد مراجع الدين، فأسقطوا هالة قدسيتهم، أهانوهم في أوقات كثيرة، نشروا عنهم ما كان محرما، اقتحموا أسوار الحوزة وهم يلبسون لباس الجند، وفي أول يوم لهم في المدينة المقدسة والمحطّمة خاضوا معركتين، مع أنقاض حوزة دينية هدّها قمع النظام، ومع النظام نفسه. لم يكن قتل مرجعهم مفاجئا بالنسبة لهم بل كانوا يتوقعونه كل جمعة حيث يخطب بهم بعد صلاة عاصفة في مسجد الكوفة. وحين وقع ما هو متوقع تحرّكوا ضدّ النظام بعفوية وغضب ودفعوا ثمنا باهظا فقد أعدم بعضهم، وهرب آخرون بجلودهم لبلاد الغربة.

كان كلّ شيء فيهم غريبا، لا يشبهون ما كان سائدا في العلاقة بين الحوزة ورجالها وبين المتديّنين، ولا ما هو سائد في مواجهة النظام. وحين وصلوا لإيران كانوا غرباء عن جسد المعارضة ولكنهم قريبون من لغتها وخطابها، ففي الوقت الذي تدين

أحزاب المعارضة، وخاصّة المجلس الأعلى للثورة الإسـلامية، لإيران بالفضل في إيوائها وحمايتها، يحمّلها الصدريون جزءا من مسـؤوليّة ما حـلّ بهم من قتل مرجعهم الى إعدام أتباعه الى تشتّت حركته، فهي التي أعطت، برأيهم، صداما الضوء الأخضر بقتل الصدر، حين أغلقت مكتبه في قم، فتلقّى صدام بحسّـه السياسي رسالة إغلاق المكتب بـأن إيران لا شـأن لهـا بما يجري في النجـف ولا يهمّها المصير الـذي ينتظر الصدر وأتباعه. إيران بالنسبة لهم صديق غادر، وهي بالنسبة للفصيل المعارض الأكبر كانت صديقا مضحيّا وكريما.

الطريقة المأسـاوية التي انتهت بها حياة أكبر مرجعـين عراقيين، محمد باقر الصدر ومحمـد صـادق الصـدر، كان من المفـترض أن تدفع نحو تقارب ولو سـطحي بين التيار الصدري وحزب الدعوة كونهما ينتميان الى ذات العقيدة السياسية للمجتهدين القتيلين القريبين فكرا ودما. وكلاهما يحمل ايران بشـكل خفي جزءا من مسـؤولية مقتلهما، حزب الدعوة يلمح بطريقة وأخرى الى مسؤولية ايران عن مقتل السيد باقر الصدر بسـبب الرسالة الإذاعية الشهيرة التي وجّهتها الحكومة الايرانية لباقر الصدر وتطلب منه البقاء في العراق وقيادة الثورة على صدام وإسـقاط حكمه، الرسالة التي سرعت بشـكل كبير قتل باقر الصدر كما يقول الدعاة، ومن جانبهم يرى أعضاء من التيـار الصدري أن إغلاق مكتب محمد صـادق الصدر في إيران كان له نفس مفعول الرسالة الإذاعية الإيرانية لباقر الصدر فمهّد لقتل مرجعهم.

الكثـير مـن الصدريين لا تزيـد معرفتهم بوضع المعارضة العراقيـة في إيران حدودا تتجاوز الأساسـيات أو العموميات من قبيل الاسم وبعض المعلومات التاريخية فقط، أمـا التغيـيرات والانقلابات الفكريـة والتنظيمية التي وقعت داخل تلـك الأحزاب، أو نـوع العلاقـات التي تربط كلّ طرف بالآخر أو بينها جميعـا وبين الحكومة الإيرانية فقـد عرفوها حين أصبحوا ضحايا لائذين بإيران. وقد أضافت لهم الصدمة من واقع المعارضة العراقية في إيران مزيدا من الحذر والابتعاد والشكوك، عرفوا حياة المعارضة على الأرض لا على الورق، لمسوا جسد خلافاتها وفهموا ما الذي يجري حولهم. لا يثق

الصدريون مطلقا بالمجلس الأعلى للثورة الإسلامية، ويتشكّكون بنوايا حزب الدعوة.
كان بين أصدقائي الصدريين فضلا عن الشيخ عباس، اسماعيل مصبّح « شقيق محمد مصبّح الوائلي محافظ البصرة الأسبق الذي اغتيل في أيلول 2012» والشيخ كريم المنفي. وحين وصلت لهم كان أبو سيف قد خرج قبل أشهر قليلة من السجن، فقد تولّى تهريب السيد جعفر نجل السيد محمد باقر الصدر الى إيران ليفتح مكتبا للسيد محمد الصدر، استأجروا بيتا وسط قم ودعوا العديد من الشخصيات للاحتفال بافتتاحه لكن الحكومة الإيرانية أغلقته بعد أيام قليلة، وألقت بأبي سيف في السجن، ليقضي فيه أكثر من عام. وقد عذُب داخل دهاليز السجون الإيرانية، كما تحدّث هو في تقديمه لكتاب (السفير الخامس)، ثم طلبت منه الاطلاعات الإيرانية الخروج من إيران، وحين التقيت بهم كان أبو سيف في طور الاستعداد لتنفيذ طلبهم، لكن شيئا من ذلك لم يحصل.
يستأجر أبو سيف وشيخ عباس بيتا مشتركا، وبحكم وجود أبي سيف وحده في إيران كان يشغل سرداب البيت ويسكن الشيخ أعلاه، شرحوا لي في أول لحظات لقائي بهم وضعهم الأمني المتدهور خصوصا بعد نشر الشيخ عباس كتابه (السفير الخامس) الذي تهجّم فيه على مراجع دين إيرانيين لهم دورهم المؤثر في دعم السلطة والولي الفقيه علي خامنئي، وتهجّم بشدّة على المرجع السيستاني ورجال دين كبار في العراق. كان وضعهم غير آمن و خطير، وطالما ضحكت على هذه المفارقة المؤلمة، فأنا هربت من وضع غير آمن مع أجهزة أمن صدام، لأجد نفسي في إيران بوضع لا يقل سوءا وخطورة.
كنّا مجموعة من الأصدقاء جالسين في سرداب أبي سيف عصر أحد الأيام، عندما سمعنا طرقا شديدا على الباب تبعه وقع أقدام سريعة على سلّم السرداب، دخل شابان وأغلقا الباب خلفهم، تحدّثوا بعصبيّة وبلغة فارسية مع أبي سيف الذي بدت عليه علائم الخوف والقلق، مدّ يده لجيب قميصه المعلّق بالجدران واستخرج لهم الكارت الأخضر وهو الوثيقة الرسمية التي تمنح للاجئين العراقيين في إيران، وتكرّر الأمر

مــع بقية الحاضرين، وأثناء تفتيشــهم همس في أذني أحــد الحاضرين قائلا بين لغة الإشارة ولغة اللسان:

ـــ هذولة اطلاعات يفتّشون على الكارت الأخضر.

ــــ لا بشرفك ؟ لك هاي شــلون مصيبــة؟ قلت ذلك لصديقي وانــا أكاد أموت خوفا، لأنــي الوحيد من دونهم لا أحمــل الكارت الأخضر وهو الوثيقة التي تمنحها الحكومة الإيرانية للاجئين العراقيين لديها.

التفت الى كرسي أســفل شــباك مرتفع أعــلى السرداب، يفضي الى الشــارع، فكرت أن اقترب بهدوء من الكرسي لأقفز نحو الشــباك، مرّت بي هذه الخاطرة بعد أن شاهدت خلو أحزمة رجال الأمن من السلاح، وحين تحرّكت صوب الكرسي، انطلقت ضحكات هســتيرية من الجميع، عرفت أن رجال الأمن هؤلاء كانوا مزيّفين وأنهم أصدقاء لأبي سيف، اتفقوا على صنع هذا المقلب بي قبل وصولي لهم، سحبت نفسا ربّما كان الأطول في حياتي، وجلست على الأرض بعد أن فقدت نصف قوّتي، لعنتهم على فعلتهم، وقلت لأبي سيف:

ـ بيني وبين الموت شعرة، لعنة الله عليكم.

كانت المعارك الحزبية ذات الطابع الشخصي الضيّق هي التي تسود مشهد المعارضة، الثقــة المفقودة فتحت الباب أمام ألوان من اللّعــن والطّعن، كلّ طائفة تلعن الأخرى، ساحة السياسة غدت ساحة تصفية حسابات تتبادل فيها كرة الاتهامات بالاثراء من المال السياسي والطعن بالولاء الوطني وربما تصل الى حدود التشهير الأخلاقي.

في تلــك المعــارك كان نشر البيانات في الأســواق أو عبر وســائل الإعــلام الحزبية، هو الطريقة الأكثر تداولا. ومن بين المعارك التي جرت كنت شــاهدا على معركتين، الأولى هي معركة حزب الدعوة مع الشيخ علي الكوراني، وهي التي شغلت مساحة كبيرة من اهتمام العراقيين في قم، والثانية كانت بيان الشــيخ عباس الزيدي وأبي سيف الوائلي ضدّ محمد باقر الحكيم، كلا الواقعتين حدثت في نفس الشهر، أيلول 2002.

في قصة الشيخ الكوراني مع حزب الدعوة دارت المعركة حول تشيّع السيد محمد باقر

الصدر، فقد كتب الشـيخ مقدمة لكتاب بعنوان (الحـقّ المبين في معرفة المعصومين) أصدره أحد مراجع الدين في قم، قدح في مقدمته بنقاء تشـيّع السيد، مؤكدا أنه أدخل الفهم السـنّي للائمة في أفكاره، وبأن معرفته بالمعصومين لم تكن محصورة بروايات الائمة عن أنفسهم بل شابها تصوّر خصومهم أيضا. ووصف الشيخ الكوراني السيد في تلـك المعرفة بانه «التقاطـي» أو «تركيبي» متّهما إياه بالتضحية بروح التّشـيّع. فانـبرى حزب الدعوة في الرد على «فرية» الشـيخ حسـب وصفهـم، وحاولوا جهدهم إثبات تشـيّعه وتبرئته مـن تلك التهمة المشـينة. فأصدر أنصار الدعـوة من مثقفين وكتّاب بيانا وقّع باسم الأمانة العامة لرابطة الكتاب والمثقفين العراقيين قالوا فيه:

«سـيبقى النقد العلمـي والموضوعي واضح المعالـم، مميّزا بوضوح عـن النقد الذي تختفي وراءه دوافع أخرى، من قبيل المواقف الشخصية، وتصفية الحسابات القديمة، والانطلاق من عقد دفينة، الأمر الذي يجعل النقد طعنا واستهدافا شخصيّا ينقلب على صاحبه سيئة تدفع به الى الوراء».

لم يخلُ الجدل من الـــ«بوكسـات» فقد هجم شـاب متحمس للسيد الصدر أو ربّما مدفوع بغضب حزب الدعوة، ليوجه لكمة لعين الشـيخ الكوراني بعد أن اقتحم عليه عملـه في مركز دراسـات دينية كان يديره، خرج الشـيخ من معركـة الجدل الفكري أزرق العـين.. مرتعبا، وخـرج حزب الدعوة فرحا بالنتائج، فقد ردّ على الشـيخ بكلّ الأسلحة.

كان خوف حزب الدعوة من أن تطول السـيد تهمة الشكّ بنقاء تشيّعه هو بالحقيقة خوف على نقاء تشيّع الحزب نفسه، إذ يعتقد الدعاة أن الشكّ بتشيّعهم سبّة لا خلاص من سوئها، ويمكن أن تفقدهم جمهورهم وأنصارهم الذين كادوا يتلاشون حينها.

ورغـم قصر عمر منفاهـم الإيرانـي إلا أن الصدريين بما يحملون مـن روح متمرّدة ومشاكسة اسـتطاعوا ان يزاحموا الأحزاب الأخرى على مساحة الاهتمام الذي تحظى به ومسـاحة الحراك الذي تشـغله، برغم افتقادهم لوسـيلة إعـلام خاصة أو تنظيم سياسي محدّد، أو مسجد أو حتى بناية يمكن أن تجمعهم فضلا عن فقرهم المالي.

مـن كلّ الجدل الـذي خاضه الصدريون في إيـران، كان بيان الشـيخ عباس الزيدي وأبي سـيف الوائلي ضدّ السـيد محمد باقر الحكيم، هو الأكثر إثارة للدهشـة. كانت المناسـبة الفعلية التي صدر بسـببها البيان هي ظهور محمد باقر الحكيم في برنامج بثه التلفزيون الإيراني بعنوان (المرجعية الصالحة) قال فيه إن محمد صادق الصدر ليـس مرجعـا، ولا مجتهدا، وله ذنـوب، وعيوب، وأخطاء. فجاء بيـان وكيلي الصدر، الذي وزّع في مدينة قم في أيلول 2002، شديدا في لهجته فقد تضمّن سبّا مقذعا بحقّ الحكيم. حاول البيان الابتعاد ولو قليلا عن قضية التّهجّم على السـيد الصدر، واعتبر قضيته الأساسـية هي نقـد حراك المجلس الأعلى للثورة الإسـلامية الذي تقرّب يومها مـن الولايات المتحدة ودخل في حوار مع إدارتها قام به السـيد عبد العزيز الحكيم في آب 2002 لمعرفة نوايا الإدارة الاميركية تجاه العراق. وصف البيان مرتكزات الحكيم بالقذرة، وأنه عميل لأميركا ويتلقّى أموالا منها عبر الكويت، وأطلقوا على شقيقه عبد العزيز الحكيم وصف الجاسـوس، وصعدوا من لهجة بيانهـم قائلين «الحكيم عنّين يبارز بقضيب أبيه».

كانت العبارة صادمة بالفعل وربما لم يصل كلّ الجدل والخلاف بين الأحزاب الشّيعيّة طيلـة وجودها في إيران الى حدّ اسـتخدام عبارة مثل هـذه ونشرها في بيان يوزّع بين الناس.

في أواسـط تشرين الثاني 2002، كنت في حسينية الإمام الرضا «النجفية» حين اعتلى محمد باقر الحكيم منبرها، ذهبت الى المكان مفترضا أنه سـيتطرق لبيان الصدريين، جلست لاستمع لكلماته، فتحت ورقة لأكتب ما سيقول في كلمته، لم يسبق لي أن قمت بذلـك، لكنـي أردت أن أعرف موقـف الحكيم وطريقة ردّه على البيـان فيما لو رغب فعـلا في الرّدّ. هو من جانبه لم يسـبق له أن قام بهذا الفعـل، حيث يكتفي في حالات مشابهة بإصدار بيان أو تصريح لوسائل إعلامه، لكن لغة البيان نجحت في استفزازه وإخراجه عن طوره، كان منفعلا حين قال:

«عندمـا لا يتصدّى العلماء الحقيقيّون لهذا الأمـر (أي إصدار بيانات تؤيد تحركاته

السياسـية) فإنهم سـوف يتركون الأمر للأدعياء في نشر بيانات سبّ، وشتم، وتفريق كلمـة، لتأخذ الأمور هذا المجرى أو ذاك، أرجو من الحـوزة العلمية العراقية صاحبة التاريخ الجهادي الطويل، أن لا تترك أمر التصدي لبيانات تصدر على يد من لا خلاق لهم ولا هم من الحوزة العلمية، وليس لهم وجود حقيقي على الساحة العراقية، الذين لا ينشرون غير الأكاذيب، والسباب، والشتم، ويبثون التفرقة» .

وحين انتهى من كلمته قلت مع نفسي ربّما لن تترك المخابرات الإيرانية للغة التّشـهير والسـبّ هذه أن تمرّ مرور الكرام، فالحكيم يحظى بدعم كبير وعلاقات واسـعة مع قـادة إيـران بدءا من الـولي الفقيه علي خامنئي نـزولا للقادة الآخرين، ووسـط هذه التّصوّرات كنت اعتقد أن اعتقال أصدقائي سـيكون مسـألة وقت فقط، مضت الأيام وسـط ترقبنا، لكن الأمر مرّ بسـلام، وعزونا عدم إقدام أجهزة الأمن الإيرانية على أي خطوة تجاههم الى أنها مشـغولة بما سـيجري في العراق وليس من مصلحة إيران أن تفتح جبهة مع أي طرف وربّما سينعكس الأمر بطريقة سلبيّة على الحكومة الإيرانية لو أقدمت على خطوة الاعتقال.

صورتان

أنا الفيترجـي، وأنت بائع اللبن وغيرنا من (العوام) لماذا لا يســمحون لنا بأن نتدخل من خلال الانتخابات لاختيار قيــادات حركتنا التحررية في وقت يتدخل أي إيراني من (العــوام). العامل، والفــلاح، والكتّاس فــي اختيار أعلى المناصــب في الدولة من خلال الانتخابــات؟ وقد انزعج بائــع اللبن المذكور من تصريحاتي هــذه، وقال: ما لك وهذه المواضيع القديمة؟

عدنان الحسناوي13

جريدة «الجمعة» العدد 16 آب 2000

مقالة بعنوان» حوار حول الانتخابات»

كلّمــا تأملــت في كلماتي وأفكاري وأنا اتحدّث عن حياتــي في العراق إبان حكم صدام

١٣ . عدنان الحسناوي، مهندس عراقي لاجئ يعيش في محافظة يزد الإيرانية ويعمل « فيترجـي » كما شرح ذلك في مقالته، وجريدة «الجمعة» أسبوعية أصدرها عدد من الشباب العراقيين في قم عام ٢٠٠٠ وتوقّفت بعد بضعة أعداد.

حسين أجدها أكثر صدقا وحرارة من كلماتي في إيران. في الأولى تحدّثت عن نفسي وأنا أحيا في مجتمع مقموع، ومستلب، العدو واحد، والمأساة واحدة، والحلم واحد. وفي إيران كلّما تأملت في ما أريد كتابته أجد نفسي حائرا، ومشتّتا، وباردا. في الأولى تحدّثت وفي الثانية تردّدت، في الأولى كنت واثقا، وفي الثانية كنت خائفا. العراق مأساة، ونيران، وكشف، ووضوح، وهذه تكفي لأن اتحدّث وأبكي، وأسخر، واتألم، أما في إيران فقد عشت الملهاة، والحيرة، والشكّ، والكذب، والزيف.

كان من حسن حظّي أن أصل الى إيران قبل سقوط نظام صدام حسين بسنتين، يومها وصلت أوضاع العراقيين، أفرادا وأحزابا الى أقصى حدود اليأس من العودة للبلد. عاشوا المنفى كحقيقة أبديّة، شاهدت خلال السنتين، لحظتين أو صورتين مختلفتين، اللحظة الأولى «المأساة»، كانت في رؤية ما تركه اليأس على حياة العراقيين، أما الثانية «الملهاة»، فكانت لحظة اقتراب الأمل ونهاية اليأس. لقد كنت شاهدا على آخر فصول المأساة وأول فصول الأمل.

المأساة كانت تتجسّد حقيقة أمامي وأنا أشاهد الخلافات العميقة، والمخجلة، بين الدعوچية، والحكيمية، والصدرية، والتوابين (وهم الأسرى الذين قبلوا الخروج من الأسر مقابل الدخول في تشكيلات المجلس الأعلى للثورة الاسلامية)، والمنتفضين (الهاربين بعد انتفاضة 1991)، والشيرازية (أتباع المرجع محمد الشيرازي وجناحهم السياسي منظمة العمل الإسلامي)، وأشاهد أيضا الفراغ الروحي والعقلي والوهن الذي أصاب الجميع، المشهد يثير الشفقة مثلما يثير الأسئلة، وكلتا الإثارتين لا حدّ لها.

أما الملهاة، فبعثت من التصديق والوثوق بان نهاية صدام أصبحت حقيقة ملء اليدين، وفيها تبدّلت الأدوار، الموتى أصبحوا أحياء، وارتدى الجبناء ثياب الفرسان، وأبرز اللصوص شهادات نزاهتهم، وبكى أصحاب القلوب الصخرية، وتحدّث أصحاب اللكنة بلسان فصيح، وجسّد البخلاء دور الكرم والجود. انقلب كلّ شيء في قوافل العائدين الى العراق.

كان من أوائل الأشخاص الذين عرفتهم في إيران، رجل تركماني اقترب من عمر

الســتين، يعيش مع مجموعة من الشباب من أهل بلدته في سرداب بمنطقة «نيروكاه» الشــعبيّة وهي الأكثر اكتظاظا بالســكان والأكبر مســاحة في مدينة قم، وقع في الأسر مطلع الثمانينيات، وكان يومها شابًا ممتلئا بالحيوية والنشاط، واضطر بعد سنة أو أكثر على أسره الى الانتســاب لفيلق بدر. شــاهدت صوره وهو في معسكرات التدريب وفي جبهــات القتال ضــدّ الجيش العراقي، ولكنّي عرفته وهــو متقاعد، لا يعرف عن أهله، زوجته وأولاده ســوى أخبار يصل عمرها الى ســنوات، لا يعرف أي جوع مرّوا به، وأي رعب وحزن عاشوه طيلة غيابه وبسببه، كيف تألموا؟ وكيف عاشوا صعوبات الحيــاة بدونه؟ انقطعت عنــه أخبار عائلته فعاش على الذكــرى والصور، يومياته لا تتعدّى الطبخ، والتبضّع في سوق العراقيين، وزيارة مراقد دينية، أو حضور مناسبات اجتماعية، والســهر مع الأصدقاء، حياته تنتظر أشــياء أخرى، ربما الموت أو الهجرة الى بلد آخر، رتابة الحياة دفعته الى الاستســلام والانتظار، صورة هذا الرجل تشبه ما جرى مع الأحزاب، لا فرق بين الاثنين، فكلاهما تقاعد عن الحلم، والأمل الأكبر بسقوط صدام حســين. يوميات صديقي التركماني تشــبه يوميات الأحزاب، يقضي التركماني يومه في شجار مع شركائه في السكن، وتقضي الأحزاب أيامها في إيران بالشجار حول أفضليتها، ومصداقيتها، ووطنيتها، وإخلاصها.

وحين بدا عزم أميركا على إســقاط نظام صدام حســين مؤكّدا هذه المرّة، انتهت رتابة الأيــام وتغيّرت البرامج، فدبّ النشــاط في جســد المعارضة العراقيــة الميت، كانوا مثل أصحــاب الكهف، منقطعين عن الحياة والنشــاط، ولكنهم خرجــوا فجأة الى الضوء، فكانت إيران هي أولى محطات النشــاط الســياسي للمعارضة. بدأنا نقرأ ملصقات في أماكــن تواجد العراقيين، يعلــن فيها عن محاضرة أو ندوة تقيمها شــخصية عراقية معارضة.

ضمّ مشهد الساسة المتبضّعين في سوق إيران الكثير من الأسماء، مدنيين وعسكريين، علمانيين وإسلاميين، أكرادا وعربا، جماعات بريطانيا وسوريا وأميركا، وجماعة الولي الفقيــه. وكلّما اقترب موعد الإطاحة بنظام صدام كلّما ازدادت المحاضرات واللقاءات

عددا وحرارة، أحدهم يبحث عن 200 شـاب ليزجّهم بـ«جيش» جرى تأسيسـه على عجل، وبث آخرون الحياة في جسـد سـياسي جديد تدعمه الحكومـة الإيرانية. العمل السريع يوحي أن فراغا سياسيا يعقب الإطاحة بصدام لن يسمح به، وسوف «تتضافر الجهود» لملء مفصل السلطة بدم جديد.

بـين كلّ هذا الحراك كان ما لاقـاه عبد المجيد الخوئي هو الأكثر دلالة والأعمق معنى، وفيه اجتمعت المأساة والملهاة معا. جاء الى قم وهو يحمل معه اسم والده «ابو القاسم الخوئي»، الزعيم الروحي الكبير والقامة التي لا يدانيها أحد. أعلن أصحابه عن موعد الجلسـة أو اللقاء الذي يرغب ابن الخوئي بعقده مع العراقيين، المكان هو حسـينية الإمام الرضا «النجفية» التي تتوسّـط سـوق العراقيين في «الكزر خان»، والزمان هو الثامن من كانون الثاني 2003، والمناسبة هي الحديث عن ما بعد السقوط.

دخـل ابن الخوئي بثيابه الأنيقـة والبرّاقة، كان وجهه يوحـي بنعيم الملوك، كلّ شيء فيه مرسـوم بألوان الخير والرفاه. نقاء بشرته، عطره، بياض أسـنانه، قماش جبّته وعباءتـه الأنيقة، عيونه التي تشـتعل جمالا وترفـا، كلّها جاءت مـن عالم آخر أكثر حبورا. أما الجالسون في الحسـينية فكانوا من نسيج آخر، وجوههم الكالحة تكشف عـن تاريخ طويل في مقارعة الجوع والفقـر، خلّف حفرا في جلودهم وخطوطا داكنة عـلى خارطة الوجوه. تبحث أرواحهم عن منفذ للهـرب من غرفهم المؤجرة الصغيرة، وغربتهـم الطويلة والمريرة، ومآلهم الشـحيح. لم يسـبق لعبد المجيـد أن التقى بهذا الكـمّ من الفقراء المعدمين، مـن ضحايا تطول قائمة معذّبيهم، هـو لم يزر إيران إلا مـرّة أو مرّتين قبل يومـه هذا وكانتا خاطفتين، دخل وهو يراهن على وقع اسـم أبيه عـلى النفـوس، لا يعرف أي شرخ أصاب العلاقة بين الطرفين، ولا يمكن له حتى وهو في أعلى درجات التشـاؤم أو بعد النظر أن يتصوّر أن المحاضرة سـتصطدم بضراوة الواقع لتكشف صورة أخرى من صور الرفض والشكّ بكلّ ما يقول.

بدأ الخوئي الابن محاضرته بفكرة خاطئة، فبدا المشـهد أشـبه بخطأ ارتكبه مروّض أسود، تحدّث عن ضرورة التعاون مع أميركا وبريطانيا في إنقاذ العراق وإعادة بنائه

بعد سقوط صدام، وعرض فكرته بتأسيس ما أسماه بـ (المجلس الشّيعي العراقي) وهي مؤسسة قال إنها تهتم بشؤون شيعة العراق، وتدافع عنهم وتوحّد مواقفهم وكلمتهم، ثم ضرب على وتر الجوع الحساس ليفرش وثائق خدمته لعراقيي المهجر وخاصة في إيران. تحدّث عن دعمه لسكان معسكرات اللجوء، أو ما يسمّى بالمخيمات، وعن أدوية أهداها لهم، وعن «صوبات» تقيهم شرّ برد إيران الخبيث، وعن طعام وأموال، هبات الخوئي كانت هباءً منثوراً في عقول الجالسين مثلما هي على الأرض فعلا، وكلّما أوغل الخوئي في تيهه كلّما رفعت الأسود من حدّة صوتها، تحدّث عن القادم الذي ينتظر العراقيين بعد السقوط.

وقبل أن يسترسل في وعوده، نهض أحد الشباب واقترب من المنصّة التي يجلس عليها الخوئي ومدير الجلسة، مدّ يده نحو عباءة الخوئي، لمسها وكأنّه يمسّد جسد أميرة نائمة، كانت عيونه تشتعل جوعا ويأسا، ارتبك المحاضر، حدقات عيونه نمّت عن خوف وشكّ بالنوايا، لفّ الشاب العباءة حول يده وعيونه المصوّبة نحو ثياب الخوئي تتطاير شررا، قال له اجب عن سؤالي، كان يريد محاكمته، وقبل أن يسأل، صرخ أحدهم: كذاب، رفع الآخر صوته صارخا: ملعون. صرخت مجموعة «عاش، عاش، عاش الصدر» قاصدين محمد صادق الصدر، دخلت سايكولوجيا الجماهير الى المسجد، نهض الحاضرون من مكانهم، بدا الصراخ غير مفهوم لكنّه واضح المقاصد، يريدون الثأر منه ومعاقبته على ما يمرّون به من ألم، وجوع، وتهديد. أحاطه أصحابه وقادوه الى غرفة تقع فوق المصلى وأمام عيون الحاضرين، ضرب الجمهور حوله حصارا مروّعا، وبعد دقائق كانت قوى الأمن تحيط بالمكان، قادها حسّها العالي بخطورة الأزمة نحو الطريق الأكثر أمنا، الهدوء والتهدئة، لم ترفع عصا أو صوت، هدأت الأسود وخرجت من القفص الى الشارع ووقفت تنتظر الضحيّة، فرّقتها مرّة أخرى حنكة عناصر الأمن وخبرتهم.

في صباح اليوم الثاني كانت الملصقات تملأ سوق العراقيين «الگزر خان» معلنة عن موعد لقاء آخر للخوئي مع العراقيين، وهذه المرّة سيكون في مبنى رابطة الكتّاب

والمثقفين مســاء اليوم نفســه، وهو سرداب واســع، يبدو أن الخوئــي يريد من لقائه الثاني الحديث لأناس يعرفون أهميته وأهمية ما يقول، أناس بعيدين عن لغة الصراخ، والتهديد، والإهانة، ولا تخرج أفكارهم وكلماتهم من بطونهم بل من عقولهم، يريد أن يمحو ذكرى الأمس، ويكتب صفحة جديدة، يسجل فيها أولى خطى العودة الى العراق من خلال مأساة العراقيين في إيران، كان عجولا في مسعاه.

وصلنــا الى مبنــى رابطة المثقفــين، رأينا قوى الأمــن تحيط بالمكان، ملأت الشــارع بســياراتها، وعــلى منصّــة الرابطة، بــدأ الخوئي لقاءه الســياسي، لم تحمــل أجندته هــذه المرّة قائمة هداياه وهباته للعراقيين في إيــران، فقد جرّبها أمس وجاءت بنتائج وخيمة عليه وعلى مشروعه الســياسي للعراق الجديد، كان هادئا ومبتســما، قدمه أحد الأشــخاص وأكال عليه المدح والثناء، وبدأ على بركة الله. لم تمض ســوى دقائق حتى ارتفع كرسي فوق رؤوس الحاضرين وطار الى حيث يجلس الخوئي، وقبل أن يسقط لحــق بــه آخر الى نفس المكان، عــمّ الهرج ونزلت قوى الأمــن الى السرداب، وأخرجت الخوئــي من بين الكراسي، فعل المثقفون في رابطتهم ما فعل المصلّون في مســجدهم، بفارق وحيد هو أن أصحاب الكراسي كانوا أكثر اســتعجالا وعنفا في مطاردة الغنيمة من أصحاب الحسينية.

ما جرى مع الخوئي بعد عودته للعراق كان أكثر إيلاما وفظاعة مما تعرّض له في قم، ففي النجف معقل التقوى والدين مزّق جســده، وأزهقت روحه، غدر به دون رحمة وبــلا ضمير ولأســباب أكثر غموضا من أن تعقل. تناثرت أشــلاؤه عــلى تراب «وادي السلام» حيث رقد فيها بسلام لتنتهي حربه مع المجد والتاريخ.

كشــفت مشــاهد ما جرى مع قــادة المعارضة ورجالها عن حجم الهــوّة التي تفصل بينهــم وبــين جمهورهم مــن عراقيي المهجر، وهي للأســف، الهوّة التــي كبرت أكثر وهم على ســدّة الحكم. كانوا في غربتهم بعيدين تماما عن معاناة الناس، بعيدين عن الأرض التي يعيش عليها جمهورهم، وهو في جزء كبير منه خرج من عباءتهم ثم من تنظيماتهم، لقد حوّل اليأس من ســقوط صدام القوى المعارضة له الى مأســاة، فقد

خبـت نيران سـنواتها الأولى عقب الهروب من العراق وغدت رمـادا، وتجمّد اندفاعها ليسـتقر جمودا وخمولا، ونزل خطابها ليصبح لافتة ممجوجة، وانتهت علاقاتها مع القـوى الخارجية الى تبعيّة، وانتكسـت سـمعتها داخل البلد الى حدّ السـخرية. كان كلّ شيء فيها يشي بأنها أصبحت مأسـاة، وحين دخلت الدبابات الاميركية الى العراق وأزاحـت نظام حكم صدام حسـين كانت جثث قوى المعارضـة تبحث عن دماء تعيد لها الحياة.

إعلان شيعة العراق

إن التيــارات التي كانت تتطوّر بخصوص وعي شــيعي منفصل قد وجــدت طريقها الى الإفصاح التام عما تريد التعبيــر عنه وذلك بصــدور بيان في تمــوز 2002 وهو المعنــون بـ «بيان شــيعة العراق» ... وقد شــدد البيان على أن دولــة العراق هي في حقيقتها دولة ذات طبيعة طائفية.

علي عبد الامير علاوي
كتابه (احتلال العراق: ربح الحرب وخسارة السلام)

في أيلول 2002 دخل ســوق السياســة في قــم مضارب آخر، جــاء باحثا عن تصفيق وتأييــد لبضاعته المزجاة من روايات الألم الشّــيعي والســجون والمقابر، دخل موفق الربيعــي قم حاملا معه ورقة دار بها في مســاجد ومجالس العراقيين فيها. أســماها (إعلان شــيعة العراق). مــا يميّز هذه الورقة ليس صراحتها فقــط ولغتها الواضحة

عن السياســة الطائفية التي تقوم عليها الدولة العراقية منذ تأسيســها، والتي أقصي بسببها الشّيعة عن السلطة، وتعرّضوا بسببها الى ألوان من التنكيل والتعذيب والقتل، وليــس فقــط التغييب عن مراكــز القرار الســياسي، بل حدّد الإعلان خطــوات عملية لحلّ المشــكلة الطائفية. الإعلان الشّــيعي بدءاً من العنوان، يوحي بأن شــيعة العراق سيضعون عن أيديهم قيود التاريخ والسياسة التي ألقتهم في خانة التغييب وسجون الشــكّ والاتهام، سيتحدّثون صراحة ويعلنون موقفهم من السلطة والقرار ويأخذون حصّتهــم منهمــا، ضرب الإعلان على الوتر الحســاس لأناس يعتقــدون أن حكومتهم قتلتهم وعذّبتهم وسرقت أموالهم وشرّدتهم بســبب هويتهم المذهبية. عرض الربيعي في حسينية الشهيد الصدر العائدة لحزب الدعوة فكرته بصراحة ملفتة دون أن ينسى اســتخدام لغة الاســتنكار لما جرى في العراق الحديث، الى متى يبقى حال الشيعة كما هو اليوم ؟ هل سنفوّت الفرصة مرّة أخرى ؟ هل سنظلّ نبكي ونلطم؟

موفّــق كان «موفّقــا» في إقناعه أو هكذا افترضت، فهو يتحــدّث لضحايا تتجلّى فيهم كلّ صــور التنكيل والبطش التي وقعت على الشــيعة في أســوأ عهــود الدولة العراقية الحديثة، عهد صدام حســين وريث الســلطة الطائفية، وخلاصة بطشــها وســوئها. الجالسون كانوا بين مسجون، ومعذّب، ومطارد، وفقيد الأب، أو الابن، أو الزوجة، أو الأم، أو الأطفال، أو كلّ هؤلاء. جمهور نكّل به بسبب طائفته سيكون الأرض العطشى لمن يحكي صراحة عن عذابه ومصيره المؤلم.

حين انتهى موفّق من طرح إعلانه طلب منا أن نوقع على ورقة تأييده، قائلا: إن قادة سياســيين ورجال دين ومثقفين من الشــيعة وقعوا عليها ذاكرا أســماء مهمّة، فكان هذا وحده كافيا لإقناع الحاضرين بصدق إدعائه بالتأييد الواسع لإعلانه. وبالطبع لم ينس أن يقدم لنا وجبة طعام دســمة من أفخاذ الدجاج والرز الرشــتي البديع، أشبع جوعنا ودموعنا فالتهمنا الطعام وهضمنا فكرة موفق وشددنا على يده، مشيت صوب المنضدة التي وضعــت عليها ورقة التواقيع، مرّ بجانبي عضو في حزب الدعوة همس باذني همسا شيطانيا، قائلا:

ـــ لا توقّع.

التفتّ له مســتنكرا طلبه في داخلي، واعتبرته غريبا بـل ربّما غير أخلاقي، فالرجل لم يقل ســوى الحقّ ولم ينطق غير الحقيقة فضلا عن تواقيع الرجال المهمّين التي تزيّن الإعـلان، فمن أكون أنا حتى أرفض التوقيع على إعلان يمكن أن يصحّح مصير بلدي، همس مرّة أخرى:

ـــ الرجل غير صادق النوايا وإن كانت الفكرة صادقة، وأشـك بالكثير من الأســماء التي قال إنها وقّعت على الإعلان.

لـم أعبأ بهذيـان الرجل فأنا أعرف أن «الدعاة» لا يحبّون موفّقا، ويشــكّكون بأقواله وأفعاله كثيرا وهو كان قد ترك حزب الدعوة منذ سنين طويلة، مسكت القلم وبالغت في دعمي للإعلان فلم أتردّد بكتابة اســمي الثلاثي ولقبي. خرجت من الحســينية وفي داخــلي تتردّد كلمات « الداعيــة»، أصابني الملعون في مقتــل، مثلما أصابتني صراحة موفق بالدهشــة والاســتغراب، ســألت نفسي، لماذا لم أقرأ نصّ الإعلان؟ هل يمكن أن يكـون الرجــل كاذبا حين ذكر أســماء الموقّعين عــلى البيان؟ تمنيّـت أن أعود للورقة وأمحو منها اسمي. لم استنكر ما طرحه موفّق من أفكار، أو بالأحرى لم أشغل نفسي بنقــد الفكرة، مفترضا صدق الرجل وصدق فكرة الإعلان أيضا، كنت معجبا بصراحة الكلمــات، فهــي قالت في العلــن ما نقوله في الــسرّ، وأخرجت ما في القلــب على القلم، الشّيعة اضطهدوا، ونكّل بهم، ولم ينصفهم الحكام، وهل يمكن أن يقال غير ذلك؟

في الصباح كنت وجها لوجه مع موفّق في مكتبة وســط ســوق العراقيين، دخل طالبا كتــاب «مقتل أبي مخنف» وهو الكتاب الذي تناول قصة مقتل الإمام الحســين وأهل بيته وأصحابه في كربلاء، سألته:

ـــ أستاذ موفق صار الكم بالمعارضة الإسلامية أربعين سنة، أشو هسّة تقرون مقتل الحسين؟

ابتسم ورد عليّ:

ـــ طلبه مني صديق في لندن حين عرف أني ذاهب الى إيران.

تشـــابهت في داخلي صورة الإعلان وتوقيته مع بحث موفّق عن مقتل أبي مخنف، فقد عرف قادتنا بقصة «مقتلنا» فقط حين اقتربت حرب إسقاط صدام.

لم تمض سوى أيام قليلة حتى اعتلى الشيخ محمد باقر الناصري منبر مسجد الشهيد الصدر وهو نفســه الذي طرح فيه موفق فكرة إعلانه وذكر الناصري كأحد الموقعين على البيان، كان الناصري صريحا حين قال إنه لم يوقّع على أي ورقة برغم مســاندته للمشروع كفكرة وإرساله رسالة للقائمين عليه يشرح فيها وجهة نظره.

بعد أيام قليلة نشرت وســائل إعلام قريبة من المجلس الأعلى للثورة الإسلامية تكذيبا لـــا قيل عن توقيع الســيد محمد باقر الحكيم على إعــلان موفّق، وبدأت الأخبار تتوالى من خارج إيران وداخلها، تنقل نفي أسماء كثيرة من التي قيل إنها وقّعت على الإعلان المثير للجدل، لم تكن أخبار النفي هي وحدها ســيدة مشــهد إعلان شــيعة العراق بل انقسمت صفحات الرأي حول جدوى الإعلان ومخاطر توقيته ومضمونه.

العودة

لقـد انقضى زمن الثورة، لقـد انتهت الإعلانات وانتهى الضجيج والهياج، هناك الآن شيء آخر ينمو، شيء جديد، إنه ينمو غير منظور وفي هدوء مثلما ينمو العشـب، إن حرية جديدة تولد .

باسترناك

عصر التاسـع من نيسـان 2003، وصلت قم قادما من مشـهد، المسافة بين المدينتين 1100 كيلومـتر، انقطعـتُ خلالها عن أخبار الحرب، كنـت ضمآنا لمعرفة ما يجري. دخلت ضريح فاطمة بنت الإمام الكاظم، التي يسميّها الإيرانيون «معصومة»، وضعت حقيبتي لدى موظف الأمانات في الضريح وتوجهت لسوق العراقيين المجاورة للمرقد، لأعرف أين وصلت الحرب، أخذ الموظف الحقيبة وأعطاني وصلا بتسلّمها، كان يقف خلفه معمّم بدين وكبير بالعمر، يبدو أنه مسؤول عن العمل، سألني:

ـــ هل أنت عراقي؟ قلت له نعم، فبادرني:

ـــ أتتكم الحرية فتمسّكوا بها.

صدمتني صراحته فقلت له على سبيل الجدل الخبيث:

ـــ أميركا هي الشيطان الأكبر وهي من سيحكم بعد الطاغية، فما تقول؟

هزّ يده وقال مستنكرا سؤالي:

ـــ هذه أميركا، إنها الحرية.

وأعاد كلمة الحرية بشغف غريب أكثر من مرّة، استغربت من حديثه العلني، فكيف يجرؤ معمّم إيراني على الاستهزاء من مقولة «الشيطان الأكبر» ومرشدهم الأعلى هو من سمّاها بهذه التّسمية؟ أليسوا هم من حملوا راية مقاتلتها ولواء حربها؟ لماذا يبدو هذا المعمّم البدين كأنّه متعطش للحرية أكثر من نيتشه نفسه؟ يكرهون أميركا في العلن ويتمنّون في السرّ لو إنها أسقطت نظام حكمهم، في أي ضفة تستقرّ حقيقتهم؟ لا أدري.

أسرعت صوب سوق العراقيين، علمت أن دبابة أميركية أسقطت تمثال صدام وسط بغداد، هرب الدكتاتور تاركا كرسيه، وعائلته، وسلطته، وجرائمه، ولا أحد يعرف مصيره. هدأت روحي، لقد انتهت أعنف الديكتاتوريات الشرقية وانتهى معها الكابوس العراقي، وسنعود الى نفوسنا، نعيد ترتيب حياتنا مرّة أخرى. في تلك اللحظة توقفت رياح أحزان الغربة في نفسي، ألقيت بخيالي صوب يومياتي في بغداد، لا أكاد أصدق أن كابوس صدام والبعث انتهى الى الأبد، العالم الآن لم يعد غريبا عني، ولست بحاجة الى الهرب أو التوغل في دروب أخرى من ألم الاغتراب. لن أنام بعد اليوم في الشوارع ولن أكذب على أصدقائي حين يسألوني عن سبب جلوسي لهذا الوقت المتأخر من الليل على مصطبة في شارع كئيب وخال من البشر، لن أثقل عليهم، وستكفّ أحماض معدتي وقرحتي عن سدّ منافذ الهواء عليّ، سأتنفس مثل الناس وسأنام على فراش دافئ مثلهم.

مضى شهرٌ واحدٌ على واقعة ساحة الفردوس حيث سقط التمثال المخيف حتى

استطعت أن أنفذ للعراق، وكنت قد جرّبت قبل ذلك الدخول الى العراق عقب أيام قليلة على «السقوط» ، إلا أن المحاولة فشلت على بعد كيلومترات قليلة من الحدود. ففي آخر نقطة أوقفتنا سيطرة عسكرية لتمنعنا من الوصول، قال لنا ضابط، إن قرارا بمنع دخول العراقيين من منفذ «قصر شيرين ـ المنذرية» صدر من أعلى سلطة في البلد، من مكتب الولي الفقيه، بعد تعرّض رجل دين عراقي وهو مرجع لجهة سياسية تنشط في إيران الى التسليب من قطاع طرق إثر اجتيازه منفذ المنذرية الحدودي، تكلّم معنا الضابط الإيراني بلهجة عراقية نقيّة تماما، بارك لنا سقوط صدام وأبدى فرحه بما جرى، قال إنه ولد في العراق وعاش فيه، وانه هجّر من قبل صدام حسين بسبب أصوله الإيرانية وهو الآن ينتظر أن تنتهي مهمته بسرعة ليزور النجف، تصوّرت قصص عودة المغتربين وشكل العراق الجديد، حيث لا إبعاد ولا إسقاط جنسية ولا تسفير. من ألوان الفرح والبهجة تشكّلت في خيالي صورة عراق ما بعد صدام.

كانت الرحلة الى الحدود متعبة لي أشدّ التعب فقد أجريت قبلها بأيام عملية «الناسور»، وكانت أقرب الى النصب والاحتيال منها لعملية جراحية حقيقية، كنت مرهقا ولم اتمكن من الجلوس في الرحلة التي استغرقت 10 ساعات، إلا لوقت قليل موزّع بين ساعات الوقوف، أرهقني الطريق الطويل ووجدت نفسي أعيده مرّة أخرى مباشرة، لكني رغم ذلك كان فرحي بالعودة يخفّف عني الآلام وينسيني تعبي.

قبل أن تتحرّك السيارة لتعود بنا الى قم، مدّ الضابط الإيراني يده الى جيبه وأخرج عددا من الهويات المدنية وطلب منا تعريفه بالمزوّرة منها والصحيحة، قال إنه ترك العراق وفيه جنسية تشبه الدفتر وليس ورقة واحدة كما هي الآن، وإنهم يمسكون بشباب إيرانيين متوجهين الى العراق، وهم يحملون هذه الهويات فقط، كنا خمسة أشخاص، اثنان منهم صديقان مقرّبان لي هما رفيقاي في الرحلة، أشار له أحدهما بأني هربت لإيران من وقت قريب، وأعرف شكل الختم الأخير وشكل الوثيقة أيضا.

من جانبي كنت قد شاهدت حركة تزوير لوثيقة الجنسية العراقية رائجة في سوق العراقيين بعد أيام على السقوط، تباع فيها لشبان إيرانيين هويات عراقية يطلبونها

لزيــارة المراقد الدينية في النجف وكربلاء والكاظمية، وكنت شــاهدا على نكت صنعها الشبان العراقيون المزوّرون، فقد وقفت على عربة بيع خضار يملي على سطحها بائع الهويات لشــبان إيرانيين وثائق مختومة بمختلف أشــكال الختم، دائري بنفســجي، وذهبي، ومثلث، كان الخبيث يملأ الهوية بأسماء تثير الضحك فقد كتب لأحدهم.

الاسم: علي حسن المجيد

اللقب : ناصري

اسم الام :صبحة طلفاح

محل الولادة : العوجة.

كان الشبان المشترون لا يعرفون ما يصنع بهم من مقالب، وملأ أحدهم هوية لشاب آخر، كتب له. الاســم، سعدي الحلي، واختار زهور حسين، اسما للأم ، وهكذا تحوّلت الأسماء المزوّرة الى نكت تثير الضحك.

في الســابع من أيار، وعن طريق أحد مقرات المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق (الذي ســيتحوّل اســمه الى المجلس الأعلى الإســلامي) في قم، حصلنا على إذن بالعودة الى بغــداد، وهو إجراء اتبعته الســلطات الإيرانية للســماح للعراقيين بالعودة لبلدهم للحدّ مــن ظاهرة إقبال الشــباب الإيرانيين لزيارة العراق، وصلــت الى الأهواز ومعي صديقــاي المقربان ذاتهما اللذان كانا معي في محاولتنــا الأولى لدخول العراق، ولكل منهما ســتكون قصة في عراق الديمقراطية، أحدهما سيلتحق بجيش المهدي ويطارد من قبل الأميركان فترات طويلة وســيفقد أخاه غدرا في البيت، ويفقد الآخر في حادث ســير بعد أن جاء لزيــارة العراق من منفاه في هولندا، وكان قــد فقد قبلهم اثنين من أشــقائه أعدموا في عهد صدام حسين. ورفيق السفر الآخر سيفتح دكانا بعد أن أنهى جولــة طويلة ومرهقة مع الأحزاب اســتمرت أكثر من عشرين عاما وســيودع الحياة بسكتة قلبية.

اســتأجرنا ســيارة تاكسي يقودها رجــل أهوازي عربــي في الخمســينيات من العمر ليوصلنــا الى عبــادان، وهي النقطــة التي ســننطلق منها الى العــراق، وحين صعدنا

السـيارة اشـترط علينا ألا نمنعه من سـماع الأغاني فهو يفترض أن كلّ العراقيين في إيران هم من المعارضة الإسـلامية وأنهم يحرمون أنفسـهم من سماع الأغاني، وحين انطلقت السيارة كان صوت يونس العبودي يقطع صمت الطريق مثلما يقطع القلب بشجنه ومواويله الشجيّة، تحدّث معنا السائق قائلا:

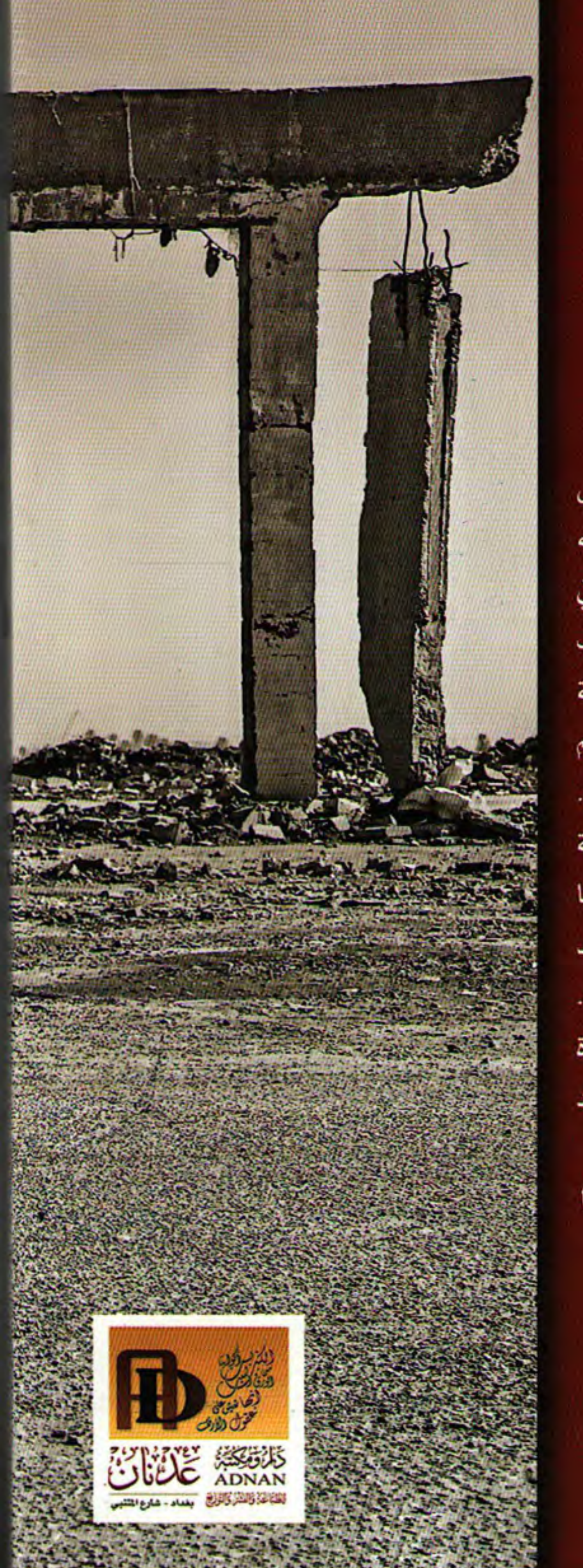
ـــ أرجوكم مـن ترجعون للعراق لا تفكرون بدولة إسـلامية، اتركـوا الناس تعيش بحرية.

تحدّث عن ثوريته الإسلامية وكيف أنه كان من الثائرين من أجل إقامة حكم إسلامي في إيران، وعن تعرّضه للسجن أيام الشاه بسبب عقيدته، كان نادما على ما فعل، ترك عقيدته السياسـية وتفرّغ لمعيشـته كمدرس وسـائق تكسي في أوقات الفراغ، قال إن الحكم الإسلامي يقتل الإسلام في أرواح الناس.

وصلنا لعبادان لتنقلنا سـيارة حمل تعود للمجلس الأعلى للثورة الإسـلامية الى منفذ الشلامجة الحدودي المقابل للتنومة في البصرة، جلسنا في حوضها ومعنا بضعة رجال من عناصر المجلس، شـاهدت في الحوض عـددا من العلب الكارتونية الكبيرة الحجم، وحين تحرّكت بنا السـيارة سـألت أحدهم، عن مـا تحويه العلب، قـال ببرود وكأنّه يتحدّث إليّ من خلال الزجاج، إنها صور للمرجع الديني آية الله السيد محسن الحكيم وولده السيد محمد باقر، التفت الى صديقي وقلت له :

ـــ هم رجعنا للصور؟ ما خلصنا؟

الفهرست



إنه كتاب أمين بدرجة فوق العادة على الواقع، على سيرة المؤلف، وحياة أهله وأصدقائه ومحلته، ثم غربته القصيرة في إيران. كتاب فيه أشياء من أمانة الأب المسؤول الحادب على أولاده، ومن شفقة الطبيب على مرضاه، ومن دقة العالم المدفوع الى المعرفة المجرَدة من الأهواء. وقد تناوبت المسؤولية والشفقة والمعرفة على نسج وثيقة ضارية في مواجهتها للواقع، وصياغة سيرة خالية من الحقد لعالم مقاد بقاطرة هائلة من الكراهية. وثيقة خطتها يد إنسان طبيعي عن حياة غير طبيعية، أو إنسان سليم عن بلاد فقدت كل أسباب السلامة.

أحمد المهنا